
عبد المنعم الصاوى
بالونات :
لعبة ولد
اسمه حسن!

بالونات:

لعبة ولد اسمه حسن!

عبد المنعم الصاوي

الغلاف والرسوم الداخلية
بريشة الفنان: عبدالحليم البرجيني

بالونات:

لعبة ولد اسمه حسن!

عبد المنعم الصاوى

عالمية
للنشر والإعلان

يا حسن!!

يا أى حسن تكون!!

فى أى زمان أو مكان : تحبو أو تتدحرج،

أو تتساند لتسير!

.. وحتى حين تطلق ساقيك للريح، فستظل تحلم بألعاب كثيرة ومثيرة، تتحرك أو تتكلم، أو تتثنى، لتثير ضحكاتك الصافية البريئة.

وستكون أمنيتك العزيزة أبدا، أن تحصل على بالونات كثيرة كثيرة جدا : صفراء وخضراء وحمراء وبيضاء، لا تهمك ألوانها ولكن يهمك أن تكون منفوخة جدا،

وكلما كانت أكثر انتفاخا، كلما كانت فرحتك بها أكبر!!

وستضحك يا حسن من قلبك

.. ستجمع بالوناتك من حولك وتضحك

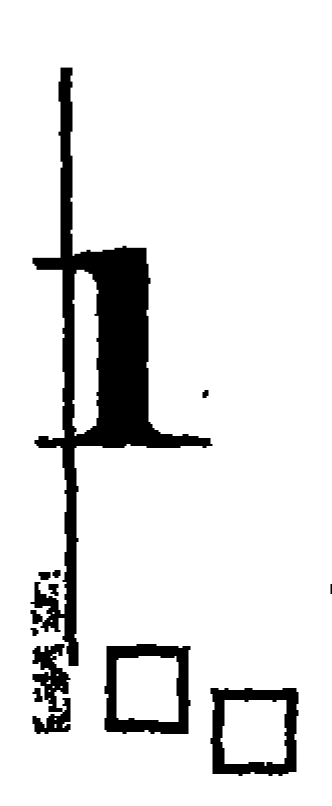
.. وستنفخ بالوناتك لتطير، وتضحك

ولكن حذار يا حسن... حذار من الضحك

إن كثرة الضحك، تميت القلب!!

عبد المنعم الصاوى





أنت!.. اسمع الكلام، وكفى!

لكن حسن لم يسمع الكلام، وظل يعربد!

يضرب الأرض بقدميه، ويملأ الجو بصيحاته، ويداه لا تكفان عن إطلاق إشارات احتجاج وغضب.

وسميحة جالسة ترقب المشهد!

يداها مشغولتان بحسن وهو يعربد، وبأبيه وهو يحاول أن يثنيه عما أخذ يطالب به.

وشفتاها مشغولتان ـ مع ذلك ـ بابتسامة سعادة ورضى.

ولم يستطع مراد أن يمضى فيما بدأه.

كان يحلم بساعات هادئة، يعيش فيها مع كتابه هذا، الذى استعاره من صديقه مختار، وتعهد له بأن يعيده إليه على وجه السرعة.

ومختار قد يعرف التساهل فى أى شئ، إلا فى كتبه. إنه يعتبرها ثروته الحقيقة، وهو يتفنن فى جمعها، بنفس اللذة

التى يجمع بها هواة الطوابع طوابعهم، أو هواة التحف النادرة تحفهم.

●●●

ـ نعم يا صديقى مراد. الكتب هى ثروتى الحقيقة.

ـ ورق.. سيبلى ذات يوم.

ـ قد يبلى الورق، لكن لن يبلى ما فيها من أفكار.

ـ ستموت مع الناس، عندما يموتون.

ـ بعد أن تنتقل إلى ناس آخرين.

ـ هذه حياة جافة يا صديقى.

ـ بل هى خصبة وغنية.

ـ أبهذا الصمت المطبق حولك؟

ـ بل بهذا العمق الضارب فى أعماق الزمن.

ـ يا مختار..إنك تزين حياتك لنفسك.

ـ ولم لا؟

ـ وتعوض بوهمك هذا الجفاف، وهذه الوحدة.

ـ وأنت لماذا تستعيرها؟

ـ لأقرأها.. ثم أعيدها.

- تتسلى؟

- وأستفيد، ثم أنتهى.

- فإن عاودك إليها حنين؟

- أعود اليك.

- فإذا لم تجدنى ؟

- أذهب إلى دار الكتب.

- وتنتهى من الكتاب، ثم تهجره؟ أليس كذلك؟

- لأنتقل منه إلى سواه.

- كالثعلب.

- أو كالنحلة.

- النحلة تحول ما تمتصه إلى عسل.

- وأنا أحوله إلى تجربة.

- وتتنكر لصاحب الفضل عليك؟

- وهل يريد بفضله أن يستعبدنى؟

- بل يريد أن تذكره له.

- وعندما أحقق التجربة به ألا يكفيه هذا ذكرا له؟

- تحقيق التجربة لنفسك، لا له.

- وماذا تقترح؟

- أن تكون وفيا لصاحب الفضل عليك.

- بماذا؟

- بصحبته، وبعشرته.

- الكتاب؟

- نعم.. الكتاب..

- وهل يدرك؟ هل يعى؟

- فإن لم يكن يعى، فأنت تعى.

- سفسطة. هذه سفسطة.

- بل قلها.. خيانة.. هذه خيانة.

- خيانة الكتاب؟

- وغدر بالفكر داخل الكتاب.

-.. وكذلك غدر؟

- وسلسلة من الجرائم لا تغتفر.

●●●

قال مراد لنفسه، فى نفس اللحظة التى ينحى فيها الكتاب بعيدا عنه.. خيانة.. وغدرا!!

ومع حركة إغلاق ما بين دفتى الكتاب، شعر بأنه يرتكب جرما، فظل يضع أصبعين من أصابع يده اليسرى بين دفتى الكتاب، لتظل الصلة بينهما متصلة.

●●●

صحيح يا صديقى مختار. عندك حق. هذه خيانة. وإنى لاشعر الآن، كما لم أشعر أبدا، بأنى ارتكب خيانة.

أنا أخون صديق الفكر هذا، الذى أتى إلى عندما طلبته، وتحدث إلى عندما فتحت له أذنى، واحتضننى فى رفق وحنان، عندما القيت بنفسى بين يديه، وأخذ يربت على كتفى مرة، ويمسح على رأسى مرة، ويواسينى مرة، ويؤنس وحشتى أبدا.

هذا الكتاب حى.

إنى أسمعه الآن يا مختار يتحدث.

أشعر بأنفاسه فوق وجهى.

وهذه أكف الرحمة تحملنى إلى آفاق بعيدة ورائعة، وتكشف لى أسرار الكون، فى تواضع وأمانة.

ليست هذه الصفحات جامدة، ولا هى ميتة يا مختار.. أبدا، فإن لها صوتا ولها كذلك طعما، ورائحتها الحلوة تتضوع بين أرجاء المكان.

أنا خائن اذن وغدار!

انا أخون صديقى هذا، لأنى ضعفت أمام صيحات هذا الطفل العربيد!

أنا أغدر به، وهو معى، وبين يدى.

يا أخى يا مختار.. اسمع معى هذه الكلمات.

لقد ولدت فى الساعة الثامنة من مساء ١٦ ابريل سنة ١٨٨٩ فى حى "وولورث بلندن" وبعدها مباشرة انتقلنا إلى "وست سكوير" فى طريق سان جورج بحى لامبث.

وبناء على ما أعرفه من أمى، كانت طفولتى سعيدة، فقد كان كل ما يحيط بنا مريحا. كنا نعيش فى ثلاث حجرات مفروشة ولا زلت أذكر أننا كل ليلة، قبل أن تغادر أمى الشقة إلى المسرح، كنت وأخى سيدنى ندخل فراشنا فى رعاية مربية خاصة. وكان أخى يكبرنى بأربع سنوات. وعندما كنت فى الثالثة والنصف، كنت أتصور كل شئ ممكنا. وعندما كان

سيدنى يعلب بقطعة نقد فيتظاهر بابتلاعها ثم يستعيدها من خلف ظهره، كنت أتصور أنى قادر على القيام بنفس اللعبة. لكننى ابتعلت نصف بنس، فاضطرت أمى إلى استدعاء طبيب.

وكانت أمى تأتى لنا كل ليلة، بعد عودتها من المسرح، بأشياء لطيفة : قطعة حلوى أو بضع شطائر، لنتناولها فى الصباح، سيدنى وأنا، بشرط ألا نزعجها بأصواتنا، لتظل نائمة حتى وقت متأخر.

كانت أمى مغنية منوعات، وكانت فى العشرينات من عمرها جميلة بعينيها الزرقاوين وشعرها الطويل الأسود، وبرغم أنها لم تكن على درجة شاذة من السحر، إلا أننا كنا نعتقد أن طلعتها مقدسة. وهؤلاء الذين عرفوها فى أيامها الاولى قالوا لى عنها أنها كانت جميلة وجذابة وعلى قدر من الإغراء. وكانت تزهو بنا، أخى وأنا، عندما تعنى بملابسنا، لتخرج بنا فى نهاية الأسبوع. كانت تضع سيدنى فى زى مدرسة أولاد الذوات المسماة ايتون، وفى بنطلون طويل، وأنا فى بدلة زرقاء قطيفة، ثم تخرج بنا للنزهة فى شارع كننجتون.

لكن شيئا حدث، ولابد أنه حدث بعد شهر أو أكثر. لقد قضت أمي النهار كله مع سيدة صديقة خارج المنزل. ثم عادت معها في حالة انفعال شديد. وكنت ألعب على الأرض، لكن الانفعال الذي سيطر عليها انتقل إلى أعماقي فهزني بعنف شديد. لقد كانت أمي تصيح وهي تبكي، وظلت تكرر اسم آرمسترنج. آرمسترنج قال هذا. ارمسترنج قال ذاك. آرمسترنج كان غبيا! لقد كان انفعالها غريبا ومؤثرا، حتى بدأت أبكي عندما اضطرت أمي إلى أن ترفعني من الأرض لتهدئ من روعي. وبعدها ببضع سنوات، فهمت سبب هذا الانفعال. كانت أمي عائدة لتوها من المحكمة بعد أن شهدت جلسة قضية طالبت فيها أبي بنفقة لأولادها، لكن القضية لم تسر سيرا مرضيا لها، أما آرمسترنج، فقد كان هو محامي أبي.

أبي! إني لم أنشأ على اهتمام بأب! ولا أذكر أنه عاش معنا.

لقد كان أبي بدوره ممثل فودفيل، هادئ الطبع، ذا عينين سوداوين. ولقد كانت أمي تقول عنه أنه كان يشبه نابليون. كان صوته "باراتون" خفيفا، وكان يعتبر فنانا ممتازا. وفي

تلك الايام كان يربح أربعين جنيها كل أسبوع. والمشكلة أنه كان كثير الشراب، وقد أدى هذا إلى تحطيم حياته مع أمى.

فى تلك الأيام، كان صعبا على ممثل فودفيل ألا يشرب، فقد كان الشراب يباع داخل المسارح، وبعد كل فصل من الفصول كانوا ينتظرونه عند البار ليشرب مع الزبائن. وكانت بعض المسارح تكسب من الشراب أكثر مما تكسبه من الشباك. وكثير من النجوم كانوا يتقاضون مرتبات أكبر، لا لمواهبهم، ولكن لأنهم ينفقون أغلب ما يكسبون فى بار المسرح. لهذا فإن كثيرين من الفنانين كانوا يتحطمون من الشراب، وقد كان أبى أحد هؤلاء. بل إنه مات من تأثير الشراب وهو فى السابعة والثلاثين.

وكم كانت أمى تحكى الحكايات عنه، فى مرح، لكن فى حزن مع ذلك. كانت تتقمصه روح عدوانية إذا شرب. وفى مرة اضطرت للهرب منه إلى برايتون، فأرسل إليها ببرقية يقول فيها : ماذا أنت وراءه هناك؟ فأجابت على الفور ببرقية أخرى : موائد، وحفلات، ورحلات.. يا حبيبى.

كانت أمى كبيرة أختين، أما جدى فقد جاء من أيرلندا، بخدود وردية كالتفاح وشعر أبيض. وبعد أن اشترك فى ثورة

التحرير فى أيرلندا استقر فى لندن، فى محل إصلاح أحذية. وكانت جدتى نصف غجرية، ولقد كانت تزعم أن أهلها كانوا من مستأجرى الأراضى الزراعية، وعلى كل حال فقد كانت تحمل اسم عائلة سميث. وأنى لاذكرها. كانت سيدة مسنة شقراء صغيرة الحجم، تروى لى الحكايات الطريفة، وماتت قبل أن أبلغ السادسة من عمرى. وهى الأخرى انفصلت عن جدى، لكنهما لم يكونا يحكيان سبب ذلك أبدا. ومع هذا فقد قالت خالتى «كيت» أن جدى فاجأ جدتى بحالة حب أدت إلى هذا الانفصال.

هذه هى أخلاقيات الاسرة التى نشأت فيها، ولكى نقيسها إلى المستويات المتعارف عليها، فإننا سنكون كمن يضع الترمومتر فى ماء يغلى! ونظرا لهذه الظروف غير الطبيعية، فإن فتاتى الأسرة الجميلتين، تركتا المنزل إلى خشبة المسرح. لقد كانت خالتى كيت، هى الأخرى، مغنية سبرانو فى مسرح منوعات، ولكنا لم نعرف غير القليل عنها، لأنها اعتادت أن تدخل حياتنا ولكن سرعان ما كانت تخرج منها على الفور. لقد كانت جميلة ولكنها كانت شديدة التقلب، ولا نعرف أنها استطاعت التفاهم طويلا مع أمى.

كانت تأتى إلينا، لكن لتغادرنا بعد شجار بسبب شئ تكون أمى قد فعلته أو قالته.

وعندما كانت أمى فى الثامنة عشرة، هاجرت مع رجل فى وسط العمر، إلى أفريقيا. وكثيرا ما كانت تحدثنا عن حياتها هناك بين الخدم والحشم فى رغد وبذخ. وفى تلك السن وضعت أخى سيدنى، وقد قيل لى أنه ابن لورد، وأنه سيرث عندما يبلغ سن الرشد مائتى ألف جنيه. وكانت هذه المعلومات تسرنى وتغيظنى معا.

ولم تطل إقامة أمى فى أفريقيا، فعادت إلى إنجلترا وتزوجت أبى. ولم تكن لدى معلومات عن الأسباب التى حملت أمى على مغادرة أفريقيا.وفى أشد أيام الفقر كنت ألوم أمى لأنها تركت هذا الرغد والنعيم. وكانت أمى تقابل هذا كله بالسخرية!

أما مدى حبها لأبى، فلم أكن أعرف عن ذلك شيئا، ولكنها ما إن كانت تتحدث عنه، حتى تشعر أنها لا تتحدث عنه بمرارة، وكان ذلك يحملنى على الاعتقاد، أنها كانت موضوعيا، تحبه. ومع هذا فقد كانت تتحدث عنه فى عطف مرة، وتهاجم سكره وروحه العدوانية مرة أخرى. وعندما

كانت تغضب منى كانت تصيح فى، أنى سأختم حياتى بمأساة مثل أبى.

لقد تعرفت أمى بأبى قبل رحلتها إلى أفريقيا، وتحابا ومثلا معا على مسرح الميلودراما الايرلندى المسمى "شاموسى أوبريان" وبينما كانت أمى فى سن السادسة عشرة، كانت تلعب أدوار البطولة. وفى أثناء جولة المسرح، قابلت الرجل الآخر، حيث ذهبت معه إلى أفريقيا، وكان لوردا غنيا. فلما عادت إلى انجلترا، وجدت أبى فى انتظارها، فالتقطا معا بقايا الحب القديم، وتزوجا. وبعد ثلاث سنوات، ولدتنى أمى. وبعد ولادتى بسنة واحدة، انفصلت عن أبى. ولم يكن يخطر ببال أمى أن تقاضى أبى بشأن نفقة ما، فقد كانت نجمة ساطعة تكسب كل أسبوع خمسة وعشرين جنيها، وتستطيع أن تقيم أود الأسرة بكرامة واستغناء، ولولا أنها سقطت تحت ضغط الحاجة.

لقد كانت تعانى من ضعف صوتها، وفى حالات نزلات البرد، كان صوتها يتأثر بشدة. وفى مرة استمرت النزلة عدة أسابيع، وكانت أمى تعانى، لكنها كانت مضطرة للاستمرار فى العمل، فأثر هذا على صوتها تأثيرا سيئا، حتى لم تعد

قادرة على الاعتماد عليه. ففى وسط الغناء، كان صوتها يضطرب وأحيانا يختفى فى نوع من الصفير، فيضحك المشاهدون أو يهزأون. وأدى هذا بها إلى نوع من العصبية، ونتيجة لهذا فإن ارتباطها بالمسرح ظل يتناقص حتى كاد ينتهى.

●●●

وبعد معك أيها الحكيم التائه. ألا تزال فى شرود؟

هذا صوتها يا مختار يا صديقى :

هل تعرف صوت المنبه فى الفجر أو وقت السحر؟

هل تعرف سلطان النوم، وهو يستغرقك، فى هذا الوقت المبكر من مطلع النهار، وبرد خفيف يزحف عليك، فيزيدك رغبة فى نوم هادئ، ودافئ؟

.. وفجأة يا صديقى يرن صوت المنبه!

وتشعر كأن حجرا قد سقط فوق رأسك، أو أنهم وضعوك تحت الدش البارد فجأة، وبلا مقدمات!

هكذا كان صوتها!

هكذا صوتها دائما يا مختار!

هكذا سميحة، التى جعلنى القدر زوجها، فى آخر هذا الزمان!

ما أتعسنى يا مختار، بين نقيضين!

أنت صديق عمرى، تعيش حياة مفكر، يربى أفكاره، على الكتب والصور والنغم.

وهى رفيقة عمرى، تعيش فى عداء للفكر، تستبدل به الأرانب والحمام، وكل ما يملأ البطن ويسد فراغ النفس!

وأدفع عمرى، بين صديق العمر ورفيقة العمر!

لكن هل أنا حقيقة ضيق بكما؟

هل أنا نادم على عشرتكما؟

... لا أدرى!

أنت لم تفرض نفسك على. أنت ارتبطت بى عن اختيار مطلق. الدنيا ساقتك إلى. دخلنا مدرسة واحدة، وانتمينا إلى فصل واحد، واشتركنا فى "تختة" واحدة، وارتبطنا برباط لم ينفصم أبدا.

هل تم ذلك صدفة؟

هل حدث رغما عنك أو عنى؟

لكن لماذا؟

كان فى المدرسة آلاف الأولاد.

وكان فى الفصل عشرات التلاميذ.

فلماذا لم اختر سواك، ولم تسق الاقدار فى طريقك غيرى؟

هى الدنيا يا مختار، تضع كلا فى طريق وقد يتلاقى على الطريق أصحاب المزاج الواحد، وقد يتلازمان، فلا يفترقان.. وقد يتناحران ويقتتلان!

●●●

- أيها الحكيم التائه. إلى أين قادتك قدماك؟

- إلى حيث أستطيع أن أصدر الأحكام على الناس. إلى محكمة الرأى والضمير، يا زوجتى العزيزة.

- ولعلى أنجو من أحكامك يا زوجى الغالى.

- والمحكمة لا تعرف التمييز. إنها تصدر الأحكام، لكنها تجد من الحكمة ألا تعلنها فى بعض الأحيان.

- من الحكمة، أم من العقل؟

- العقل والحكمة واحد.

- والخوف؟

- نوع من الحكمة.

- يا أيها الحكيم التائه!! وماذا أصدرت من أحكامك اليوم؟

- أصدرت حكما بالإعدام!

- وجرأت عليه؟

- عندما يكون الإعدام هو الحل الوحيد، فعدم اصداره يصبح خيانة.

- خيانة لمن؟

- للإنسان.

●●●

وعدت إلى حالة الشرود التى كنت فيها.

وتصورت الحكم الذى أصدرته، وتصورت ماذا سيكون له من النتائج وارتاحت نفسى إليه، عندما راجعت أسبابه.

لقد قررت أن أعدم صفحة من ذكرياتى!

قررت أن أطمس ما فيها من حروف وكلمات وسطور، لتعود بيضاء ناصعة، كما خلقها الله.

ليست كل الذكريات جميلة.. ولا كل الذكريات طيبة.. ولا كل الذكريات عزيزة.

بعض الذكريات كريه وبغيض وعفن!

والمشتغلون بعلم الآثار، يدرسون فيما يدرسون أماكن العبادة، لكنهم يدرسون إلى جوار ذلك سجون التعذيب!

وسيجدون أمامهم آثارا تحكى كيف أحب رمسيس الثانى نفرتارى، فبنى لها معبدا رقيقا إلى جوار معبده المهيب فى "أبو سمبل" لكنهم سيجدون أمامهم كذلك قصص خيانات لا تنتهى! وجوانب صراع خسيس واغتيالات أنفس وحقوق! وتزوير فى صفحات التاريخ، وامتهان رخيص للنفس الإنسانية!

وهذه الآثار.. ما هى؟ وماذا تكون؟

ذكريات.. لا تعدو أنها ذكريات.

وهكذا تتوزع الذكريات بين الجيد والردئ ، بين الجميل والقبيح، بين الخير والشر.

يا صفحة ذكرياتى..

يا هذه الصفحة التى أصدرت عليها حكم الاعدام!

اعلمى أنى من أجل الحياة أعدمك، لأنك لا تستحقين الحياة.

والسطر النجس يحتاج إلى تطهير!

ولا تطهير لنجاسة الذكرى، إلا بالإعدام.

●●●

لكن قل لى يا صديقى مختار!

هل نحن صناع الذكريات؟

ألا نشترك فى صنع الذكريات؟

ألا نبنى بأيدينا ذكرياتنا؟ أم أنها شئ يهبط علينا من السماء، كأنه القضاء؟

نحن قطعا أيها الصديق الحالم مثلى، التائه مثلى، الحكيم مثلى، كما تقول سميحة. نحن نساهم فى صنع الذكريات، إن لم تكن صناعها بالكمال والتمام.

ألا ننمى عواطفنا بالممارسة؟

ألا نصقل وجداننا بالتجربة الواقعية؟

الحب مثلا، إذا لم نتعهده باللقاءات، والبسمات، ولهف الأحبه، ونار الشوق.

إذاً لم نسمع من أجله الأنغام الرقيقة الهامسة، ونردد مع المحبين أناشيد الغرام.

إذا لم نسجله فى خطابات، ونستعيد هذه الخطابات سطرا سطرا، كما نمتص قطعة من الحلوى.

إذا لم نفعل هذا، فهل نتصور أنه ينمو؟

فإن فعلنا، فهى إذن إرادتنا أيها الصديق، فى صنع ما نختزنه من ذكريات.

ذكرياتنا إذاً يا مختار جزء منا.

ذكرياتنا يا صديقى من صنعنا.

فإن حكمنا عليها بالإعدام، فهل يكون هذا حكما بالإعدام على أنفسنا؟

وهل تطاوعنا أيدينا، أن نعدم بالشمال ما بنيناه باليمين؟

هل نستطيع؟

هذا هو الصراع يا مختار.

وعنده كانت أطرافى ترتجف.

حكم الإعدام أصدرته، لكن على أن أتوقع أن أقع تحت وطأة هذا الصراع مع نفسى.. مع الجزء من إرادتى الذى صنعت به ذكرياتى.

- أنت المسئول عن كل ذلك يا حكيم الزمان.

- أنا مسئول عن ذكريات أمسى يا سميحة؟

- ومسئول كذلك عما فى الذكريات من شخوص.

- لماذا؟ لماذا يا زوجتى؟

- لأنك صانع هذه الشخوص.

- صنعتها لتنشر الخير.

- وغافلتك لتبذر الشر.

- فأعدمتها.

- وتئن مع أنينها!

- لأنى انسان.

- وفى الانسان ضعف.

- ومن الضعف تكون القوة.

- لكنك يا زوجى تلهث.

- وتلومينني على ما أعانى من بلاء؟

- بل على ما تعطيه من غير حساب.

- أمى كانت تقول : اعملُ الطيب وارميه فى البحر.

- ليطفو فوق الموج، ويجرفك.

- الطيب لا يجرف، بل ينقذ.

- والذين يمتصون ما فيك من خير.

- إن كانوا أخيارا، يزدادون خيرا.

- فإن كانوا أشرارا؟

- يتحول الخير فيهم إلى عتمة تخيف.

- وتؤذي...

- أذى موقوت، سرعان ما ينحسر.

- وأثره.

- كأثر التراب على الفضة يزيدها بريقا وبهاء.

●●●

الله! فيما أنت شارد أيها الحكيم المجنون؟

كنت تتحدث عن صديق عمرك، لكنك لم تحك عن رفيقة عمرك.

آه.. سميحة!

مختار ساقته إلى رحلة العمر، والمزاج الواحد، وسميحة كذلك ساقتها إلى حاجة العمر، وأيضا.. المزاج الواحد!

مختار هو العقل.. وجزء من وجدانى.

وسميحة هى الإرادة.. والجزء الذى لا يستطيع مختار أن يشغله من وجدانى.

عندما أكون مع مختار، أفكر وأحلم، وأناقش، وأشعر أنى سيد الكون بعقلى وإدراكى، وخيالى الخصب الواسع، الذى أستطيع أن أتنقل به كما أشاء.

نعم كما أشاء، حتى لو حاصرونى بجيش مسلح، والتفوا حولى بالحديد والنار.

وعندما أكون مع سميحة، لا أفكر، ولا أحلم، ولا أناقش، وأشعر بأنى سيد الكون مع ذلك، عندما أسيطر عليها، وأتملكها فلا تتنفس إلا من خلالى، ولا تتحرك إلا لتلهبنى! وأحس أنى قادر على أن أفعل بها ما أشاء.

نعم ما أشاء، بعد أن صارت كلها لى، وطوع بنانى.

مختار وسميحة، إذًا يكملان الدائرة حولى...

بلا مختار ينضب عقلى، ويجف جزء رقيق متسام من وجدانى.

وبلا سميحة تذبل إرادتى، ويتشتت الجزء الشقى من وجدانى.

ولكى أعيش، فلا بد لى منهما معا.

لا أستطيع أن أحيا بلا عقل، أو بلا خيال.

كما لا أستطيع أن أعيش بلا قلب، وبلا غريزة.

أنا إنسان..

أكتب وأتخيل، وأشرد.. لكنى إنسان.

أفلسف ما حولى من أمور، وقد أنأى بها عن هذا الواقع الذى أعيشه، لكنى حتى فى هذا إنسان.

●●●

وبعد يا مختار.

لا يزال الكتاب فى يدى، ولا يزال إصبعان من أصابع يدى اليسرى يمنعان أن تنطبق دفتاه كل منهما على الأخرى، ليظل الحبل متصلا بينى وبينه.

صديق فكرى هذا الرقيق، حدثنى فى تواضع، وحكى لى ما حكى فى صمت. لم يفرض على رأيا، ولا أملى إرادة. لم يحاول أن يؤثر على بصوت قد يغلظ فأخاف، وقد يرق فأرق له. ولم تصحب كلماته إشارات أو نظرات أو مؤثرات من أى نوع. إنما سرى بين أوصالى كالدم، لا تشعر به وهو يسرى،

لكنه مع هذا يسرى. كالماء الرقراق الذى يتخلل المنحنيات، ويخترق الصخر ويملأ جوانب المكان، ولا تشعر به إلا وهو معك، حيث تكون. يصل إليك، فيملأ عقلك، ويملأ قلبك، وقد يحرك إرادتك، ولو حركة سلبية لا معنى لها. قد تبكى، وقد تحزن، وقد تغضب، ثم تطبق الكتاب، وكأنما لم يحدث شئ.

لكن قل لى يا مختار. هل الدمع وهو يسيل عمل سلبى؟ هل الحزن موقف سلبى؟ هل الغضب والانطواء على النفس سلبية؟

وماذا تكون الإيجابية يا صديقى؟

هل لابد للإيجابية من عنف؟ هل لا تكون الإيجابية إيجابية، إلا بسلوك مادى ملموس؟

وهذه العواطف الدفينة بين طيات النفس. ماذا يصنعها؟ ماذا يقيمها؟ المادة؟ أو السلوك المادى؟ أو العنف بكل ما فى العنف من قسوة؟

فإن يكن صانع هذه العواطف يا صديقى شيئا آخر غير المادة والعنف والقسوة فهذه العواطف فى نفسها كيان رائع كبير.

العواطف يا أخى مختار تصنع الشعر والغناء.

العواطف كذلك تصنع الفنان نفسه، وهو منتج الفن ومبدعه.

بل العواطف تصنع، إلى هذا، حلم العالم فى حياة أفضل.

الذين يخترعون يا مختار، لا يخترعون إلا لأنهم يحلمون، ويشردون ويبعدون عن واقعهم هذا الزرى إلى حياة أخصب. يخلقونها لأنفسهم، لكنها أخصب. والذى يبدو اليوم حلما، قد يغدو بعد ذلك حقيقة. وقد يكون الحالمون ذهبوا. ماتوا، أو انقرضوا، أو يئسوا، لكنهم سيعودون، فى أحلامهم عندما تصبح هذه الأحلام حقائق.

●●●

ـ ويعد معك أيها الحكيم التائه؟

ـ ويعد معك وحسن لا يكف عن الصياح؟

ـ ويعد معك والعربيد الصغير قد ملأ جوانب البيت صخبا.

●●●

لكن من الصخب ما قد يكون أرق من الهمس وأمتع من النجوى.

وهذا الصخب الذى حولى.

بل هذا العربيد العنيد، الذى يملأ حياتى صياحا، يضعنى أمام موقف غريب.. ورائع مع ذلك.

إنه ـ وأمه معه ـ يمثلان فى حياتى الوجه المقلوب منها!

أنا أريد الهدوء، فيملآن البيت صخبا، لأبحث بين حطام الصخب عن الهدوء.

أنا أريد الخيال، فيعكران صفو حياتى بالواقع، لأجد فى بحثى عن خيال.

الفقر يدفع إلى الغنى!

والحاجة أم الاختراع!

والذين يتصورون شظف العيش مرارة تملأ الحلق، سيدركون أن هذه المرارة حلوة، عندما يدركون ما تتركه فى نفوسهم من طاقات العمل والإنتاج.

هذا الثمر البديع، الذى نسعى إليه.. نابت من الطين!

هذا الزهر الفواح، الذى نهفو إليه.. سماده يزكم الأنوف!

بل الطعام لا يستوى إلا على النار!

والثياب لا تنظف إلا من قذارة!

●●●

وبعد معك يا أيها العربيد الصغير.

انتظر حتى أفرغ من كلمات الكتاب. إن هذه الكلمات تطل على من الثغرة الصغيرة المفتوحة بين دفتيه، وأنا أضع إصبعى بين دفتيه.

كأنما هذه الكلمات وجوه كائنات صغيرة رقيقة بريئة، فيها جمال حزين.

أو كأنما هى زهرات صغيرة رقيقة فى حب وكرم.

وإنى لأتصور صاحب الكتاب فى هذه السطور يبكى. وأعجب له، وهو الذى إعتاد على أن يضحك ملايين الناس فى كل مكان، ولمدى طويل من السنين.

●●●

هلا عرفته يا صديقى؟

شارلى شابلن فى مذكراته.

فى الصفحات الأولى من مذكراته الشخصية، وهو يروى ذكريات طفولته الأولى، ويصارح نفسه ويصارح قراءة بحقائق حياته.

●●●

- وتريدينني بعد هذا أن أترك الرجل العملاق، لأسكت العربيد "حسن"؟

- يا سميحة يا زوجتى أسكتيه أنت واسكتى معه.

●●●

لكن لا سميحة، ولا حسن يسكتان.

عربيدان، هذان المخلوقان.

إنهما أنا، لكن من الخلف!

●●●

- ماذا.. ألا تسكت؟

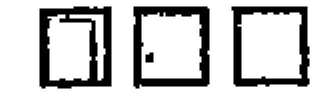
- ماذا تريد يا حسن؟

●●●

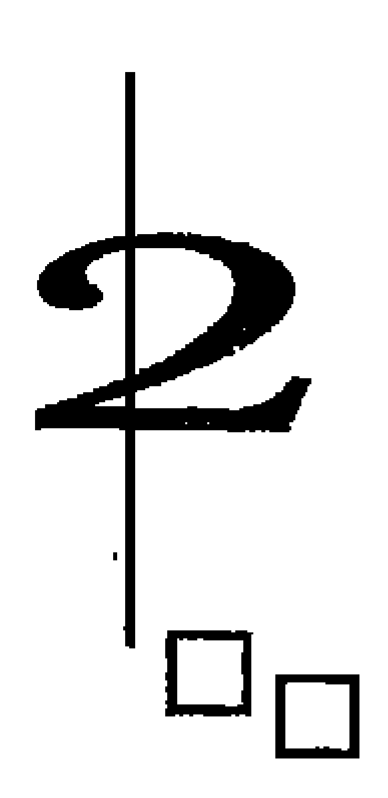
إن حسن يريد لعبته المفضلة، ولن يسكت حسن إلا بعد أن يحصل عليها. ولن تسكت سميحة، إلا إذا سكت حسن، ولن ترتاح يا مراد، إلا إذا سكت الإثنان.

وشارلى شابلن، ومذكراته هذه التى بين يديك؟

هل سكت الكتاب والكاتب، أم هو الآخر يصيح.. من الداخل؟







لولا أنى كاتب يا مختار أتهيب قلمى، لقلت كلاما كثيرا جدا عن هذه الحياة.

هل هذه الحياة لغز؟

هل هى مأساة؟

هل هى كوميديا كبيرة؟

هل هى سيرك، وهل الناس فيه يمشون على الحبال! والذين لا يستطيعون منهم أن يحكموا توازنهم، يسقطون من فوق الحبل، أو يترنحون، أو يتصايحون؟

أم هى غابة، فيها عدد لا يحصى من الحيوانات، مفترس ومستأنس، هادئ الطبع وعصبى المزاج، خير وشرير، آكل لحوم البشر، ومجتر الأعواد الخضراء فى أناة!

هذه الحياة، ما هى؟

ليتنى قادر على أن أكتب بحرية، ما يدور فى خلدى.

لكن لا بأس. لا يستطيع الكتاب أن يكتبوا ما يريدون، وقد يهون ذلك على كتاب ممن لا يكتبون!

●●●

- هذه سفسطة يا مراد.

لماذا يا سميحة؟

- الكاتب كاتب. يكتب ليقرأ الناس ما يكتب.

- والذين يكتبون داخل عقولهم؟

- مجانين.

- بل كتاب بالقوة.

- كلام لا معنى له.

- بل له معناه.

- أى معنى؟. هذا تخريف.

- ألا تشعرين، وأنت تقرأين قصة أو مقالا أو بيتا من الشعر، أن هذا الكلام أو ذاك، قد كان على طرف لسانك، وأنك تكادين أن تنطقى به، قبل أن تقرأيه؟

- قد يحدث هذا بالفعل.

- فإن أحسست أنه كان على طرف عقلك، وأنك أوشكت أن تخرجيه إلى الواقع؟

- توارد خواطر.

- أبدا. إنما هى روح الكاتب تكمن فى الناس جميعا.

- كلهم كتاب إذاً.

- كما أنهم جميعا فنانون.

- كلام غير مقبول.

- لكنه معقول. كلهم كتاب أو فنانون بالقوة. شئ من إلهام الكاتب كامن فيهم، لكنه كامن فى منطقة الصمت أو الجمود، بينما هذا الإلهام عند الكاتب، فى منطقة الحركة والتمدد، والقدرة على أن تظهر وتبين.

- الكاتب إذاً لا يتميز إلا بقدرته على صياغة ما يدرى بذهنه.

- بل إن اكتشاف ما يدور بذهنه مشكلة. وأصعب منها حكمه على هذا الذى يدور، وهل يصلح مادة يكتبها كاتب، أم هو شئ لا يهم أحدا سواه.

- وكذلك الفنان.

ـ وكذلك كل شئ.

ـ هذا شئ غريب.

ـ كل شىء موجود، كامن فى ذاكرة الإنسان، منذ الأزل، ونحن لا نصنع شيئا جديدا، حين نكشف عن هذا الذى نقوله! نحن فقط، نرفع عنه الغطاء.

●●●

ـ وبعد معك... الا تسكت يا حسن؟

ـ وبعد معك... ماذا تريد؟

●●●

ـ اللعبة... إنه يريد أن توفر له لعبته المفضلة.

ـ ألم يوفرها لك أبوك، وأنت مثله؟

ـ أبى مات وتركنى، قبل أن أصير مثله.

ـ ولو عاش لوفرها لك.

ـ والآن يا سميحة.. ألا تتركانى لبعض ما أنا فيه؟

ـ أما كفاك ما قضيته معه؟

ـ فإن كفانى، فسأبحث عن سواه.

ـ لتختزن ما فى صفحات الكتب، فى رأسك؟

- لأستفيد مما فى هذه الصفحات.

- وماذا تكون ثمرة ذلك؟

- أزداد علما بالأشياء.

- وشعورا بالتفوق على الآخرين.

- الذين يعلمون لا يشعرون بالتفوق على أحد.

- لكنهم بالفعل يتفوقون.

- وكلما ازدادوا تفوقا، زادت حاجتهم إلى العلم.

- والآن ألا يكفيك ما تحصله.. وتلتفت لهذا العربيد!

●●●

وعدت أغلق دفتى الكتاب، لكن الشعور بالخيانة عاد يراودنى، فلم أستطع أن أغلق دفتى الكتاب، واستبقيت أصبعين من يدى اليسرى بينهما، لتطل من بين الثغرة الصغيرة وجوه صغيرة رقيقة لمخلوقات جميلة، تتراقص بين عينى، أو بضع زهرات يانعات تملأ الحياة حولى بهجة وأملا.

●●●

وتردد فى ذهنى، أصداء ما فى صفحات الكتاب.

"لقد كان ظهورى على خشبة المسرح، وأنا بعد فى سن الخامسة، نتيجة لحالة أمى التعسة.. كانت أمى قد اعتادت على أن تأخذنى معها إلى المسرح، بدلا من أن تتركنى وحدى فى حجرات البيت. وكانت تمثل فى مسرح حقير ورخيص، يطرقه الجنود، وكانوا على قدر من جفاف الطبع والغلظة.

"وبينما كنت واقفا فى كواليس المسرح فى إحدى الليالى، وأمى تغنى، تحشرج صوتها، وأصبح صفيرا، وبدأ النظارة يضحكون، ويغنون هازئين. لم أكن أدرى ماذا يدور، فقد كان كل شئ فجا. إنما ارتفعت أصوات الاستهزاء، حتى اضطرت أمى إلى الانسحاب من على المسرح. وكانت أمى على درجة كبيرة من الغضب، وبين الكواليس أخذت تصيح فى مدير المسرح، الذى اقترح أن أظهر أنا على المسرح، وكان قد سبق أن رآنى أمثل بعض الأدوار أمام أصدقاء أمى.

وانى لأذكر أنه سحبنى من يدى إلى المسرح، وبعد بضع كلمات فسر بها الموقف، تركنى وحدى على المسرح، وبدأت أغنى، بين أضواء المسرح، وعلى نغمات الأوركسترا التى كافحت مرارا لتضبط نفسها على نغماتى. وكانت الأغنية التى أطلقتها من الأغنيات المعروفة، وكانت تسمى جاك جونز، وكانت كلماتها تقول :

جاك جونز رجل طيب، ومعروف من كل الناس

وهو دائما فى السوق، ألا ترى...

إن من الصعب أن تجد له خطأ على الاطلاق

ولا حين يبدو كما اعتاد أن يكون

ولكن منذ حصل على البليون الذى آل إليه

تطور إلى الأسوأ

وآه لو رأيت الطريقة التى يعامل بها أصدقاءه القدامى.

إنها لا تملؤنى بشئ إلا الاشمئزاز.

إنه يقرأ التلجراف صباح يوم الأحد

وذات يوم كان سعيدا بجريدة ستار

منذ دخل جاك جونز دائرة الموسرين

لم يعد يعرف أين مكانه تماما!!

وعندما كنت فى منتصف الأغنية، أخذ دش من النقود ينهال على المسرح. عندئذ توقفت وأعلنت أنى أوثر أن ألتقط النقود أولا، ثم أغنى بعد ذلك. عندئذ ارتفعت الضحكات. ودخل مدير المسرح وفى يده منديل، ليساعدنى على جمع النقود، وظننت أنه سيعطيها لى. ولكنه أخذ

النقود وخرج، فصحت أطالبه بها، فزاد ضحك النظارة، ولم أتركه يمضى بها، فتبعته، ولم أعد إلى المسرح إلا بعد أن أيقنت أنه أعطى النقود لأمى. عندئذ عدت إلى المسرح لأغنى. وشعرت بألفة شديدة مع الناس، فأخذت أحدثهم وأناقشهم وأرقص لهم على المسرح، وأغنى مقلدا حتى أمى فى أغنية أيرلندية مشهورة لها. وأطربتنى الألفة مع الناس، فقلدت صوت أمى عندما تحشرج وخرج صفيرا ضعيفا لا يكاد يسمع. عندئذ طرب النظارة طربا شديدا، وانهالوا يصفقون، ويلقون مزيدا من قطع النقود على المسرح.

"وصعدت أمى إلى المسرح لتأخذنى، فكان ظهورها استفزازا للنظارة الذين قابلوها بالسخط والسخرية.

"وهكذا كان أول ظهور لى على المسرح، وآخر ظهور لأمى عليه.

"وعندما تكون الحكايات عن عثرات الانسان، فإنها لا تدل لا على الرحمة ولا على العدل. وهكذا كانت حكايات أمى. أنها لم تستعد صوتها أبدا. وكما يتحول الخريف إلى شتاء، فكذلك أحوالنا تطورت من سيئ إلى أسوأ، فبعض المدخرات التى إدخرتها أمى، سريعا ما تلاشت، وكذلك

مجوهراتها، وأيضا بعض مقتنيات كانت قد اشترتها، ومن ثلاث حجرات مريحة، انتقلنا إلى حجرتين، ثم إلى حجرة واحدة. ومع تناقص الحجرات، كانت متعلقاتنا تتناقص، بينما الجيرة التى انتقلنا اليها، كانت تسوء، مع كل انتقال.

ولجأت أمى إلى الدين، بأمل أن صوتها سيشفى. وكانت تذهب دائما لكنيسة المسيح فى طريق كوبرى وستمنستر. وفى أيام الآحاد كانت تصحبنى إلى الكنيسة لأسمع ترتيلات القس الحزينة، ولابد أنها كانت مؤثرة، فطالما رأيت أمى، وهى تمسح دمعة تدحرجت على خدها، عندما كانت تنصت إلينا.

ومنذ ذلك الحين، لم تعد لأمى علاقات بأصدقائها القدامى من الفنانين. لقد تبخرت هذه العلاقات، ولم تعد غير ذكرى. وعشنا فى ظروف صعبة، حتى لقد كان العام الواحد يبدو دهرا. وتعذر لأمى الحصول على عمل، خاصة ولم تكن تعرف شيئا إلا المسرح. لقد كانت ذات جسم صغير دقيق، شديدة الحساسية، تناضل ضد ظروف عسيرة، فى العصر الفيكتورى حيث كان الثراء والفقر كلاهما مسرفا. ولم يكن أمام السيدات الفقيرات، خيار. كان عليهن أن يقمن

بأعمال يدوية، أو يعملن عاملات فى دكاكين الحلوى، وفى أحيان كانت تستطيع هؤلاء النسوة الفقيرات، أن يقمن ببعض أعمال التمريض، ولكن مثل هذه الأعمال كانت محدودة. هكذا كانت الظروف التى أحاطت بنا. على أن أمى كانت ذات خبرة فى أعمال الخياطة، فقد كانت تقوم بإعداد ملابسها للمسرح بنفسها. عندئذ اتجهت إلى هذا النشاط بين أعضاء الكنيسة، لكن حصيلة عمل كهذا لم تكن تكفى ثلاثتنا. أمى وأخى وأنا.

"والدى هو الآخر ساءت حالته، نظرا لإفراطه فى الشراب، ولم يعد عمله على المسرح مستمرا أو منتظما، وعندما كان يعمل، لم يكن يحصل من عمله على أكثر من عشرة شلنات فى الأسبوع.

وباعت أمى كل ما تملك، ولم تحتفظ إلا بملابس المسرح، والشعر المستعار، على أمل، أن تشفى، وأن يعود لها صوتها فتعود إلى المسرح. وفى بعض الأحيان، كانت ترتدى بعض هذه الملابس، وكذلك كنا، أخى وأنا، نطلب منها أن ترتديها. وأذكر أنها ارتدت مرة ملابس قاض وباروكة شعره، وغنت بصوتها الضعيف أغنية كانت قد ألفت هى كلماتها، وكانت كلماتها تقول :

أنا سيدة قاضية

وأنا قاضية جيدة أيضا

وقضاياى مناسبة

ولكنها كذلك نادرة

وأنا أعنى أن أعلم المحامين

شيئا أو شيئين

وأردهم على وجه التحديد

ماذا تستطيع البنات أن يفعلن.

"ولم تكن أمى تكتفى بالغناء. كانت تؤدى الرقصات التى اعتادت أن تصاحب هذه الأغنيات. كانت تنسى حالتها الصحية وترقص وتغنى حتى تتقطع أنفاسها، وترتمى مجهدة. وساعتها كانت تخرج بعض الاعلانات التى كان المسرح يوزعها لترغيب الجمهور على ارتياده.

وكانت الاعلانات تقول:

مناسبة غير عادية

للموهبة الفائقة

"لجالى هارلى

مغنية خفيفة، ومؤدية وراقصة

●●●

صوت المنبه يعود مرة أخرى يرن فى أذنى.

والعربيد المجنون يدب على الأرض بقدميه، وأحاول أن أجمع بين الحسنيين، فلا أفلح كثيرا.

إما هذا العفريت، وإما الكتاب.

ولم يكن أمامى إلا أن أترك الكتاب مفتوحا لأعود إليه، مصورا لنفسى أنى بذلك أستأذن من شارلى شابلن لبضع دقائق حتى أعود إليه.

●●●

- نعم يا سيدى. ماذا تريد؟

- بالونة يا بابا.

- بالونة..مرة واحدة؟

- بالونة كبيرة جدا..

- ولونها؟

- حمراء.

- ولماذا حمراء؟

ـ أحسن. حمراء أحسن.

ـ وتريدها كبيرة؟

ـ جدا جداً يا بابا.

ـ تنفخها أنت؟

ـ لا.. أنتِ يا بابا.

ـ ولم لا تنفخها أنت؟

ـ لأنى أريدها كبيرة قلت لك.

ـ ومتى ستعرف كيف تنفخها؟

ـ عندما أكبر مثلك.

ـ وستظل تحب البالونات المنفوخة؟

ـ آ.. طبعا يا بابا.

ـ أم ستنفخها لابنك.

ـ لنفسى، ولابنى يا بابا.

ـ لنفسك!! حتى بعد أن تكبر؟

ـ كل الناس تحب البالونات يا بابا.

ـ ياه!! كيف؟

ـ وأنت أيضا تحب البالونات يا بابا.

ـ أنا.. من قال لك؟

ـ أنا عارف يا بابا.

ـ طيب هات البالونة.

ـ هذه هى..

●●●

وأخذ مراد ينفخ، والبالونة تكبر.

وينفخ، والبالونة تكبر.

وينفخ، والبالونة تكبر.

وحسن يضحك، ويصفق، ويدب على الأرض برجليه، فرحا بالبالونة هذه المرة، لا غضبا ولا احتجاجا.

والبالونة تكبر، وتكبر، حتى صارت كالكرة الأرضية ولم يعد أمام حسن أكبر منها.

مراد نفسه، كان يشعر بأن عليه أن ينفخ، ثم ينفخ أكثر.. ويستريح قليلا ثم ينفخ، ويسد منفذ الهواء، ليظل الهواء فى البالونة، ليعود فينفخ، حتى خيل إليه أنه نفخ الدنيا كلها، فى بالونة!

وبين هدير حسن، وهو يضحك، وتهليله وهو يرى البالونة قد كبرت حتى كادت تملأ الغرفة، أخذ مراد يتحسس جسم البالونة الأحمر، ليتأكد من أنه لم يترك مجالا لمزيد من هواء ينفخه فيها.

وما عاد مراد يذكر شيئا!

البالونة ألهته حتى عن نفسه!

البالونة ألهته كذلك عن كتابه!

وما عاد يذكر شيئا، فأخذ يضحك ملء شدقيه، وحسن يضحك معه.

ولما فرغ من نفخه، أمسك البالونة بأصابعه وأطبق على فوهتها تماما، ثم مد يده إلى خيط رفيع كان حسن يمسكه له، فربط عنقها ربطا محكما، وظل طرف الخيط طويلا، ليمسك به حسن إذا أراد، فلا تطير منه البالونة، فى الهواء الطلق الفسيح.

وضحك حسن من قلبه وضحك مراد، وأقبلت سميحة، فى هذا الجو المرح الصاخب، فلم يلتفت إليها، لولا أنها رفعت صوتها تصيح :

ـ مراد.. مراد.. صاحبك منتظر فى الصالون.

ولم ينتبه مراد، ولا سكت حسن.

وعاد صوت سميحة يرتفع :

- مراد.. يا مراد. صديقك مختار ينتظرك.

وانطلق مراد يجيب وهو يضحك!

- مختار؟ وهل هو غريب يا سميحة.دعيه يدخل يتفرج معنا ويلعب.. دعيه.

وأجابت سميحة!

- لكنه ليس وحده.. معه ناس آخرون.

وانتبه مراد. توقف عن اللعب والصياح وانتبه يسأل :

- ناس؟ أى ناس؟ تعرفينهم؟

- لا .. لم أرهم من قبل.

وأصلح مراد من شأنه ومضى إلى الصالون.

●●●

ماذا أتى بهؤلاء إليه؟

ماذا يريدون؟

إنه زاملهم فى المدرسة، فى مراحل عديدة من حياته الدراسية، لكنه لم يكن يطيقهم، كما أنهم لم يكونوا يعيرونه أى التفات.

كانوا من الصنف الشاذ من البشر، فيهم غلظة، وفيهم جفاف.

وهو لا يذكر أنه اهتم بهم يوما أو أنهم اهتموا به.

مات له عم عزيز فعزاه التلاميذ جميعا، إلا هؤلاء الأجلاف! ولما كان يمرض، كان مختار يلازمه كظله، وأكثر الطلبة كانوا يمرون عليه، ومنهم من كان يحمل معه بعض فاكهة الموسم مجاملة له، لكن هؤلاء ما كانوا يشعرون بهذه المشاعر، أو يحسون أن للزمالة حقوقا.

ماذا أتى بهؤلاء؟

لقد دخلوا المدرسة، ورحلوا عنها، دون أن يشعر لهم بوجود. كذلك لابد أنهم لم يشعروا به ولا بمختار، ولا بأمثالهما من التلاميذ!

وعندما كانوا يضطرون إلى حضور بعض المناسبات المدرسية كانوا يتطلعون إلى مراد ومختار وامثالهما من التلاميذ الأدباء، فى شئ غير قليل من الامتعاض.

كانوا يتصورون أن الأدب إهانة، وأن الذين يصابون به، لابد أن يكونوا من شواذ الناس!

وكانت المدرسة تردد عنهم أنهم أغنياء، وأنهم ثلاثة من أولاد الأعمام، أرسلوهم لمجرد قضاء الوقت، حتى لا يزعجوا أهليهم بهذا التجهم المخيف!

أحدهم: سليم، كان نحيف القوام، ممشوق العود، أبيض البشرة، أحمر الخدين، كأنه من أبناء الأتراك. ولابد أن أمه كانت من الأتراك.

والثانى: سماح، كان بدينا مليئا، مستدير الوجه غائر العينين، يطيل النظر إلى الناس فى كثير من الارتياب.

والثالث: قمر الزمان، كان كالصقر المعقوف ذا منقار. طويل عريض المنكبين، حاد النظرات، مقوس الأنف، يعمد إلى أن يسمع دون أن يتكلم.

هؤلاء الثلاثة كانوا أبناء عمومة.

ويقال أنه قد كان لهم أقارب بعدد النمل. كانوا هم أبناء البطن الأول، أما الصغار فكثيرون.

بعضهم كان يدعى خليل، والآخر عقيل، وشئ ثالث اسمه عدلى أو سيلمان أو ابراهيم. وآخرون يحملون أسماء الأتراك. مدحت أو جودت، أو عصمت أو أسماء أخرى

نسيهـا مـراد، من طول مـا مـر من سنين، أو لفـرط مـا كـان ثقلها على اللسان.

●●●

ماذا أتى بهؤلاء اليوم؟

ولماذا جـاء مـخـتـار مـعـهم، دون أن يخطره بشـئ عن هذه الزيارة؟

ومـا شـأنه هـو بناس أغنيـاء، يتـحـدثون عن الثـروات والأطيان مما لا يخطر بذهنه أبدا.

وأنت يا صديق عمرى يا مختار، لماذا جئت معهم؟

أنسيت ماذا كنا نقوله عنهم ونحن صغار.

●●●

- يقولون أنهم من أولاد الذوات.

- ماذا تعنى كلمة أولاد الذوات؟

- أغنياء يرفلون فى حلل السعادة والهناء.

والله لا أصدق شيئا لا عن ثراوتهم، ولا عن سعادتهم.

- لماذا؟ وماذا يشككك فيهم؟

ـ السعادة يا صديقى ليست فردية. والسعداء لا يحتكرون السعادة، ويحرمون منها الآخرين.

ـ صحيح. هذا صحيح.

ـ إذاً لو كانوا سعداء، لما استطاعوا أن ينعزلوا على هذه الصورة الغريبة.

ـ فإذا لم تكونوا سعداء.

ـ فهم إذاً تعساء مثلنا.

ـ أو باحثون عن السعادة، لعلهم واجدوها.

ـ أو خائفون على أنفسهم منها.

ـ يخافون السعادة!!

ـ الإنسان يخاف ما لا يعرف.

ـ وهل السعادة تحتاج إلى معرفة؟

ـ طبعا تحتاج إلى معرفة؛ وإلى ممارسة.. ككل شئ.

ـ وماذا تظن هؤلاء؟

ـ لا أدرى. قد يكونون أغنياء. وفقراء.

ـ يا أخى أنت تحير.

ـ أو أغنياء المال وفقراء الضمير.

- لماذا؟.. أغنياء الثروة، وفقراء القلوب.

- أو أغنياء الجيوب، فقراء الخطوب.

- أنت شاعر.

- شاعر بالفاقة؟ مضبوط.

- وبالمأساة يا صديقى.

- وبالغيرة من هؤلاء.

- لا لا لا .. هؤلاء لا يثيرون غيرة أحد.

- أقصد يثيرون الخوف.

- والاشمئزاز.

●●●

وفى مرة أخرى يا مختار همس فى أذننا ولد من الأولاد بكلام لم نصدقه أول الأمر، لكنا - مع هذا - اهتممنا به غاية الاهتمام.

- أولاد تجار مخدرات!!

- لا يمكن.. وكيف لا يقبض عليهم البوليس؟

- البوليس؟ وهل يقبض البوليس على كل المهربين؟

- إن البوليس لا يقبض على الأغنياء والكبار.

- ألأنهم يدفعون؟

- ولأنهم يعزون ويذلون.

- أسمعت حكاية السوق السوداء؟

- تعنى الاتجار فى مواد التموين؟

- والاتجار بأقوات الشعب.

- يا أخى. المهرب الذى يهرب الحشيش والأفيون والهروين، لا يتورع أن يتجر فى الأقوات؟

- لأن التجارة فى الأقوات شئ سيئ.

- فإن كانوا يمارسون الأسوأ!

- على رأيك.

- لكن هذا مستحيل. مستحيل.

- كلام الناس كثير.

●●●

وكاد مراد يصيح فيهم :

لماذا أنتم هنا. وماذا أتى بكم اليوم؟

لكنه عاد فتذكر أنه لا يجوز أن يكون هكذا استقبال الضيوف. وأيا كان الأمر، فقد كان هؤلاء زملاء دراسة ذات يوم.

ونظر إلى مختار، فوجده باسم الثغر، فاطمأن قليلا، وأقبل يصافح الضيوف الثلاثة فى ود وترحيب.

واستعاد روح التلميذ القديم ومرحه وخفة دمه، فأخذ يتساءل عن كل منهم بأسلوبه الساخر المعروف:

- أنت يا سليم.. ألا زلت فظا غليظ القلب؟

- يا راجل.. وهل هذا سؤال؟! ولماذا تسأله؟

- لأنفض من حولك.

وضحكوا جميعا من قلوبهم.

- وأنت يا سماح.. ألا تزال ترسم على وجهك قناعا أسود؟.

- يا شيخ.. أسود؟

- طبعا أسود.. يا أسود!!

وانطلقت ضحكات الزملاء القدامى.

- وأنت يا قمر..لا لست قمرا. أنت نجمة بالكاد.

- نجمة.. أى نجمة.

- نجمة مسرح!

وبينما كانوا يضحكون، كان قمر الزمان يشير إشارات احتجاج، وكان مراد يرد عليه :

- احمد ربنا. "حد يطول"؟!!

●●●

وبعد أن مرت لحظات الترحيب هذه، خيمت عليهم سحابة صمت ثقيلة، وكان كل منهم ينتظر مراد ينتظر أن يفتحوا هم موضوع الزيارة.

ليس عندى بنات، ولا حتى صبيان إلا حسن. وحسن لا يصلح للزواج مثلا.. هذا إذا كنتم أتيتم تخطبون.

ومختار كذلك كان ينتظر، فقد فاجأوه كما فاجأوا "مراد" وطلبوا منه أن يأتى معهم ليزوروا "مراد". فيم؟ لماذا؟ ما اهتم بأن يسأل، بل ما هم كذلك بأن يسأل.

وأولاد الأعمام الثلاثة كانوا ينتظرون أن يسألوا ليجيبوا.. فلما لم يسألهم أحد، لاذوا - على عادتهم - بالصمت.

وأخذ مراد يفرك كفيه..

وأشعل سيجارة، وجذب منها نفسا عميقا...

"وتتحنح" مختار.. ثم سعل، ثم ابتلع ريقه!

ووصلت إليهم حيث كانوا جلبة حسن، وهو يضحك ملء شدقيه، من البالونة الحمراء، وهى تطير منه فى جو الغرفة التى اعتاد مراد أن يقرأ فيها ويكتب، ويلعب، ويجلس مع زوجته، ويأكل، ويكاد ـ لولا ضيق مساحتها ـ أن يحولها كذلك إلى ملعب لأية لعبة من الألعاب، ليتسلى إذا تعب!!

ونظر مراد إلى الباب، كأنما يعتذر لهم عن الجلبة.

وكأنما كانت النظرات دعوة للحديث.

تكلم سليم وهو يتلعثم..

كانت كلماته تخرج من فمه كسيحة!

وحبات عرق سالت على جبينه، من شدة الانفعال!

قال :

أنا قادم إليك يا أخى مراد، لتعاوننى على ما أنا فيه، أنت وصديقك مختار. طبعا نحن زملاء قدامى، ونعلم مدى ما بينكما من صداقة وارتباط. أنتما الإثنان اللذان ستنقذاننا مما نحن فيه.

ولم يفهم مراد شيئا، لا هو ولا مختار.

ظلا ينظران اليه فى تشجيع، ليمضى فى الكلام، وهو يتلعثم، ويضطرب، وتتوه منه الكلمات، ويحمر خداه، ويغسل العرق صفحة وجهه.

واستأنف سليم الحديث.

وارتفع صوت حسن، ووصلت جلبة لعبه إليهم فى الصالون.

قال سليم يسأل!

ـ ما شاء الله.. عندك أسرة كبيرة يا مراد؟

قال مراد :

ـ ولد واحد عربيد متمرد كأبيه.

وضحك الجميع فى مرح، والتفت سليم إلى مختار قائلا

ـ أما أنت، فأنت كما أنت.. أعزب.

وأسرع مختار يصحح!

مستقل. أنا مستقل لا أعزب. إن كلمة أعزب هذه ثقيلة جدا. أنا مستقل وحر، ولن أسمع لأحد، بأن يقتحم على حياتى، ليشاركنى فيها.

وعم الضحك، وتمايل الضيوف كل على الآخر، لحظة ثم عاد الحديث يتصل.

وفجأة دوى صوت انفجار هائل، فانخلعت قلوب الضيوف الثلاثة، وهم يتساءلون : ماذا .. ما هذا الانفجار؟

قال مراد وهو يطمئنهم : بسيطة لا تخافوا.

وظل سليم يتساءل : خير. لعله خير. ماذا حدث؟

قال مراد : لعبة. إنها لعبة.

وصاح قمر الزمان : لعبة.. ولها هذا الدوى!!

قال مراد : بالونة كبيرة "فرقعت"! قلت لعبة.

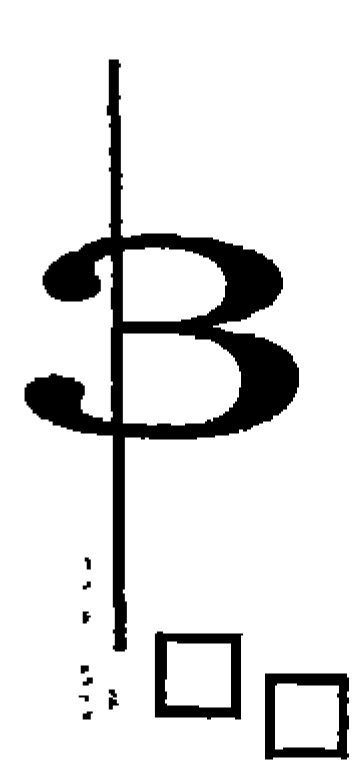
قالوا : لعبة من؟

قال مراد :

- لعبة ولد : اسمه حسن.

□□□





أمسك مراد قلمه، وأخذ يكتب دون توقف.

أريد أن أكتب. لكن أى شئ اكتب؟ شئ فى صدرى مخنوق يريد أن ينفجر! هذا كابوس أعمى، أحاول أن أغريه بالخروج من صدرى، فيغوص إلى أعمق أعماقى : إنه يرى، ألا يرى!!

أهو هذا الشئ الذى يقولون عنه غصة؟

لكن الغصة فى الحلق، وهذا الشئ فى صدرى، يمزق صدرى وحلقى جميعا!

أنا مخنوق، أريد أن أقطع هذا الحبل المشدود حولى!

ولست أملك الا أنت يا قلمى، فساعدنى! تكلم بلسانى. تحدث وحدثنى لتخفف عنى.

لكن ماذا أكتب؟

لا عقل اليوم لمقال!. ولا لنقد، ولا لفكر مسطور على ورق! وسواء عشنا فى مجتمع لصوص أو بين أفاقين، فهذا

شئ لا يثيرك الآن يا قلمى! فليزيف الناس الحياة! فليزوروا كل ما فى الحياة، ليختلط الحابل بالنابل، وتتوه الحقيقة بين الأكاذيب! لا عقل اليوم، ليقارن، وليحلل، وليجد الأسباب التى تنبنى عليها النتائج! لا عقل.. لا منطق.. لا شئ على الاطلاق! أنا نفسى متناقض، مخنوق.. مشدود إلى شئ ثقيل، ومقيد بالسلاسل! والذين يعانون من محنة تكون قد تحكمت فيهم، فإنهم لا يناقشون محنة الآخرين!! الذين فقدوا الحرية، لا يطالبون بها للآخرين!! المحتاجون إلى العطف والشفقة، لا يوفرون العطف أو الشفقة للآخرين!!

لتكن قصيدة شعر!

لكن شيطان الشعر لئيم، وعنيد!

.. أين أنت يا شيطانى؟

أمدد إليك جنانى

تزيل دمع دموع حزين

فى لجة بلا شيطان

... ثم يتوقف القلم، عما يتصور أن يكون شعراً!! إذاً، لا شئ إلا القصة!!

القصة! وأية قصة؟ وبناء القصة، وأحداث القصة، والصراع والأماكن، والشخصيات؟ هل يستطيع فى حالته هذه أن يحبك أطراف قصة، لتخرج القصة عملاً فنيا متكامل الشخصية، مسبوك البناء، لا يهتز ولا يهوى إلى القاع؟

إنه إن كتب قصة فلن تكون هناك إلا قصة واحدة، أراد أو لم يرد.. قصة أولاد الأعمام الأجلاف، الذين وجدوا أنفسهم فجأة، يملكون كل شئ، يقدرون على كل شئ، يرغبون فى كل شئ، فأخذوا كل شئ.

وهز مراد رأسه أسفا، وقال لنفسه :

لتكن يا حكيم آخر الزمان مرسلاِ زفراتك كلمات. أطلقها رؤية شاعر، أو حكمة فيلسوف، أو كشف نبى.

- فماذا أقول؟

- قل ما تقول.. فأنت تريد أن تسقط هذا السم المحبوس، على سطح الكون.. كلمة كلمة.

- والكلمة قد تكون أحد من سكين.

- وأبعد من عيار من نار.

ـ وأحمى من الجمر.

ـ وأتعس من النكبة.

... نعم الكلمة تقتل، والكلمة تبعث شهداء الكلمة، ليردوا الثأر إلى شرف الكلمة.

لأحرار الكلمة

ولشرفاء الهدف المرسوم

ولمن قالوا : لا، للمتجبر!!

إذاً لتكن الحكم هى ما ترسله يا مراد، تنفس بها عما فى نفسك.

●●●

طاوعنى يا قلمى، وأرسل حكمة بعد حكمة، لا يهم أن ترتبط الواحدة منها بالأخرى. المهم أن تغسل بها همك.

●●●

* عندما يمرض الناس، يلجأون إلى الله، وعندما تشتد أعوادهم، يذهبون إلى الشيطان!

* بعض الناس ـ إذا انتصروا ـ سيجدوا لله، وبعضهم ـ اذا انتصروا طالبوا الآخرين بأن يسجدوا لهم!

* ما أقبح المغلوب، عندما يصور للناس.. أنه غالب!

* الكذاب يرتكب حماقتين : يستغفل نفسه ويستغفل الناس!

* لى صديق يتصور أن كرامته، فى ذله!

* شجاع جدا، ذلك الذى يقبض راتبه آخر الشهر، وهو يعرف أنه.. صدقة!!

* الحب قوة طاغية، تحتاط لأيام الضعف.. بالزواج!

* الأولاد ليسوا مجبنة دائما، لكنهم.. مصيدة!

* لابد للصياد من عشرة الكلب. لكن بعض الكلاب تعض أصحابها، عندما تصاب بسعار!!

* يا عجبى! ذات يوم، كان «أمس» الذى نعيبه، حاضراً يعيب «أمسًا سبقه!

* ويا عجبى! عندما يصبح الحاضر أمساً، يتصبب عرقاً من هجوم لا يملك دفعه!

* يا عجبى! عندما ينسى الماضى والحاضر والمستقبل جميعا، اننا قد نستطيع أن ندخل على الناس بعض شئ أو ندخل كل شئ على بعض الناس أو ندخل كل شئ على كل

الناس بعض الوقت، أما أن ندخل كل شئ، على كل الناس، طول الوقت، فمستحيل! ويقينا هذه هى عظمة التاريخ، وصمام الأمن فيه.

* المال المسروق، بلا طعم ولا رائحة. أما الفكر المسروق، فرائحته تزكم الأنوف!

* عندما ضاع منه كل شئ حتى الكرامة، تصور أنه قادر على أن يسترد ذلك بالدعوات، فى بيت الله الحرام!!

* قد يمكن استبدال العمل بعمل آخر! بل وقد يمكن استبدال الصديق بصديق آخر. أما ما لا يقبل الاستبدال، فهو الشرف والكبرياء!!

* الفكرة كجواز السفر، من السهل أن تكشف ما فى كل منهما من تزوير!!

* جهود الآخرين، كأبنائهم، تحمل ملامحهم لتفضح الأدعياء!!

* بعض الكتب ثابتة النسب، وبعضها - بالرغم من وجود اسماء عليها - ليس لها شهادة ميلاد!!

●●●

وارتفع صوت حسن، لينبه إلى وجود العربيد الصغير.

لكن العربيد الصغير لم يدب على الأرض بقدميه هذه المرة، ولم يملأ المكان صخبا على عادته، ولا هو استعان بأمه عليه.

وإنما نظر الصغير إليه، وكأنما فهم عنه.

حتى أنت يا حسن، تفهم ما أعانيه!

وكأنما حسن قد سمع، وقد فهم، وقد أجاب.

إن للحظات العبادة قدسية، ولها كذلك تأثيرا على كل القلوب. وصغار اليوم، وكبار الغد. وعقل الرجل، قد كان من قبل مودعا فى دماغ صبى، ولابد أنه قد مر بمراحل تمهيد طويلة ليستطيع أن يستوعب مثل هذه المواقف الحزينة.

●●●

- عجبا! لا يتكلم، ولا يعربد!

- وأعجب أنه يشرد فى شئ لا يعرفه.

- وأشد العجب ،أنه يطبق ما بين جفنيه، كأنما هو يواسى أباه فيما هو فيه.

- وأبعد ما كان يتصوره أن حسن.. الصغير حسن.. العربيد حسن.. المجنون بالبالونات حسن، قد أتى له بكتاب

شارلى العظيم، الذى قدم فيه قصة حياته، وانحنى هو على ألعاب أخرى، لا تحتاج إلى نفخ!!

●●●

وفتح مراد صفحات الكتاب، ليلتقط بعض أطراف القصة الحزينة التى يعرضها شارلى شابلن، والتى تستدر من عينيه الدموع، فتخفف عنه.

وعجب مراد، كيف لم يتنبه إلى هذا الكتاب من قبل.

كيف لم يدفن همه بين صفحاته؟

وكيف لم يجد فى دموع الممثل الرائع، بعض ما يخفف عنه؟ لكن كثيرا ما يجد الإنسان فى البحث عن شئ، وهو بين يديه، كالحشاش الذى وضع ساقا على ساق، ثم أخذ يبحث عن ساقه الأخرى، ليستطيع أن يقف على ساقيه، ويعود عليهما إلى داره! لقد بحث، دون جدوى! وبحث معه زملاؤه دون جدوى واستعان بصاحب القهوة دون جدوى! وفكر فى النداء على العسكرى، فخاف. وأخيرا نادى العسكرى يستغيث به، فأغاثه وأمسك بساقه، وأنزلها على الأرض، فثار إعجاب الحشاش أوأصحابه بالعسكرى، وأصروا على أن يجلس معهم، حتى لا تضيع منه الساق مرة أخرى!!

على كل حال.. هذه هى الساق، والذى دلك عليها، ليس هو عسكرى الحراسة، لكنه حسن.. العربيد حسن. الشيطان حسن.

وهذا هو شارلى بين يديك.. فماذا يقول؟

●●●

إنى أذكر ذلك المساء، فى حجرتنا الوحيدة فى البدروم. فى شارع أوكلى. كنت راقدا فى الفراش، فى حالة نقاهة من حمى، وكان أخى سيدنى قد خرج ليحضر دروسا فى مدرسة مسائية. وكنا وحيدين أمى وأنا.

وجلست أمى تقرأ وظهرها للنافذة. كانت تقرأ وتمثل وتشرح على طريقتها الخاصة، وكان ما تقرأه عن المسيح، وحبه وعطفه على الفقراء والأطفال الصغار ربما كانت عواطفها نابعة من مرضى، لكنها أعطت أجمل وأعظم تعبير عن المسيح، ومما لم أشهد له نظيرا من قبل. تحدثت عن فهمه العميق للمرأة التى أخطأت، وتجمع حولها الناس يحاولون أن يرجموها بالحجارة، وروت كلماته لهم : من كان منكم بلا خطيئة، فليرجمها بحجر.

"أخذت أمى تقرأ فى ظلمة المساء. لم تتوقف إلا لتنير الحجرة، ثم عادت تروى كيف كان المسيح يملأ المرضى بالإيمان فيشفون بمجرد أن يلمسوا سترته.

" وتحدثت عن الغيرة والحقد فى قلوب كبار الرهبان، وكيف أدت بالمسيح إلى المحاكمة، ثم كيف نجحوا فى القبض على المسيح، لكنه واجه المحاكمة فى هدوء واحترام حتى لقد قرر قضاته براءته. وكانت الدموع تترقرق فى عينيها وهى تروى قصة عذاب المسيح، حتى انتهت إلى كلماته الأخيرة لحوارييه، فشاركت أمى الدموع من أجله.

" وقد ختمت أمى قصة المسيح بقولها: ألا ترى أنه كان مثلنا جميعا، عندما قاسى من الشك والريبة؟

" وقد تأثرت بما قالته أمي إلى حد أنى تمنيت أن أموت فى تلك الليلة لأقابل المسيح، لكن أمى لم تتحمس لأمنيتى وقالت أن المسيح يريدك أن تعيش وأن تملأ الدور الذى لك فى الحياة. وفى تلك الحجرة المظلمة فى بدروم أحد بيوت شارع أوكلى، قدمت لى أمى ذاك المساء أطيب ضوء عرفته الدنيا من قبل، وهو الضوء الذى أضاء الطريق للأدب والمسرح فى أغنى ما أخرجاه للناس : الحب والرحمة والانسانية.

"وعندما غرقنا فى الفقر أكثر من ذى قبل، كنت أتساءل، بجهل طفل، لماذا لا تعود أمى للمسرح؟ وكانت تبتسم وتقول أن حياة المسرح كلها مزيفة وصناعية! وفى مثل هذه الحياة، فإن من السهل على الناس أن ينسوا الله! ومع ذلك، فما إن كنا نتطرق إلى الحديث عن حياة المسرح، حتى كانت تنسى نفسها، وتتعاطف مع هذه الحياة مرة أخرى.

"وكان الشتاء يطرق الأبواب، ولم يكن لدى سيدنى ملابس، لهذا صنعت له أمى جاكتة من بالطو قديم كان لها، وكان ذا أكمام حمراء وسوداء، كما كانت له كسر عند الكتفين. وقد حاولت أمى أقصى ما تستطيع لتتخلص من هذه العيوب فى جاكتة ولد، ولكنها لم تستطع أن تتخلص منها.

"ماذا سيقول الأولاد عن هذا فى المدرسة؟ كان هذا سؤال أخى، لكن أمى أجابت: ومن ذا الذى يهتم بما يقولون؟ ومع هذا فإن الرداء يبدو ممتازا.

"وعلى كل حال، فقد كان على سيدنى أن يرتدى البدلة لكن كان عليه فى نفس الوقت أن يدخل فى معارك شديدة فى المدرسة بشأنها! لقد أخذ الأولاد يسخرون منه فى

المدرسة، كما تعرضت لنفس السخرية من ملبسى أنا أيضا.

وبدأت أمى تعانى نزلات قاسية من الصداع، أرغمتها على التوقف عن الخياطة، بل كان عليها أن ترقد فى سريرها فى حجرة مظلمة، وعلى عينيها كمادات من تفل الشاى. وإذا كان بيكاسو قد مر بعهد أزرق، فها نحن أولا نمر بعهد أسود، حيث عشنا بالفعل على الصدقة!

وأخذ سيدنى يبيع الصحف بين ساعات الدراسة. لكن مكسبه لم يكن إلا قطرة فى الإناء! لكن لكل محنة نهاية، تأتى بعد أن تبلغ الذروة، والنهاية التى صادفتنا كانت نهاية سعيدة.

ذلك أننا ذات يوم، وأمى لا تزال فى دور النقاهة، وعلى عينيها كانت كمادات الشاى، اقتحم سيدنى الحجرة المظلمة، ورمى بصحفه على أرض الحجرة وقال وهو يلهث : لقد وجدت محفظة!

"وناول سيدنى المحفظة لأمى، فما إن فتحتها حتى لمحت نقودا فضية وبرونزية تلمع، فأغلقتها ثانية، واستلقت على السرير من الانفعال!

"كان سيدنى يصعد الأتوبيسات ليبيع الصحف، وفى الطابق العلوى لواحد منها، رأى محفظة على مقعد خال.

وفى الحال ألقى صحيفة على المحفظة، كأنما قد وقعت منه، والتقط المحفظة بسرعة شديدة ونزل من الأتوبيس.

وتوقف ثانية وراء أحد الأعمدة، فلما فتح المحفظة ورأى النقود الفضية والبرونزية تلمع، شعر بقلبه يكاد يقفز منه، فجرى إلى المنزل!

ولما شفيت أمى، أفرغت ما فى المحفظة، لكنها كانت لا تزال ثقيلة لقد كان فيها جيب خفى، فلما فتحته أمى، وجدت فيه سبع قطع ذهبية. وبلغت فرحتنا حد الجنون، ولم يكن فى المحفظة عنوان، وكان ذلك فضلا من الله. وإلا لكانت الروح الدينية فى أمى، قد غيرت الموقف. عندئذ قالت أمى: هذه من الله، أرسلها لنا، كنوع من الرحمة بنا والعطف علينا.

وعلى الأثر شفيت أمى! خلال أسبوع شفيت!

واشترت أمى لنا ملابس لائقة، وقررت أن نقضى إجازة على شاطئ البحر، ورأيت البحر لأول مرة فى حياتى!.

●●●

وشرد مراد.. وعلى شفتيه ابتسامة.

وعاد يقطب جبينه، يعتذر عن تلك الابتسامة التي داعبت شفتيه!

قال مراد لنفسه :

كل هذا واجهته أيها العملاق الضحوك الساخر؟

كل هذا عانيته؟ وتسخر؟ وتضحك؟ وتمثل فى براعة أدوارك الخالدة لتحيل حياة الناس إلى بسمات؟

كيف استطعت هذا؟

أم أن الابتسامة أصلها دمعة؟ كانت في الأصل دمعة تبخرت، حتى صارت دخانا، وتكاثف الدخان فى الشفاه بسمات؟

هل لابد للساخرين، من محن تمهد الطريق للسخرية؟

إن عمق السخرية لابد أنه قد كان فى الأصل جرحا!

وهز مراد رأسه، ليفيق!

ومع هزة رأسه، وجد سميحة أمامه وفى يدها حسن.

●●●

- وبعد يا سلطان التاريخ أنت. هل فرغت؟

- ما أظنني سأفرغ أبدا.

- مم.. جولة جديدة فى أعماق النفس؟

- بل فى أعماق أخرى متناقضة.

- ما هى يا زوجى الفيلسوف؟

- هل تستطيعين أن تضحكى وأنت تدمعين؟

- إية؟ جننت؟ هل جننت؟

- أو تدمعين وعلى شفتيك ابتسامة؟

- ماذا يا مراد؟

- أنا شارد فى فلسفة الدمعة والضد

- وهل لهما فلسفة واحدة.

- بل هما من منبع واحد.

- يا رجل.. عيب! من قال هذا؟

- شارلى شابلن.

- اسمع.. عليك أن تتابع حلقات صديقك شارلى شابلن فى مكتبك.

- هل ضقت به يا سميحة؟

- بل بك، كلما خلوت به.

- كيف هذا؟

- إنه يؤثر عليك تأثيرا بالغا.

- حياته التعسة كانت منبع سخريته وضحكاته.

- لهذا فاحتفظ به فى مكتبك.

- وأحرم عليه اقتحام بيتى؟ أهذا عدل؟

- هل يضايقك كلامى؟

- على كل حال.. ماذا وراءك؟

- هذا العفريت.

- وماذا يريد؟

- لعبته المفضلة.

- البالونة؟ ولم لا تنفخينها أنت له؟

- لا يثق فى. أنت الذى تنفخها.

- لماذا؟ هل أضع فيها هواءً معطرا؟

- بل تضع فيها نفسك المكدود.

- ونفسى قد لا يجدى، من تعبه!

- بل هو الوحيد الذى يجدى.

●●●

كانا يجلسان متجاورين، فى إحدى القاعات العامة.

وفى همس، أخذا يضحكان.

مراد ومختار، فى أحد الصفوف الأمامية، وحولهما أعداد أخرى من الناس، من كل الطبقات والمهن والأعمال، وأعداد أخرى تدخل لتحتل فى صفوف القاعة.

وزاغت نظرات الصديقين، بين أعداد الناس، الذين أقبلوا.

وتاهت منهما النظرات، عندما بدأت تفوح روائح عطرة بديعة، تتخلل الصفوف فى رقة لتصل إلى الأنوف تحمل مع العطر نوعا من المخدر!

والعطر وحده حلو، لكنه أحلى عندما يهب من وجه جميل! فإذا كان الوجه الجميل، فى إطار من الألوان والخطوط والشعر البديع المرسل فى أناقة فهو إذاً نوع من البنج، لا يزول إلا بعد أن تتم العملية، ويستأصل جراح القلوب الداء!

ومرت الثوانى والدقائق، وكانت طويلة، من غناها.

وبين زيغ العيون والتيه المسيطر على الوجدان، شد كل منهما نفسا طويلا.. ربما ليستعيد الشعور أنه حى!

- ما هذا؟ من أين له هذا العدد من الحسان؟

هكذا قال مختار.

- أتغار أيها الكاتب المجنون؟. يا مستقل! أتغار؟

واتصل الحوار بين الصديقين، هامسا كأنه النجوى.

- سليم.. سليم، يحضر هذا العدد ليسمعه؟

- سليم بك يا جاهل!..

- أنا جاهل؟ أم أن الناس هم المخدوعون؟

- مخدوعون؟ ولا تخجل؟!

- من فضلك... هذا يكفى.

- تشاركون فى تزوير التاريخ، ثم تلومون الناس!

- التاريخ لا يزور.. أبدا..

- التزوير الموقوت تزوير حتى ينكشف.

- طالما أنه سينكشف، فلا ضير.

- والضحايا الذين يقعون تحت تأثير التزوير.

- ستنكشف لهم الحقيقة ذات يوم.

- ليقعوا تحت تأثير أسوا.

- أسوأ؟! أسوأ مم؟!

- من التزوير.

- ما هو هذا الشئ الذى هو أسوأ؟

- الشك فى كل شئ.

- ولماذا الشك؟

- عندما يتبين الناس الحقيقة، وتزول عنهم أقنعة الزيف ويدركون أن ما عاشوا يؤمنون أنه صحيح قد انكشف. فإنهم يفقدون الثقة فى كل شئ. يقتلهم الشك، ويحطمهم ويمزق نفوسهم.

- وأصبح أنا الملوم.

- وأنت وأنا وكل من شارك فى تزوير التاريخ.

- لكنك تنسى حقيقة أخرى هامة وخطيرة.

- ما هى؟ أية حقيقة؟

- الهدف مما تسميه تزويرا.

- أى هدف يا صديقى؟

- الهدف الجليل الذى نسعى إليه؟

- وتصفه بالجلال، وهو نابع من العفن؟

- فأين حقق الخير للناس، مع هذا؟

ـ الخير لا يأتى من شر أبدا.

ـ لكن الدواء أصله علقم وسم.

ـ وهو فى صيغته الجديدة، قد صار دواء.

ـ وقبل أن يصبح دواء كان سما.

ـ هذا تزوير جديد، يلجأ إليه الأذكياء من أمثالك.

ـ بل هى الحقيقة أيها الصديق.

وعندما دخل سليم القاعة، ودوت جنباتها بالتصفيق، وأخذ ينحنى فى أدب، ويتلفت ذات يمين وذات يسار، وهو يبتسم.

وعندما جلس بعد فترة، ومصباح أخضر، يلقى نورا أبيض على مجموعة من الأوراق أمامه، ويلقى ظله الأخضر على وجهه الحليق. وكوب من ماء مثلج يلمع تحت ضوء المصباح.

عندما حدث هذا كله فى ثانية، اختلط تصفيق الناس بصوت العربيد حسن.

ولم يدر مراد لماذا..

لماذا يسمع التصفيق ونداءات حسن تختلط فى سمعه :

- بالونة يا بابا.. بالونة يا بابا.

- بالونة لونها أحمر.

- بالونة كبيرة.. كبيرة جدا.

- بالونة منفوخة.. منفوخة خالص يا بابا.

وظل صوت حسن يختلط بتصفيق الناس، فى مقاطع كثيرة من حديث سليم، وكذلك عندما انتهى من كلامه.

وتجمع الناس حول سليم، وأحاطوا به يشيدون بما قال.

وكان مراد ومختار بين الناس الذين تجمعوا حول المتحدث، بعد انتهاء الحديث.

لكنهما كانا واقفين فى أطراف الحلقة، كاللون الباهت المتردد فى اللوحة. هو جزء منها، لكنه ليس محسوبا من الألوان المميزة لها!

وسمعا كلاما كثيرا، وعجبا مما أخذا يسمعان.

●●●

حتى أنت يا رجل الصناعة، والمال ، والنفوذ.

حتى أنت تنافق!! وتدعى أن هذا أول تحليل تسمعه فى موضوع هام وخطير!!

وأنت يا رجل العلم والحجا؟!

أنت أيضا تنافق؟!

وأنت كذلك يا مولانا؟

أنت إمام، وأنت حجة يستفتيك الناس فى أمور دينهم ودنياهم!! أنت يا جليلا، يا مهيبا، يا مسموع الكلمة.. أنت تنضم إلى مواكب المنافقين؟!

وأنت يا فنان.يا رقيق المشاعر، يا حلو الشمائل، يا عبق الرائحة. يا مبدع، يا منشئ، يا حارس عواطف الناس.

تجرى فى الركاب مع الكذابين؟!

وأنت يا سيدتى، يا حلوة يا جميلة... يا ربة الأسرة، والمثل لعدد من الأبناء والبنات. أنت أيضا، لا تحترمين نفسك، تحافظين على توازنك فتهبطى مع الهابطين إلى القاع؟!

كلكم منافقون، وكذبون، وأدعياء!!

وسليم بينهم سعيد.

وسماح ينظر إلى الجمع فى ارتياح.

وقمر الزمان يتمالى كالطاووس.

وأنا وأنت يا مختار، لا نستطيع أن نهرب من الموقف، ولا نستطيع كذلك أن ننضم إلى مواكب النفاق هذه.

رجل في الجنة، ورجل في النار، يا مختار.

هذا قضاء يا مختار!

●●●

ووقف سليم منفوخا.. منفوخا جدا.

تعال يا حسن!، يا عريبد يا حسن!، ألست مولعا بالأشياء المنفوخة.. المنفوخة جدا؟ ألا تضحك ملء شدقيك، وأنت تتحسس أجسامها المشدودة، الناعمة الملساء؟!

وأخذ سليم يروي تفصيلات حول الحديث الذي تلاه منذ لحظات!

التفصيلات الحقيقية كثيرة جدا، وأنا كنت مشفقا على نفسي وعليكم منها.

وكنت كذلك حائرا. هل أقدم كل شيء، لأكون أمينا للعلم ولكم؟ أم أقدم بعض النماذج، وأترك الباقي لكم أو لفرصة أخرى، قد تكون قريبة بإذن الله؟

يا خي!!

ودرات رأس مراد، وهو يسمع، وبين حين وحين ينظر إلى مختار، الذى استند إليه، حتى لا يهوى إلى الأرض من الدوار الذى أصابه هو الآخر.

لكن سليم مضى.

والعالم الكبير الذى يسمع إليه يقول له :

وهل نستطيع أن نفسر هذه التفسيرات؟ هل نستطيع أن نصل إلى هذه الاستنتاجات؟ البركة فيك يا سليم بك. أنت الذى تتابع هذا الجهد العلمى الناضج، وتقدم لنا مزيدا من هذه الدراسات.

ويبتسم سليم، فى تؤدة العالم، وهو يتابع الحديث :

لا أدرى.. هل نعالج الموضوع فى سلسلة أحاديث ومحاضرات؟ هل ندعو إلى ندوة يدور فيها حوار مفيد ومثمر؟ هل نطبع كتابا لهذه الدراسات يمكن الرجوع إليه، الحقيقة أنا بين هذه الاحتمالات حائر.

وترتفع أصوات رجل الاعمال، ورجل الدين، ورجل الأدب، ورجل الأمن، ورجل الفن، وسيدة المجتمع، والمعلمة الشابة، والباحثة، ومديرى الحسابات والأفراد والتنظيم.

بل لابد من سلسلة من المحاضرات.

الندوات؟ أية ندوات؟ وهل لدينا هذا المستوى لنفتح الباب إلى ندوة يشترك فيها آخرون، هل عندنا آخرون؟! إننا معتمدون بعد الله عليك يا سليم بك. تقول المحاضرات، لنستمتع بها جميعا، ثم تطبعها بعد ذلك فى كتاب. سيقبل عليه طلاب العلم فى شغف، وسيكون مصدرا هاما من مصادر التعريف بهذا الموضوع الهام.

ويصيح رجل العلم : وتكون لى نسخة مهداة.

ويصيح رجل الدين : وأنا كذلك نسختى لابد أن تكون ممهورة بالتوقيع الكريم.

ويصيح رجل الاعمال : ولا تنس نسختى يا سليم بك.

ويصيح رجل الفن، ويصيح رجل الامن، ويصيح الأديب، وتصيح سيدة المجتمع، ويصيح الصحفى الكبير، ويصيح كل شئ فى المكان.

الجدران تصيح، الكراسى تصيح، لمبات النور تصيح : ونسختى..

ولابد من التوقيع على نسختى.

هدية قيمة ستكون.

سأعتز بها طوال الحياة.

سأعتبرها مصدر فخر دائم،

وسأزهو بها على أقرانى وأورثها أولادى،

ومراد صامت، رأسه تدور!

ومختار صامت. مخة يغلى!

وصوت محبوس فى حلق كل منهما يود لو يستطيع أن ينطلق فى حرية، ويغير أن يتعرض لمكروه.

لكن المكروه محقق، لو انطلق هذا الصوت المحبوس.

واكتفى مراد، بأن أدار لسانه فى حلقه، يبتلع كلمات، كانت قد قفزت إلى طرف لسانه.

وكانت الكلمات تقول :

ـ منافقون! كذابون! مزيفون!

كلكم منافقون! وبلا استثناء كلكم مدعون!!

●●●

قال مختار، وهما يسيران وحدهما فى طريق تحفه أشجار البلوط من كل جانب، فى ظلال كثيف يلف الكائنات بنوع من السواد، كأن ذلك حداد :

- ألا يستحى المنافق من نفسه؟

- بلا وألا يستحى من زملائه؟

- الغريب أن كلا منهم يعرف أن الآخرين ينافقون.

- وأكثر من هذا يعرف أن هؤلاء الآخرين يعرفون أنه هو أيضا ينافق.

- ولا هو يستحى، ولا هم يستحون.

- تعارفوا على هذا يا صديقى، فلم يعودوا يشعرون بشئ.

- وسليم. الا يعرف أنهم ينافقون..

- بالقطع يعرف.

- كما يعرف حقيقة نفسه.

- أم تراه نسى، إنه يتلو كلاما مسطورا.. لا يفهمه.

- وعنده من الشجاعة ما يجعله يتلوه كأنه صانعه.

- ويدافع عما فيه من نظريات.

- وهل يحتاج لدفاع؟ المنافقون يدافعون له.

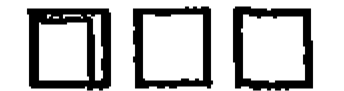
- ضد من يا أخى، والكل منافقون كذابون!

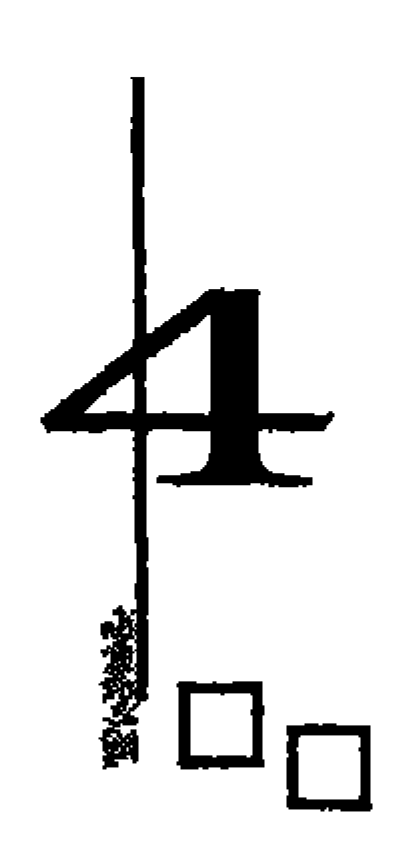
- المهم أنه يصور لنفسه وللناس أنه صاحب هذا الكلام.

- والويل لمن يذيع الحقيقة.

- ومن الذى يصدق هذه الحقيقة؟

- التاريخ.





مراد لا ينسى تلك الليلة أبدا.

كانا لا يزالان طالبين فى الجامعة : مختار وهو.

وكانا على عادتهما، شديدى الاتصال، كل منهما بالآخر. يستذكران معا، ويخرجان معا، ويذهبان إلى الملاهى معا.

ويكادان أن يعيشا معا، لولا أن مراد كان يعيش عند قريب من أقربائه، ولم تكن ظروفه تساعده على الحياة المستقلة، أو المشتركة مع صديقه مختار.

على أن هذه الظروف لم تمنعه من الاتصال بصديقه، فى الكلية التى التحقا بها معا، وخارج الكلية حيث يعيش مختار وحده فى حجرة صغيرة متواضعة، فى طرف حديقة بيت عتيق من بيوت الجيزة.

وكان مختار ومراد معا يريان فى هذه الحجرة جمالا فريدا. فهى مستقلة فى الحديقة، ولها حمام صغير، لكنه

كاف بل ويزيد عن الحاجة. وإلى جوار الحجرة كان جراج البيت، حيث تقبع سيارتان، تكسران هذا الهدوء المطلق، بحركتهما وهما تخرجان أو تعودان، وبما تحدثه كل منهما من ضجيج!.

أما الحديقة فكانت مهملة نوعا، ومع ذلك كانت تدل على عز قديم. شابت، لكن مسحة الجمال لا تزال تسرى فى أوصالها، إلى جوار هذا الصلف اللطيف.. أحيانا! وكانت هذه الحديقة تحوط بالبيت من كل جانب، حتى هذه الحجرة النائية فى طرف منها.

وكانت الحجرة أول الأمر لسائق، لكن السائقين قد صاروا متعبين ومرهقين!! لم يعودوا كما كانوا بالأمس، يطردون أو يبقون!!

لم يعودوا كذلك ينحنون لأى كلام يسمعون!!

لم يعودوا سمر الوجوه، فى أيديهم قفازات بيضاء، وعلى رؤوسهم طرابيش داكنة، كالبلح الزغلول قبل أن يصبح رطبا!! لم يعودوا حتى سائقين، يحاسبون على السيارات، وينظفونها بالقدر الكافى، وينتظرون الأوامر التى تصدر إليهم!!

نعم لم يعودوا مثلما كانوا، بل صاروا أفندية، كأصحاب السيارات!! وأصابهم داء العصر، فأسرعوا كالمجانين! يسوقون فيسرعون! تنتهى مواعيد عملهم، فينصرفون مسرعين! ترتب لهم تأمينات، فيطالبون بها مسرعين!

تصبح لهم حقوق، فيؤكدونها مسرعين! لا شئ على مهل! لا شئ يؤدى برفق وأناة! داء العصر قد أصاب السائقين، فلم يعد لهم مكان عند الذين يتمهلون!

وانتقل السائقون إلى القطاع العام، يسوقون السيارات لرؤساء مجالس الإدارة، والمديرين. وهؤلاء وأولئك يأمرون من يدفعون! فيدفعون!!

وتقول الست نازك فى لهجتها العظيمة الشامخة : تماما كما فعل الخدم، ذهبوا يعملون فى الفنادق، وتحولوا إلى موظفين!

وتعقب الست نازك على هذا قائلة فى عناد : وظنوا أننا سنركع لهم ليعودوا. لكن الذين رباهم الأتراك لا يركعون أبدا!

لقد كان أهلنا يتركوننا ننام ليلة كل أسبوع على حصير، ناشف، يحطم الضلوع. وكانوا يرددون الحديث الشريف: «إن

النعمة لا تدوم». من أجل هذا، تعودنا على أن نعمل كل شئ لأنفسنا. أنا مثلا أسوق السيارة، وأطبخ. بنتى إقبال كذلك تعمل شغل البيت كله وتسوق السيارة، الشئ المزعج مسح البلاط والأعمال الأخرى التى من هذا النوع. وهذه نستأجر لها واحدة ست كل أسبوع مرتين أو ثلاث، وهذا يكفى. ماذا جرى لنا إذاً؟ الحمد لله. تعمل الحكومة ما تريده، فسنعيش! بكرامتنا سنعيش!!

وكان مختار يقول للست نازك :

والبهوات.. لماذا..؟

وقبل أن يتم كانت الست نازك تقاطعه :

لماذا لا يساعدوننا؟ البهوات مثل السائقين، راحوا للقطاع العام. واحد استغل فى شركة، مديرا ربما! وواحد سافر ولم يعد!! وواحد معيد فى الجامعة، يقول أنه مشغول بعلمه ومعمله، ماذا نعمل معهم؟ الدنيا دائما على هذه الوتيرة، تشغل الناس، ولابد أن قوانينها تمشى! لو أن الناس تجمعوا دائما، لكانت الحركة تقل! لابد كل واحد يعمل شيئا غير الذى يعمله الآخرون!

وتختم الست نازك كلامها قائلة وابتسامة طيبة على شفتيها :

الحمد لله على كل حال: من كان يدرى؟ جائز كنا جعنا. لا نزال قادرين على الأكل، واللبس، ولدينا سيارات، والأشيا رضى!

●●●

وكانت الحجرة فى وسط هذه الحديقة، أشبه بالنقطة فوق أحد حروف الهجاء. لو أزلتها لالتبس عليك أمر الحرف لا تعرف إن كان راءً أو زايا مثلا.

- طيب ولماذا سكنوها.. هؤلاء ناس مبسوطون، وليسوا محتاجين إلى أجرة الحجرة، وهى قروش؟

- لماذا؟ لا أدرى؟ لا أدرى وجهة نظرهم أو حاجتهم، لكنى أدرى شيئا واحدا.. أن أقع أنا فى بئر من المحنة.

- و"أنت تطول"؟!

- "عشان أنت على البر"!

●●●

وكانت هذه الجملة تثير فضولى. لكن مختار كان غريب الأطوار. كنت أعرف عنه كل شئ. أعرف أدق مشاعره. أزماته مع أخواته.. بل مع أمه. كلانا قد شب يتيما، فترملت أمه وهى صغيرة، وتحملت مسئولية الأم والأب معا.

وحكى لى أن أمه قد عاشت بعد ترملها قصة حب عنيفة، كادت تدفع بها إلى زواج ثان، بعد أبيه.

وكان مختار يحكى لى كيف هوت أمه مع صديق من أصدقاء والده، وأخذت تلتقى به كل يوم، وتذهب معه إلى الحدائق، وتدخل معه الملاهى. ولم يجد تدخلنا كلنا، ولا ذكرى أبى،ولا الخوف على كيان الاسرة، ولا البنات أخواتى، وما قد يتأثر به مستقبلهن، لو عرفت قصة هذا العشق، وما ينتهى إليه من زواج. كل هذا لم يجد، غير أنها ذات يوم، رأته مع زوجته الأولى صدفة. كان يسير معها فى نفس الأماكن التى يصحبها إليها.. كان متيما إلى حد الخدر، فلم يرها وهى تسير. كان أقرب إلى المراهقين منه إلى الرجل المسئول. عندئذ شعرت أنه يتسلى بها، وأنه يخدعها، ويملأ بها فراغا فى نفسه. وحكى مختار كيف ثارت أمه، وبكت وطردته من حياتها طردا عنيفا جدا. كذلك حكى أنهم عرفوا القصة من موقفها العنيف مع الرجل الذى أوقع بها. مثل هذا حكاه مختار لى فى صدق وبساطة. وأحسست ساعتها أننا أخوان، وأن قصة أمه، أمانة لدى، ودفنتها مع ذكريات أخرى لا يجوز أن تحكى.

لكن مختار. على دقة ما اعتاد أن يرويه لى عن أسرته، وكيف يعيشون على ديون الجيران، أغلب شهور السنة، وقف عند هذا السر. ولم يشأ أن يتحدث عنه.

وكعادتنا، لم يطل بنا حديث الفضول هذا. لقد عشت ومختار صداقة بريئة صادقة، يروى كل منا للآخر، ما يقرر بإرادته أن يرويه. وتعود كل منا ألا يسأل كثيرا، وألا يتدخل فى سر لا يريد الآخر الحديث عنه. يسمع أحدنا للآخر ما يريد أن يرويه، فإذا رأى أن يصمت عن شئ، قابل المستمع هذا الصمت بالاحترام.

لهذا سكت.. أبديت فضولى، فظل على صمته، فاعتبرت الموضوع منتهيا، ولم يكن لهذا أى تأثير على ما بيننا من علاقة.

إن لكل واحد منطقة محرمة!! يودع فيها ما يريد من أسرار!! وقد كانت المنطقة المحرمة عند صديقى مختار مشغولة بشئ غامض لا علم لى به، إلا أنه شئ يرتبط بالحجرة، وهذه الحديقة، والسيدة نازك وابنتها أقبال. أما ماذا يكون هذا الشئ تماما، فلم أكن أدرى!!

لكن شيئا من هذا كان يهمنى جدا. مختار صديقى، لقد صار مختار حزينا.. صار شاردا. فارقته الابتسامة، وفارقته كذلك روح المرح التى عرف بها، وصار يبدو تعسا جدا.

- هل أنت مريض؟.. مختار هل أنت مريض؟

- أنا.. مريض.. وماذا يحملك على السؤال؟

- أنت تائه يا أخى عن الدنيا. أنت أيضا شاحب..

- تائه.. لا لا.. أنت بالقطع تمرح! أما الشحوب، فهذه ملاحظة ليست فى محلها يا مراد.

- هل تخفى عنى شيئا يا صديقى؟

- أى شئ؟.. لا شئ يستحق أن يخفى.. لا شئ على الاطلاق.

●●●

وعدت أحترم المنطقة المحرمة التى يختزن فيها شيئا ما، يكتمه عن الناس، حتى عنى.

لكنى كنت قلقا عليه مع هذا.

ولاحظت أنه بدأ يكتب فى نوتة صغيرة كانت معه. وأخذت أرقب فى حذر، فقد اعتدنا على أن يحترم كل منا سر الآخر.

لكن مختار كان يكتب أحيانا، وفى عينيه دموع!

كان يكتب، وهو يبكى!

ولاحظت أن كتابته فى النوتة كانت على طريقة الشعراء.

ولم يزعجنى أن يصبح مختار شاعرا. إنه كثيرا ما يكتب الشعر من قبل، وكان شعره رقيقا جدا، ومؤثرا. لكنه لم يكن يكتب الشعر ويبكى.. أبدا ما عهدتك يا صديقى تكتب شعرك بدمعك.

وهفت نفسى إلى أن أتطلع إلى ما يكتبه.

أسترق النظر وأرى ماذا يكتب.

وكنت أعلم أن ذلك عمل غير لائق، لكنى كنت أشد حرصا على مختار، من حرصى على أى شئ آخر.

ولمحت كلماته عطشى، وتعسة!

أهو الحرمان؟ أهذا صدى حرمان الصديق الرقيق، الذى عاش محرومًا. حرم عطف الأب عندما مات الأب، وكان لا يزال فى ريعان الشباب. وحرم عطف الأم عندما وقعت الأم فى محنة حب مزيف بعد أبيه، ثم وقعت بعد ذلك فى محنة الندم على ما ارتكبت من حماقة. وحرم عطف الأخوة

والأخوات، الذين انشغلوا على مصائرهم، بتصرفات الأم المخدوعة! كله حرمان. والرحلة كانت شاقة على نفس صبى. هل تتحمل يا صديقى جولة أخرى تتعرض فيها للحرمان؟!

●●●

وتلك ليلة لا تنسى... أبدا.

شعر مراد أنه ضيق بكل شئ.. ضيق بالكتب التى أمامه، والمذكرات التى تحت بصره. ضيق بنفسه وبالناس الذين ينزل عندهم. ضيق بالحجرة. بالفراش.. بالغطاء.

ضيق بكل ذلك حتى لقد كاد يختنق.

وخرج إلى عرض الطريق، والظلام كثيف.. كثيف جدا. ومشى، بلا هدف. كان لا بد له من أن يمشى.. يتحرك.. يتنقل..

ووجد نفسه فجأة، وبغير ادراك، فى الجيزة، بل أمام البيت العتيق العريق، الذى يسكن مختار منه الحجرة الوحيدة التى تقبع فى ركن الحديقة إلى جوار الجراج.

وتنفس الصعداء، وهو يدخل الحديقة الواسعة، ليتجه إلى حجرة صديقه مختار.

لم يكن غريبا أن تكون الحديقة مضيئة، فكلاهما ـ مختار وهو ـ ممن يسهرون الليالى يقرأون. إذا انتهيا من دروسهما وجدا دائما صفحات أخرى تنتظرهما على جمر.

●●●

يا ترى تقرض الشعر الآن وتبكى، أم تقرأ القريض.. وأيضا تبكى؟

وجاءه الرد من الأصوات الهامسة التى وصلت أذنيه.

أما هذا فصوته، صوت مختار أعرفه من بين ملايين الأصوات. وأما الصوت الآخر، فصوت من يا ترى؟ صوت من؟ صوت من؟

●●●

ـ أنت يا مختار كأولادى.

ـ ليتنى كنت واحدا منهم.

ـ أنا كأمك.

ـ وأنا محتاج إلى أم.

ـ البركة فى أمك، ربنا يطيل لك فى عمرها.

ـ لا تخرجينى عن عالمى الجميل الرائع.

ـ هذا عالم أمس يا مختار.

ـ وأمس قد يكون أجمل من اليوم.

ـ لكنه سيظل هو أمس.

ـ وبعض الأمس يمتد ليصبح اليوم كذلك.

ـ لكن طعم القدم منه يفوح.

ـ عبق يملأ النفس رضى..

ـ ولا يعطر الحاضر.

ـ فإن طال أمده ، وامتد به العمر.

ـ يظل هو الماضى.. وهو حى!

ـ وجزءا من الحياة التى نحياها.

ـ بقية من عمر مضى.

ـ أو سطرا فى مستقبل مخبوء.

ـ مكتوب بالهيروغليفية أو اليونانية القديمة.

ـ ولا يقدره إلا عارفوه.

ـ عارفوه!! وتظلم عارفيه!

ـ بل أقدم لهم ما يحبون.

ـ فإذا خلوا إلى أنفسهم؟

ـ ماذا؟. ماذا يريدون؟!

ـ أن يعيشوا فى دنيا الناس.

ـ ليعيشوا كما يعيشون.

ـ فى العصر الذى يعبرون.

ـ إنك تبالغين.

ـ أبدا.. بل أنت صغير يا مختار.

ـ وأود أن أعيش صغيرا، وأموت صغيرا.

ـ لكنى أريدك أن تنمو.

ـ لأستحقك؟

ـ بل لتستحق الحياة، وهى دائما تسير.

ـ فإن لم أسر معها؟

ـ تتجاوزك، لتدور حول نفسك فى فراغ.

ـ بل فى جنتى وحدى.

ـ جنتك جزء من الحياة، ويوم تتجاوزها الحياة.

ـ تزداد جمالا.

ـ بل تصبح مقبرة!

ـ أرجوك يا سيدتى.. قدرى..

ـ أقدر كل ما تحمله نحوى من عاطفة. أو تظن أنى أعطيتك هذه الحجرة، إلا لأنى أقدر عاطفتك؟

ـ اذاً... تمضين معى، فى هذا الطريق الجميل.

ـ منذ رأيتك مع أمك، وأنا معجبة بك، مقدرة لصمتك.

ـ وكانت أمى خائنة.

ـ لا تلمها يا مختار. إنها معذورة. قدر ظروفها.

ـ تدافعين عنها لأنها قريبتك.

ـ بل لأنى انسانة. ثم إنها قريبة من بعيد. نوع من المصاهرة البعيدة ، تربطنى بها. لكن أهم من هذه الرابطة أنى أشفقت عليها مما كانت فيه، ولم أشأ أن أعنفها أو أحرمها من شئ تحبه، بالقوة. كنت أعرف صديقها، وفى الحقيقة هو أقرب إلى منها، ولقد عرفت حكايتها منه، وكنت أعلم أنه جائع، يسد بها جوعه إلى المرأة. على أنى قدرت أنى لو قلت لها ذلك لظنت أنى أغار منها. ونحن أرملتان، تفهم كل منا الأخرى. وقد أكون أصغر قليلاً منها. لهذا انتظرت عليها حتى كشفت حقيقة صديقها ، وعندئذ

تدخلت لأخفف عنها. لماذا أحكى لك هذا الآن وأنا أعرف أنك لا تحب أن تسمعه؟ شئ واحد أريد أن أذكرك به، إنى أشفقت عليك من أول يوم رأيتك فيه. كنت يا مختار صامتا وحزينا. كانت دموعك مختفية بين أهدابك فى مآقيك. وكنت أراك. فأشعر أنى أحب أن آخذك فى حضنى وأقبلك. عيناك المسبلتان، المتبتلتان، كانتا منطويتين على نداء! وشفتاك المضطربتان بالغيظ والضيق، كانت مطبقتين على جمر! وأحببتك يا مختار.

- وأنا أحببتك يا سيدتى.. أحببتك.

- لكن حذار. لقد تصورتك واحدا من أولادى.

- لأكن واحدا من أولادك. لتكونى أمى. أحبينى يا أمى. خذينى فى حضنك يا أمى. لا تتكلمى كثيرا يا أمى.. أحبينى حب أم. حب أخت. حب امرأة. حب فتاة. حب ولية. حب تقية. حب فنانة، حب شاعرة.. أى حب تتخيرين لكن أحبينى... أحبينى.. أحبينى.. وحذار أن تصرفينى أو تهجرينى. أو تتركينى.. يا أمى، يا أختى، يا ملهمة الروح.. أحبينى.

●●●

وشعر مراد من مكانه فى الحديقة أنه يبكى.

دموعه ملأت عينيه، فلم يعد قادرا على أن يخفيها.. وعمن يخفيها؟. ولماذا يخفيها؟ تركها تتدحرج على خديه، وعاد من حيث أتى!!

ومضى عائدا إلى حيث ينزل عند أقاربه.

الطبيعة حوله رطبها الندى، وعيناه رطبتها الدموع، وخلاء لا يشغله شئ، لكنه كان زحاما، تضطرب فيه العواطف والمشاعر، ومختار بينها كالطيف، شارد وتائه وحزين!

●●●

يا مختار يا صديقى.

انظم ما تشاء من الشعر، وقل ما تشاء من القريض، فإن ما لديك يملأ دواوين هذا العصر شعرا.

مسكين يا أخى.

إنك تبحث عن أم. تريد لك أما، تشعر معها بدفء العاطفة ورقة المشاعر، وحنان الأم.

ومن أجل هذا تكتم عنى قرابتها لأمك، مهما تكن بعيدة؟ وتكتم عنى هذه العاطفة المتأججة فى قلبك؟

لكنك مسكين يا مختار. أنت وهى، وظروف قاسية لا ترحم، وفرق ما بينكما .. فرق السن والمستوى والثراء.

كل ذلك كيف تواجهه؟

لا سبيل إلا أن تقع.. فى بئر من المحنة كما قلت لى يا مختار.

هل تدرى يا صديقى أنى وقعت معك فى بئر المخنة تلك؟ وقعت حتى كدت أغرق!

خيل إلى أن أصارحك، وأناقشك، لنتفق معا على ما تفعل. لكنى أعلم مقدما ما يمكن أن يكون وقع ذلك عليك.

إن حساسيتك المفرطة يا صديقى، لن تسمح بمثل هذه المفاجأة. إذاً أتركك؟ وتعانى ما تعانيه وحدك؟

على كل حال، قد أخذت أرقبك. وأنا أعيش معك فى بئر المحنة، لكنى لم أكن أجرؤ على تصرف يدل على أنى أعرف شيئا عنه! وكان شعورى مؤلما وبائسا يا صديقى. أنت جزء منى، وأنت صديق عمرى، لكن كان على أن أطوى نفسى على كتمان، وأمضى أمثل على نفسى وعليك.

كذلك كنت أرقبها، وأرثى لها.

إن السيدة نازك، ارتفعت فى نظرى إلى مستوى الملائكة.

انها تحبك، لكنها تقدر ظروفك، وتناقشك بهذا القدر من الرقة، وتصرفك عن أن تتورط معها، وهى تحبك.

لو كانت امرأة أنانية، لأغرقت كهولتها فى شبابك! والمرأة يا مختار إن أحبت نسيت نفسها، فلم تعد تعترف بفارق من أى نوع. لا تصدق أن المرأة ـ عندما تحب ـ تشعر بكهولة، ولا بمشيب. إنها تعود إلى وراء، فتاة نضرة، تريد أن تقفز فى مريلة المدرسة الثانوية، وتتغزل بمنطق العامرية ليلى، وتستمتع بالتشبيب، بل وتفخر به على نفسها وقريناتها.

ونازك يا مختار امرأة، ومن يدرى كيف كانت حياتها الأولى! ربما عانت نوعا من الحرمان! وربما زوجوها بعجوز اعتصر شبابها لنفسه، ثم تركها ومات، ومع هذا، فلحظات السعادة فى حياة الرجل والمرأة يا مختار، ليست حكما بقفل الباب، ولا هى حقنة يتحصن بها الناس ضد طوارئ المستقبل. وفى السعادة لا يصاب الناس بالتخمة أبدا. لا يشبعون سعادة، ثم يرفضون بعدها أية سعادة أخرى! والحب سعادة يا مختار. الحب ألذ أنواع السعادة، ولا أوان للحب يا صديقى. يأتى وقتما يشاء، وقد لا يأتى أبدا. وعندما يتكرر يكون له نفس الطعم فى كل مرة.

نازك.. أيتها السيدة الجليلة نازك.

ما أتعسك! تحبين، وتتمنين لو تركوك تتمتعين بمن تحبين، لكنك ياسيدتى لا تستطيعين!!

ظلم.. هذا ظلم يا سيدتى، وأنت لا شك مظلومة! ومظلوم معك فتاك! يحبك، لكن عليه أن يواجه فى الحب قدره! يحب، ولا يحب! يحب فى الحقيقة، ولا يحب أمام المجتمع!

●●●

وأخذت يا مختار أرقبك وأرقبها من بعيد.

وسامحنى يا مختار، أنى أسترقت السمع إليك وإليها فى بعض الأحيان. فى المرة الأولى، ثم ذلك صدفة.

ثم الصدفة وضعت صدفة

ومن الصدفة كانت لوعة

وإذا اللوعة دعوة

تصدق مرة

وتكذب مرة

وتصير الدعوة نزوة

وأجمل شئ فى الإثم النزوة!

●●●

مـا كـان أتعـسكمـا : أنت وهى، تكرران نفس الكلمـات، وتعيدان اليوم ما كنتما تقولانه أمس، وأنا أسمع بين الحين والحين ما يدور بينكما من حوار.

ـ قلت أحبك.. ألا تصدقين؟

ـ وأنا كذلك أحبك.. ثم ماذا؟

ـ هل لابد للحب من ماذا؟

ـ نتيجة ينتهى إليها وغاية.

ـ فإذا كان شيئا بلا نهاية.

ـ كالبحر بلا شطئان.

ـ وفيم الحاجة إلى شطئان.

ـ الأمان.

ـ وحياة الخطر.

ـ خطر.

ـ والمغامرة ما عيبها؟

ـ غير مضمونة العواقب.

- وفيم الحرص على العواقب؟

- طبائع الأشياء.

- فإذا تجاوزنا طبائع الأشياء.

- لم نعد أشياء.

- نصبح ماذا؟

- شيئا لا يسمى.

- ليكن.. ما أجمل أن نعيش حياة بلا اسم!

- وبلا نسب.

- وبلا أهل.

- كاللقطاء.

- اللقطاء لهم أهل.

- لكنهم ينكرونهم.

- هذا لا ينفى الحقيقة.

- الحقيقة المجردة المطلقة، لا يعرفها الناس.

- لكنها موجودة.

- فى المطلق.

ـ والواقع قد كان من قبل مطلقا.

ـ حتى حدده الإطار الملموس الذى صار فيه.

ـ فاذا رفعنا الإطار.

ـ عاد ما كان.

ـ ويظل له كيانه.

ـ فى منطقة انعدام الوزن.

ـ وما ضير ذلك؟

ـ أن يسير بلا ضابط.

ـ بلا قيد تقصدين.

ـ والقيد ضابط.

ـ لكنه قيد.

ـ والخروج على القيد تحلل.

ـ وتحرر.

ـ وانحلال مع ذلك.

ـ هذا ما أعارضه منك.

ـ لأنه يتنافى مع رغبتك وهواك.

ـ كذلك يتنافى مع رغبتك أنت وهواك.

ـ لكنى أعود إلى ضوابط نفسى

ـ لتقيدى وجدانك.

ـ بل لأعيده إلى دنيا الواقع.

ـ وحبى.

ـ مطلق.

ـ فأنت أردته واقعا.

ـ استفز منطق الأشياء.

ـ ليكن ما يكون.

ـ نحن نعيش على الأرض.

ـ أعرف هذا.

ـ ولسنا وحدنا عليها.

ـ نعم.. وبعد؟

ـ ولكى ترتاح نفوسنا، علينا أن نعيش كما يعيش الناس.

ـ والناس يحبون.

ـ ومنهم من يتعذبون.

ـ ومنهم من يسعدون.

- فى الإطار الموضوع.

- والحب لا يعرف الإطارات.

- بل هو نفسها إطار الوجدان.

- إذاً ترفضين حبى؟

- لا أرفض حبا اتبادله معك.

- إذاً ماذا تريدين؟

- أريدك أن تحب واحدة مثلك.

- فقيرة؟

- بل صغيرة.

- لتلعب؟

- لتحبك.

- فان كنت تحبيننى.. فلماذا الشرك؟

- أمك أيضا تحبك، فهلا تحب سواها من سنك.

- لكنك أنت أمى، وأختى وصديقتى، وعشيقتى، وهواى الذى لا أستطيع له دفعا.

●●●

آه يا مختار يا صديقى.

آه منها عليك! وآه منك عليها!

إن أحدا لم يكن ليستطيع أن يقاوم مثل هذه العاطفة الدافئة الرائعة. وأيا كانت مقاومتها، فقد كان طبيعيا أن تلين أمام صدقك.

وأنت كنت كبيرا فى حبك يا مختار.

كان هذا الحب ماضيك وحاضرك ومستقبلك جميعا.

كنت تنمو، وحبك ينمو معك.

هى كذلك كانت تنمو، وحبها ينمو معها، ولكن الغريب أنها كانت تصغر! كانت تستعيد شبابها وتصغر!

ومرت بكما سنوات حلوة جميلة. أنت تقفز درجات السلم إلى نهاية الدراسة، وهى تقفز درجات السلم إلى سعادة لا نظير لها.

وتخرجنا يا مختار، انتهت دراستنا فى الجامعة، وبدأنا نستعد لممارسة حياتنا، كتابا حالمين.

وسمعت آخر ما كان بينكما من حوار.

●●●

ـ كنت قبل طالبا، وكان عندك عذرك. أما وقد تخرجت؟

ـ لا تزال أمامى الطالب الفتى الصغير.

ـ هل أذهب لأحضر لك شهادة الليسانس لتصدقينى.

ـ يا مختار أنت حبيبى، وأنا أصدقك.

ـ اذاً نتزوج..

ـ وأنت ابنى؟

ـ لست ابنك.

ـ أنت كابنى.

ـ النبى تزوج واحدة من سن أمه أو تكاد.

ـ كان ذلك من نبى.

ـ والحب نبوة.

ـ وشهوة كذلك.

ـ لو كان شهوة لاشتهيت سواك.

ـ كما اقترحت عليك.

ـ نعم صغيرة وحلوة، ومن سنى.

ـ لتسعدك.

ـ أتتهكمين يا سيدتى من عاطفتى؟

ـ ليتنى أستطيع.

ـ لم يعد أمامك عذر.

ـ لزواج؟

ـ لهناء دائم لا يزول.

ـ ويضحك علينا الناس.

ـ ويعجب بنا آخرون.

ـ لأننا شجعان.

ـ وأحرار.

ـ إلى حد النزق.

ـ قلت لا عذر. لم يعد هناك عذر.

ـ وأولادى. الرجال منهم ثلاثة، بين مدير ومهاجر وأستاذ.

ـ وإقبال؟

ـ قد تقبل إقبال عواطف امرأة، أما الرجال.

ـ فستكون فرصتهم ليتدخلوا.

ـ تعنى ليسخروا.

ـ تريدننى أن أقتنع؟

ـ تحبنى كما أحبك، كما تشاء وأشاء.

ـ وبلا زواج؟

ـ نعم بلا زواج.

ـ وأموت من حرمانى؟

ـ ماذا أقول؟ هل أحرضك على إثم؟

ـ نتزوج...

ـ افهمنى..

ـ نتزوج... قلت نتزوج. سأتفق مع المأذون ليستعد.

ـ وبعد معك.

ـ وعندما يحضر، سأرسل أطلبك. وسأطلب مراد وصديقا آخر ليشهدا على أنبل زواج على وجه الأرض.

●●●

لكنك يا مختار لم ترها بعد ذلك أبدا.

أرسلت تحضر المأذون فحضر.

وأرسلت إلى، فحضرت

وسألت فيم هذه الدعوة؟ فلم تشأ أن تجيب، واكتفيت بأن قلت مفاجأة. وجلست أنا وزميل آخر ننتظر المفاجأة.

وأنت كذلك جلست معنا تنتظر هذه المفاجأة.

لكن المفاجأة لم تتم يا مختار.

أبدا، ولم تحضر السيدة نازك، لتتم المفاجأة!!

●●●

أما أنت يا صديقى مختار، فقد تحولت إلى حطام.

لم تعد مختار الشاعر، ولا مختار الساخر.

الشعر تحول بين شفتيك إلى لهب، والسخرية صارت دموعا تتساقط على خديك.

وصرت ـ وأنت الشاعر ـ فى حاجة إلى شاعر يتحدث عنك.. إليك! فقد يكون حديثه عزاء.

وصرت ـ وأنت الساخر ـ فى حاجة إلى ساخر آخر، يستطيع أن يعيد الابتسامة إلى شفتيك.

يا أخى وصديقى مختار.

ليتنى ما جئتك فى هذا اليوم، وليتنى ما رأيتك على ما كنت عليه من حال.

لقد تحولت فى غمضة عين إلى شبح.

ولم يعد يجدى معك كلام، ولا سلام.

.. أنت يا مختار تحولت إلى شئ لم أر له من قبل نظيرا.

وذابت نظراتك، بين جمرات نفسك!

ثم انكفأت على وجهك، بلا دموع!

ماذا كنت تقصد؟ وماذا كنت تريد؟

على أنى يا مختار لم أملك حتى أن أواسيك.

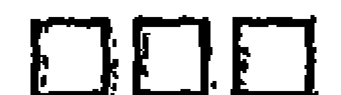
لم أكن أريد أن أدخل فى نفسك لأواسيك.

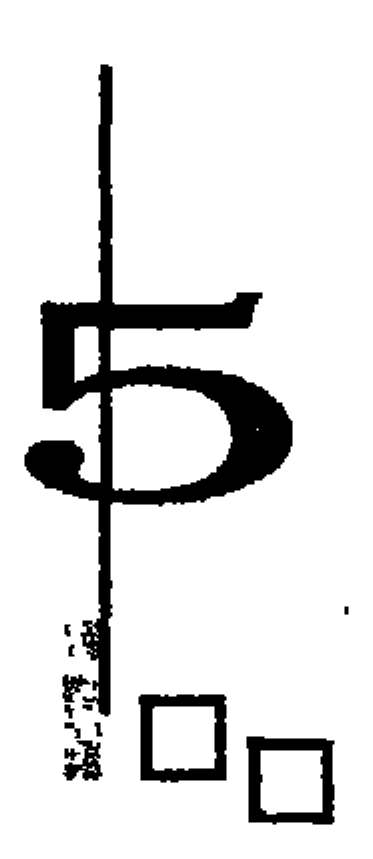
المنطقة المحرمة من نفسك، ظلت مـ [illegible] ة على لا أقتحمها حتى لا أؤذى مشاعرك.

وظللت إلى جوارك صامتا لا أتكلم.

... بل تعمدت ألا أتنفس!

كنت أريد أن أجنبك حتى هذا النفس الذى يتردد فى صدرى!





أنت لم تقتلها يا صديقى!

أبدا ما قتلتها يا مختار!

لقد لبت نداء عمرها، وأسرعت إلى أبرع نهاية رسمها قدرها!

●●●

لكنك أيها الصديق التعس ظللت مع هذا تهذى! تقول وتحكى ترسل زفراتك كلمات!. وكنت وحدى الذى يسمعك، ويبتلع ما يسمعه منك!

لقد خرجت نازك هانم عقب حديثك معها، وهى لا تدرى ماذا تفعل. كنت تخاف أن تصدمك، إذا هى هربت منك، وكانت مع هذا تخاف أن تصطدم هى بالمجتمع كله، إذا هى لبت دعوتك! كانت تحبك! نازك هانم كانت يا صديقى يا مختار. مولعة بك. كانت راغبة فيك. كانت تتمنى لو

أغمضت عينيها، فتحتهما، فوجدت نفسها فجأة فى جزيرة نائية، بعيدة عن البشر، وليس فيها من الناس إلا هى وأنت. حينئذ كانت تتزوجك، كما تزوج آدم وحواء. وحينئذ كانت تسعد بك وتنجب منك كل أبناء البشر من الناس.. من كل الأديان والأجناس. ويمتد وجودكما الرائع إلى العالم العريض الواسع، لتكرر صورتكما فى كل لمسة حنان، أو همسة عشق، أو نجوى أو شكوى أو زفرة تخرج محمومة من صدر مخنوق.

لكنها كانت تتطلع حواليها فتجد أن لها رجالا كبارا، وأن لهؤلاء الرجال أولادا، وأن عليها أن تحترم سنها ومكانتها. وابنتها اقبال الرائعة ذات الجمال الفاتن الاخاذ. ماذا تقول؟ وماذا يقولون عنها؟ عندما تتزوج أمها ممن يصغر كل ابنائها، حتى إقبال نفسها؟

كانت نازك هانم مرتبكة الخطى، مضطربة الأنفاس، تقود سيارتها، دون أن ترى أى طريق تسلكه، لتخرج إلى مكان آمن.

وفجأة، وضع القدر نهاية لها، فكانت حادثتها، وكانت عودتها مهشمة الضلوع، وعدد من الاصابات، ونزيف الدم لا

يقف، حتى أسلمت الحياة قبل أن يصل طبيب أو سيارة إسعاف.

لقد كانت تلك إرادتها، أن تعود إلى المنزل لتراك، ولتعتذر لك عن غيبتها! ولتسد بهذا الباب أمام فرصة إنقاذها!

نازك هانم كانت تريد أن تموت، لتعيش أنت.

ونازك هانم كانت تريد أن تسر فى أذنك كلمة لم يسمعها أحد سواك، صرخت على أثرها، وذهبت فى غيبوبتك هذه تهذى وتحكى، لا يسمعك أحد سواى.

●●●

أنا الذى قتلتها! أنا الذى قتلتها!

بيدى هاتين قتلتها! فتكت بها! قضيت عليها!

●●●

أبدا يا صديقى مختار. أنت لم تقتلها، بل إنك بعثت فيها الأمل، وأعدت إليها الصبا. هل كان ذلك الذى فعلته لها، شيئا قليلا يا مختار؟ الحب الذى قدمته لها. أتظنه شيئا قليلا؟ لقد أخرجتها من سواد الحداد الطويل. وحولتها من وقف جامدة إلى نبض هائل يتحرك. وبعد أن كانت تعيش

حياة أرملة، لا تملك إلا الذكريات، جعلتها تحيا للمستقبل، تتطلع إلى الغد، فى شئ غير قليل من الأمل. كان أملا باهتا يا مختار. كان سرابا ربما. لكن لا تصدق المرأة، حين تعتذر عن حب. إنها تعتذر عن سلوك، لكنها تستبقى الحب، وتمتصه، وتعيش فيه. قد تصرفك. قد تحاول أن تصرفك لتحمى سلوكها، أو لتدافع عن سمعتها، لكن وقع كلمة الحب فى قلبها سيغور كما يغور النصل فى قالب من الزبد! وقد يذوب قالب الزبد، وقد يتساقط على جانبى القالب كالدموع، وتظل المرأة ترفض، ويظل الحب يغور. والمرأة ترفض، والحب يغور! حتى يقضى القالب ويذوب، ولا يبقى غير النصل الحاد يبحث عن زبد آخر، ليغور إلى القاع... يلمس سطح القالب فى همس، ثم يغور.. يبحث عن قلب يستقبله، فيغور ليجد القلب!

أو تسمع هذا الشعر؟ أو تقبل هذا المنطق؟

يا مختار أنت لم تفعل شيئا، الا أنك أحببت.

ونازك هانم لم تفعل شيئا، إلا أنها أحبت.

وأردت أنت أن تخضع سلوكها لحبك، لتصبح لك.

لكنهـا أرادت أن تمنحك الحب، وتمنع عنك سلوكـهـا، فكانت كـقـالب الزبد، ونصل الحب. النصل يفـور، والـزبد يذوب، حتى يقضى. ويبقى النصل.

- لكن نصلك اليوم صدئ يا فتى!

●●●

أنا الذى قتلتها! أنا الذى قتلتها!

بيدى هاتين قتلتها! فتكت بها! قضيت عليها!

●●●

أنت يا مختار أحببتها، أنت أحييت الأمل فى قلبها. أنت منحتـهـا أحلى لحظات العـمـر، وأرق نسـمـات الصـبـا. أنت أحلتها إلى فتاة يانعة تنتظر قطر الندى، لتتفتح ورقاتها..

ولقد ماتت سعيدة بحبك، تدعو لك بالسعادة والهناء.

وعوضت بك سنوات الضنى فى عمرها. أو تعرف قصتها يا هذا الذى سقط مغشيا عليه لا يفيق؟

اذاً فلتعلم أيها الصديق، أنها ما عرفت السعادة إلا معك.

كان زوجها مهما. مشهورا. غنيا. ذا جاه. كان نجما من نجوم المجتمع. كان ذكيا وقـادرا على أن يهد الكون إذا أراد.

يسقط الحكومات، ويقيم الحكومات. لكنه كان عاجزا عن إسعادها، مع ذلك. بل لم يكن يعبأ بأن يسعدها. لم يكن هذا مما يدخل له فى حساب. وما كان ليتصور أنها محتاجة - بعده - لشئ. لم يكن ليتصور أنها بعده، تتطلع لسعادة! كانت كل فتاة تتمناه. أميرات كن يتمنينه. فتيات قصور جميلات ثريات. أجنبيات طموحات. فنانات مشهورات. مغامرات، ومقامرات! جميلات، وساحرات! فاتنات، وممشوقات! كلهن وغيرهن كن يتمنين أن يكن من نصيبه. لكنه اختار نازك هانم. لم تعجبه واحدة إلا نازك هانم. ونازك هانم إن لم تكن تعلم كانت عاشقة محترفة! كانت أنثى جدا! كانت تحب الحب! وتعشق العشق، وتذوب وجدا، فى الغرام، تهيم فى الهيام، وغرامها غرام! كانت مهيأة لطاقة من الحب أكبر. كانت مستعدة لتذوق كل لحظة حبا. لكن زوجها المشهور الغنى، كان مشغولا عنها بأشياء أخرى. بلعبة السلطة. يضع هذا هنا، ليخلع هذا من هناك. يجمع هذا مع ذاك، ليتحاربا حتى يسقطا معا شهيدين! لعبته المفضلة، كانت خلق الله! كان متآمرا من طراز فريد! كان شيطانا محترفا!

ولم تمض إلا شهور، وشعرت هى بالجوع. الحب الذى يمنحه زوجها لها لم يكن يكفيها! هو كذلك شعر بالجوع.

لهب التآمر الذى قضى حياته فيه، لم يكن كافيا ليسد رغباته!

وعاش كل منهما جائعا. أما هو فقد وجد ضالته فى حياة التآمر التى حذقها، وأما هى، فقد صبرت على جوع قلبها.

وصار الجوع عادة، حتى لقد جفت أمعاؤها.

وأنجبت ولدا وولدا وولدا ثم أنجبت إقبال، وجوعها كما هو، يزداد عمقا فى حياتها.

فلما ترملت سدت منافذ الجوع إلى الحب، وعاشت حياة الأرملة الغنية حتى رأتك، أثناء هفوة أمك. عندئذ شعرت بنداء الحب فى عينيك، فلبت هذا النداء.

وعندما دخلت الجامعة، وتهيأ لك أن تكون فى القاهرة، منحتك الحجرة الصغيرة فى حديقة منزلها، لتكون إلى جوارها، تراك كلما هفت نفسها إليك.

●●●

أنا الذى قتلتها! أنا الذى قتلتها!

بيدى هاتين قتلتها! فتكت بها! قضيت عليها!

●●●

صدقنى يا مختار. أنت أضأت النور فى حياتها. حياتها قبلك كانت ظلاما، فلما رأتك، رأت فيك القبس الذى يهدى خطوها. لقد كانت ميتة، وأنت الذى أحياها، مثلما كان المسيح يحيى الموتى.

لكنها يا مختار أرادتك للحب. للشئ المجرد الذى يحسه الناس، ولا يستطيعون أن يعرفوه، أو يحددوه. ولم تستطع نازك هانم يا مختار أن تحدد هذا المجرد، والمطلق، فى إطار، حتى لو كان الإطار هو أنت! لم تقتنع بهذا الانتقال، من عالم واسع فسيح، ملئ بالمشاعر والعواطف، وانفعالات الصمت، وشرود لذيذ مخدر، إلى دنيا الواقع، حيث تمسكك من كتفيك وتضع عينيها فى عينيك، وتقبل شفتيك، وتعطى نفسها لك.. وأيا كانت التسمية التى تطلقها المجتمعات على هذا.. زواجا أو عشرة أو ما يكون، إلا أنه واقع.. يحدد الكيان اللانهائى، الذى لا تعرف له أول ولا آخر، ولا وسط. لا تعرف من أين بدأ، ولا إلى أين يسير!! لا تعرف متى بدأ ومتى يتصدع، ومتى يتهاوى!! لا تعرف أكان ذلك قبل آدم سلام الله عليه، أم بعده، أو لم يبدأ بعد!!

أنت كاتب يا مختار، وأنت كذلك شاعر، وأنت قبل هذا وذاك رجل فكر تدرك هذا المجرد، بل تعيشه. وقد تصنعه

لتعيشه. وقد تعيشه لتصنع نظائره العديدة، أو عالما من المثل يكرر وجوده المطلق.

ألا تستطيع أن تدرك ماذا كان موقفها منك يا مختار؟

نازك هانم لم تكن فيلسوفة، ولا هى كانت شاعرة. لكنها كانت إنسانة، والإنسان يحوى كل ما فى الإنسانية من مزايا. فيه شعر، وفيه فن، وفيه خيال. فيه همسة الكاتب، ونزعة الفنان، وعمق الفيلسوف. فيه جزء من كل ذلك، صغير أو كبير، لكنه فيه.

وقد لا يشعر الانسان به، وقد لا يحسه، وقد لا يتبينه، ولكن ذلك ليس أهم ما فى الموضوع، والشئ الأهم، أنه موجود فى كيان كل إنسان. موجود وقابل للتعبير عن نفسه، بالعقل أو بالقلب، أو بالغريزة فى بعض الأحيان.

نازك هانم لم تكن إذاً فيلسوفة، ولا كانت محتاجة لأن تكون فيلسوفة لتدرك هذا المطلق، ولتتبين أن ظروفها، ومكانها فى المجتمع، فى هذه المرحلة من عمرها، وفى هذه السن، وأمام مسئولياتها وارتباطاتها، أن تعيش معك قصة حب مطلق.

والمشكلة يا صديقى الشاعر، أنك أنت كنت تبحث عن تحديد المطلق، ووضعه فى إطار مادى تحسه، وتلمسه. السن!! إنها السن!! أنت فتى عربيد كحسن، وشئ فى داخلك يريد أن يعبر عن نفسه تعبيرا ماديا.. يريد أن يعب الماء حتى الثمالة، ويلعق الطبق حتى آخر ما فيه، وإلا فالجوع والعطش قاتلانه!

مسكينة نازك هانم! مسكينة وأنت مسكين!

كانت شيئا آخر غيرك! كانت على الطرف الآخر من الطريق! كانت فى الصفحة الاخيرة من كتاب شبابك!

أو تظن أنها كانت ذات إرادة فى هذا؟

يا مختار كان عليك أنْ تعرف المرأة. والمرأة يا مختار امرأة : تركية أو شركسية أو من بلاد واق الواق، أو من السماء.. هى امرأة. ونازك هانم كانت امرأة مثل كل النساء. مثل المثقفات والجاهلات. مثل الأميرات والعاملات. مثل المتبتلات والراقصات. مثل كل عالمات الذرة، وبائعات الذرة المشوى!! والمرأة فيها كانت واقعة تحت تأثير النداء. لكن الانسانية فيها كانت تحتفظ بالمطلق المجرد، البعيد عن مادته.

لكنك يا مختار كنت مندفعا بفتوة الشباب وفورة العمر، ونزق مكبوت ادخرته لها.

أسود وأبيض.. هكذا كنتما.

بارد وحار.. كنتما هكذا يا صديقى.

وكان لابد من أن ينكسر الإناء الزجاجى الذى تعرضانه لهذا التناقض المذهل يا مختار. وانكسر بالفعل هذا الإناء. اصطدمت هى بسيارتها لتضع النهاية المحتومة، للقاء المتنافرين، العاشقين مع ذلك.

●●●

ولا تزال يا صديقى فى غيبوبتك!

نعم. ولا تزال تصور لنفسك أنك قتلها!

لقد مر الحادث، ومضى.

بل لقد هاجرت ابنتها اقبال إلى أخيها المهاجر، لتعيش بعيدا عن رائحة الدم الذى نزفته أمها حتى ماتت.

وسقطت أنت بلا كلام، مغشيا عليك. وحملتك يا صديقى لتعيش إلى جوارى.

وها أنت ذا بعيد.. بعيد عن الدنيا كلها، بعيد عن العالم.. ها أنت ذا بعيد عن الكون، أولاه وأخراه كذلك.

أفلا تفيق أيها الصديق.

●●●

وأفاق مختار.

كان كأهل الكهف، آتيا من رحلة بعيدة جدا. كانت أمامه مجموعة من الرؤى الغامضة، كالذين يصحون من تأثير البنج!

لم يقل شيئا، ولم يحاول أن يسأل عن شئ.

وأدرك مراد، أنه وضع كل شئ حدث فى المنطقة المحرمة من نفسه، ولم يدع حتى الهواء يقتحم هذه المنطقة، خشية أن يفسد جوها.

لكن مراد، قد كان يتابع خطو صديقه، كان يرصد حركات نفسه. كان يحاول أن يتعرف على تطوره على مدارج النسيان.

ولم يكن يستطيع أن يسأله! لقد تعارفا على أن يحافظ كل منهما على منطقة الصمت لدى الآخر، فلا يبددها بإثارة أى ضجيج، أو بالهمس، أو بالاشارة من بعيد!

لا. السؤال بينهما حرام. حرام. حرام!

لكن "مراد" قد كان شاعرا وأديبا. كان كاتبا يحترف حياة القلم ويعشقها مع هذا. كان خبيرا بنبضات المداد، والتعرف على خلجات القلم، وأخذ مراد يتابع ما يكتبه مختار.

ولعله عندما كتب، بعد هذا الحادث، تخير مجلة أدبية محدودة الانتشار. ولا بد أن ذلك قد حدث عن عمد!

تغار يا صديقى عليها من قرائك!

تتخير ركنا منزويا، تفرش فيه عواطفك، فتنفس عن نفسك بإخراجها، وتحتفظ بسريتها فى نفس الوقت؟

ما أخبثك يا مختار، حتى فى حبك!!

ما أشد حرصك، على عاطفتك!!

لقد حملتنى على أن أكشف عن مجلتك تلك التى اخترتها حقيقة جديدة، كانت خافية على، فقد بدا لى أنها مخصصة للذين يضنون بعواطفهم على الناس. نوع من تسجيل الأعمال الأدبية، العظيمة والرائعة ربما. لكن تلك التى تؤثر ألا تعرض علانية على الناس!

ولقد أخذت أسلى نفسى، عندما كشفت هذه الحقيقة ببعض الدعابات.

قلت مثلا أن هذه المجلة يمكن أن تصدرها هيئة البريد، فبدلا من أن يكلف الناس أنفسهم مشقة إرسال الخطابات الخاصة، ويكلفوا سعاة البريد مهمة حمل هذه الخطابات، والتفتيش عن العناوين الموجهة إليها، فإن هذه المجلة تستطيع أن تختصر المسألة، وتتولى توصيل هذه الخطابات بغير هذه المشقة وهذا الجهد!

وقلت مثلا لماذا لا يطبعون هذه المجلة على ورق أزرق، ومعطر كذلك، لتصلح لإرسال الخطابات الغرامية الملتهبة؟

وقلت أخيرا أن الواحد يستطيع أن يستعمل هذه المجلة لارسال أى سباب، دون أن تنطبق عليه نصوص قانون العقوبات، فإن ركن العلانية فيها معدوم!

أنت يا مختار بخطابك الرائع، الذى حملتنى على هذه الدعابات.

كتبت فى تلك المجلة، بعد أن استعادت نفسك أجمل وأرق رسالة قرأتها لعشاق فى محنتك.

وكانت الرسالة تحت عنوان واضح : إليها.

هل يا ترى كنت مغيبا عن نفسك وأنت تكتبها؟ هل كنت تعى ما تقول وتكتب؟ هل كان ذلك وحيا أم كان الهاما؟

اسمع بعض ما كتبته فى تلك الرسالة أيها الصديق.

●●●

إليها.. حيث تكون.

أن تكونى فى الأرض لا تزالين، فتقبليها زهرة حلوة، نبتت فى الأرض، لكن شذاها عبير، يتضوع فى الفضاء، ويخترق الحجب إلى السماء.

وأن تكونى فى السماء تتصاعدين، فتقبليها قطرة، تبخرت من لوعة الفراق ولهيب الهجر، لتصعد إليك، تحمل أرق العمر، ونزق اللحظة.

والقطرة يا أخت روحى قد تكون جرعة.

أو ربما دمعة.

والجرعة تبل جفاف العطشان

والدمعة تؤنس ليل الأسوان

والجرعة والدمعة والكأس الفارغ والمحروم

وكلام فى النفس يعوم

ويصوم، ويقوم

يتهجد أو يتعبد، لكن ظمآن

يغرق فى بحر الحرمان

وينادى ـ مع هذا ـ ظمآن.. ظمآن.

●●●

إليها.. وإلى إليها!

فوجودى ليس وجودى

وجود العبد.. لديها

وجود فى عينيها!

ومذاق من شفتيها!

لكن وجودى ليس وجودى!

وجودى وحدى كالموعود!

وعدا لا يتحقق، لا يتدفق

لكن يتمزق!

●●●

إليها، وإلى لديها

فأنا منها، وهى منى

ولقد فرت تهرب منى

وبرغم الدم ينبض من قلبى، تهرب منى

تأتى، تذهب، تهرب، تندب

منى.. هى منى..

لا تلمنى يا صديقى لا تلمنى

أبكى، أسقى حرية نفسى، وأغنى

هى منى.. سأغنى هى منى!

وسألقاها كل يوم، كل ساعة

بل كل ثانية سألقاها

لأبكى أو لأضحك أو أغنى!

وهى أيضا تغنى

أنت منى.. أنت منى!

●●●

إليها منذ كانت وتكون

يا زفرة فى حنايا أضلعى

كونى معى

حيث أذهب أو أكون

كونى معى

لست أبغى العيش

هل تسمعين.. اسمعى

لا تتركينى أواجه هلعى

الحب.. ما الحب؟ الحب أنت

.. وأنت معى!

الناس عندى أنت

الزهر عندى أنت

الدنيا كلها أنت

حيث أنت أكون

ولكى أكون، كونى.. معى!

يا ابتسامة حبى، يا أدمعى!

●●●

إليها وهى عندى، فى مقلتى

أرى الدنيا، لا سواها

وسواها لن يسد وحدتى

ولست إلا بها، إلا لها

يا متعتى، يا بسمتى، يا محنتى

ما تكونين كونى

لكن الزمى قلبى، تريعى

تهوين ما تهوين، لكن.. معى!

فأنت أملى، عملى، قدرى.

أرضى ، سمائى..

خبز أيامى

زوجتى.. أختى.. رفيقة عمرى

شدتى.. أو بسمتى

يا حبا لن يموت

يا مداد لن يجف

يا رفيق الروح فى مهجتى

.. وخلوتى ومقلتى.

●●●

وتمضى الرسالة أيها الصديق، رائعة، تفرغ فيها دمعك، وتعاهدها على الموقف الذى اتخذته من الحياة بعدها.

أنت لها. أعلم أنك لها ، وأنك لن تكون لسواها.

أعلم هذا يا صديقى مختار، وأحترمه وأقدره كذلك.

لقد بررت بوعدك فى صمت. لم تتزوج، ولم تهف نفسك أبدا لامرأة.. أبدا. اكتفيت بالتى معك، تتصورها حية وتعيش معها كما يعيش زوجان.

وتقول بعد ذلك أنك مستقل!!

أنت مستقل يا مختار؟!

أى استقلال ذاك؟

●●●

أو تذكر؟

أو تذكر كلماتك يا صديق عمرى، وأنت تتطاول متحديا كل حديث عن الزواج، وتتطاول كذلك متحديا كل حديث عن العزوبة!!

لا تحب أن توصف بأنك أعزب، كما لا تحب أن توصم - كما تقول - بأنك زوج، ولك أسرة!

لماذا تهرب من الموقفين جميعا يا مختار؟

أنا أعلم أنك لن تجيب، لكنى أعرف الجواب.

أنت متزوج يا مختار. أنت زوج ولك زوجة. وأنت يا مختار تقدس حياتك الزوجية، ولا تعرضها لأى مساس!!

غريبة!! سيقول الناس عنك أنك مجنون لو قلت لهم هذا، وسيعتبرونك تلقى الكلام على مواهنه أيها الشاعر. اذاً لتكن شيئا آخر. لكنك لا ترضى بكلمة أعزب. أبدا، ولا يجوز أن توصف بأنك أعزب، لأنك لا تشعر بالفعل أنك أعزب!!

واخترت يا صديقى موقفا خاصا بك. خاصا بك وحدك. مستقل. أنا مستقل!!

ولكى تخيل للناس أن تلك حقيقة، فلا بأس من أن تلبسها ثوب الواقع، فتدعى أنك لن تسمح لواحدة بأن تقتحم عليك حياتك!!

وأنا وحدى يا مختار الذى أعرف حقيقة مشاعرك. أنا أعلم أنك تحيا مع نازك هانم، وتعاشرها كما لو كانت زوجتك. وتشعر أنك مرتبط بها، مثلما أنا مرتبط بسميحة. يجب أن تعود إليها، وأن تضع نفسك فى خدمتها، وأن تؤدى واجبك نحوها.

وتذكر يا مختار، يوم كنا معا فى رحلة حددنا لها أسبوعا؟

كانت الرحلة رائعة. كانَ كل شئ يغرى بمدها بضعة أيام.

لكنك رفضت أنْ تطول الرحلة عما حددناه لها. وعندما قلت لك أنى اتصلت بسميحة، وأنها وافقت، قلت لى فى برود شديد : أنت اتصلت بسميحة ، وهذا شأنك، أما أنا فعلى التزام آخر.

وقلت لك، من فرط شعورى بلذة المكان جميعا : أنا لا أطالبك بأن تتحلل من التزامك، ولكنك تستطيع أن تؤجله بضعة أيام.

عندئذ ثرت على يا صديقة ثورة جامحة شديدة، ورفضت الإنصات إلى، وتركتنى وانصرفت ترتب حقيبتك لتعود فى الموعد الذى حددناه قبل أن تبدأ الرحلة!

أنا الزوج، صاحب الأسرة والالتزامات، وأبو العفريت الشقى العربيد حسن، استطعت أن أؤجل الرحلة بضعة أيام، وأنت.. ماذا أقول؟. الأعزب؟ أم المستقل؟ أنت على أى وضع تريد، لم تستطع، أو لم ترض!! لماذا يا مختار؟!

●●●

وهل تذكر يوم كنا معا ذات يوم، وكانت سميحة عند أمها، وقلت لك ونحن على وشك أن نفترق للغداء :

ـ آه نسيت أن أقول لك أنى اليوم أعزب.

ـ يا رجل عيب. وسميحة؟

ـ عند أمها اليوم.ستقضى اليوم فى المرج.

ـ مسكين يا أعزب.

ـ مسكين!! الحر مسكين؟! المستقل مسكين؟!

ـ عندما لا يعرف الحر قيمة الحرية يصبح مسكينا.

ـ من فضلك. لا داعى لطول اللسان.

ـ ضايقتك؟ كلامى ضايقك؟

ـ جدا .. وأهاننى كذلك.

ـ لماذا يا مراد؟

ـ لأنك تتهمنى بأنى لم أعد أعرف قيمة الحرية.

ـ الحرية المنزلية أعنى. حرية التحلل من الالتزام بالأسرة.

ـ الحرية لا تتجزأ.

- تعنى أن الحر يكون حرا أبدا، وعلى الإطلاق؟

- والعبد يكون عبدا على الدوام مهما ادعى الحرية فى بعض مواقفه.

- وهل يجوز أن أكون كاتبا حرا وزوجا مقيدا بالأغلال؟

- لا.. مستحيل.

- بل.. ممكن.

- أرنى حالة.

- أنت.

- أنا مقيد بالأغلال!

- ومكبل.. فى الحديد.

- الله يسامحك.

- أنت زوج مخلص ومستقيم.

- والإخلاص استعباد؟

- نعم. الإخلاص صفة، تصبح عندما تمارس عادة، وهى قطعا تصبح قيدا على الحرية تصل إلى هذه الدرجة.

- لكن القيد ليس استعبادا.

- عندما يشتد يصبح استعبادا.

ـ ولكى نكون أحرارا؟

ـ نحطم كل قيد.

ـ حتى الفضائل..

ـ هذا هو المفهوم الحرفى للحرية.

ـ تعنى الفوضى.

ـ ليكن اسمها ما تشاء.

ـ فإن قيدنا الفوضى، لينتظم المجتمع.

ـ لا اعتراض على شئ من هذا، وانما المهم أن نتعارف على أن القيد على الحرية، لا يكفل أن تكون هذه الحرية كاملة.

ـ والقانون الذى ينظم شئون الناس؟

ـ قيد.

ـ ويتنافى مع الحرية.

ـ قد ينظمها ، لكنه قيد.

ـ والذين يحترمون القانون؟

ـ كالذين يحترمون الزواج مثلك.

ـ أحرار هم أم عبيد؟

ـ فى دائرة القيد المفروض عليهم، عبيد.

ـ وهل يكون العبيد فى حالة، أحرارا فى حالة أخرى؟

ـ جائز.

ـ وتجتمع فى شخص واحد الحرية والاستعباد؟

ـ ولم لا؟

ـ ولماذا لا يكون القانون تأكيدا للحرية؟

ـ القانون يأخذ من كل واحد شيئا، ليوفر شيئا للجميع.

ـ وعندما يتوفر هذا الشئ للجميع، فهذا تأكيد لملكية الناس لشئ يشتركون فيه.

ـ صحيح، لكن على كل فرد أن يدرك أنه فقد شيئا.

ـ ليعود عليه من خلال الجماعة.

ـ ليكن.

ـ إذن فقد الفرد حرية تشكيله لهذا الشئ.

ـ وضرورة تنظيم المجتمع.

ـ واجب يحتمه التطور.

ـ والواجب حرية.

ـ ليس بالضرورة ذلك. لكنه واجب.

- ماذا تريد؟ نترك الناس فوضى بلا ضابط؟

- بل أحرارا يشكلون حياتهم بالصورة التى يريدونها.

●●●

وأخيرا ظل كل منا محتفظا برأيه، ولقد أنهيت المناقشة، قائلا لك إنى ذاهب معك، لأتغدى عندك، وأستريح حتى المساء، ثم نعود إلى مكاتبنا، اذا أردنا، أو أعود أنا لامرأتى وابنى.

عندئذ تاهت نظراتك عنى يا مختار.

وشردت بعيدا ، قبل أن تجيب. ولما أجبت، خرجت أجابتك مترددة، كأنما تراجع نفسك!

وصدقنى يا مختار أنى عجبت لموقفك أشد العجب.

أنا يا مختار مراد صديقك، وأخوك. فيم كان شرودك، وفيم كان ترددك؟ وهل أحتاج إلى استئذان لأزورك؟

على أن الموقف لم يطل بنا فاتجهنا إلى مسكنك، وكنت لا تزال شاردا عنى، حتى أنى هممت بأن أعتذر لك، عن دعوة نفسى عندك؟

وكان الشئ الذى تردد فى ذهنى، أنك ربما تكون قد استضفت صديقة مثلا.

وقلت : ولم لا؟ أنت رجل غير مرتبط بأحد، وقد تكون هذه حياتك.

لكنى عدت أرد على نفسى، بأنك ملتزم بذكرى نازك هانم وأن من المستحيل أن تفعل ما يفعله غيرك من الشبان العزاب.

وعلى كل حال، فقد وصلنا، وحاولت أن تسبقنى إلى الدخول، فلم تفلح، ودخلنا معا.

كانت المائدة معدة، والخادم الذى عندك قد تأهب لتقديم الغداء.

ولاحظت أن المائدة مهيأة لاثنين!

قلت لك :

- أكنت تنتظر أن أحضر معك؟ أم كنت تنتظر شخصا آخر؟

ولما لم ترد، وجهت السؤال إلى خادمك، وكان يعرف بطبيعة الحال علاقتى بك.

قلت له :

- مين يا عثمان كان جاى لكم؟

وقال عثمان :

مفيش حد. إحنا دائما كده يا بيه!

●●●

"دائما كده"! ماذا يعنى عثمان؟

ونظرت إليك، فوجدت علامة تحذير، حتى لا أقترب من المنطقة المحرمة لديك.

وعندما جلست فى المكان الثانى، أزحتنى عنه بلطف، وقلت لى :

بل هناك. الولد لم ينظف هذه الأطباق تماما. هناك ليأتيك بأطباق نظيفة.

وظلت الأطباق الأخرى كما هى، فى مكانها منك.

ودارت رأسى من العجب، ولم أستطع تفسير ذلك، إلى أن أتى الخادم بالطعام، فإذا به يضع بعضا منه فى المكان الخالى!

ونظرت إليه تؤنبه، فرفعه!

●●●

وفهمت كل شئ.

إنها تعيش معك.

نازك هانم تعيش معك، وهذا مكانها على المائدة.

أنت يا مختار لا تأكل إلا معها، ولا تتناول من أصناف الطعام إلا ما تحبه، ولا تسمح لأحد بأن يحتل مكانها من المائدة، أو من حياتك.

●●●

وتقول يا مختار أنك حر. مستقل وحر!

أين هذا الاستقلال يا مختار؟

أين محافظتك على حريتك؟

وهذا القيد الذى تضعه حول يديك. ألا يؤثر على حريتك؟

أنت إذاً لست حرا يا صديقى.

وليس فينا من هو حر، حرية مطلقة.

حتى الذين لا يتزوجون ليسوا أحرارا.

الرغبة قيد، والشهوة قيد، والنزوة أيضا قيد.

بل الجوع قيد، والعطش قيد، وحب المسكن قيد والبحث

عن العلم أيضا قيد.

أين الحرية؟

أين الأحرار؟

حتى هذا البدن الذى تحتله أرواحنا قيد! يمرض فيستعبده الداء. ويشفى فتبطره الصحة إلى حد الاستعباد!

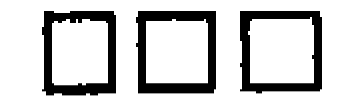
كل شئ فى حياة البشر قيد.

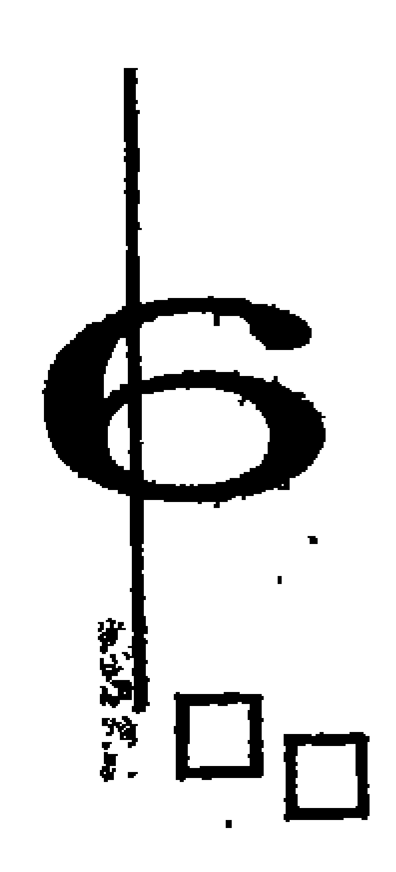
والقيد والقيد والقيد يصبح سجنا.

وحول السجن يقف الحراس، وتوضع الأسلاك الشائكة.

ولا تصبح هناك حرية، إلا حرية فنان يتخيل.

يحلم بالحرية، والعدل، وكرامة نفس الانسان، وحماية حق الرافض فى أن يرفض. يحلم بالحب، وخيال أوسع وأمتع، يحلم، يحلم، يحلم.. ويظن الحلم حقيقة.





..لكن دعنى يا حسن، مع هذا الصديق العظيم بعض الوقت، وأعدك أن أعود إليك ، عندما أفرغ منه، لأنفخ لك بالونة كبيرة حمراء.

وابتسم حسن، وهو يقبلنى، انتظارا لأن أبر له بهذا الوعد. وها أنذا، وشارلى شابلن وحدنا.

سميحة مشغولة بشئون البيت، وحسن مشغول بانتظارى لأفرغ له، وأنا مشغول بشارلى العظيم.

ما أبرع الرجل، وهو يصدق مع نفسه، ويروى لحظات فشله، قبل أن يروى لحظات انتصاره.

أنت فنان يا شارلى، والفنان لا يخفى نفسه، الفشل والنجاح لديه نهايتان تحددان أول الطريق وآخره.

والقصة طويلة، والطريق الذى سلكته أيها الصديق شاق.

وليس كل الناس قادرين على أن يتحملوا ما تحملته.

لكن الشئ الجميل فى الموضوع، أننا قادرون على استخراج كثير من الحكمة من بين غبار الطريق الطويل.

هأنتذا تصيح، يا أيها الفنان العظيم، تصيح فى صاحب فرقة كارنو، التى وثبت منها إلى أول طريق النجاح ،

«إن كل ما أطلبه هو الفرصة. امنحنى الفرصة، لتحكم على ».

كانت الفرصة مطلبك لتواجه جمهورك، ولتثبت قدرتك، فإن نجحت، مضيت، وإلا عدت تحاول مرة أخرى.

●●●

وعندما منحت الفرصة أيها العملاق، دخلت المسرح كما تقول بظهرك. كانت هذه فكرتك الخاصة، وكنت تبدو من الخلف فى البدلة الفراك والقبعة العالية والعصا، كأنك واحد من الأرستقراط، وأخذ الجمهور يراقبك، فلما أدرت لهم ظهرك، بأنفك الأحمر، قابلوا هذا التناقض بالضحك الطويل. وبهذا ارتبطت بالجمهور، وزالت الكلفة بينك وبينه وأخذت تصيح صيحات ميلودرامية، ثم أخذت تعبث بأصابعك ثم بالعصا، ثم بالقبعة، وضحكات الجمهور لا تتوقف، بل تزداد ارتفاعا، لترسم لك أول طريق النجاح.

●●●

هكذا كان شارلى شابلن العظيم يبحث عن فرصة.

وشرد مراد. ظل الكتاب تحت عينيه لكنه شرد عنه إلى بعيد.

●●●

آه...أنا أيضا أعرف واحدا ظل يبحث عن فرصة، فلما لم يجد إلا أن يستجديها مد يده كالسائل يطلبها. لكن الفرصة فى يده تحولت إلى خنجر، يطعن به الذين منحوها له!! وصارت الفرصة فى يده نقمة.. أو مقبرة، أو مجزرة..وفى النهاية ذبح بالخنجر المسموم.. نفسه!!

وأعرف واحدا آخر يا شارلى دخل المسرح مثلك بظهره!!

وكان مسرحه قصرا كبيرا قتل صاحبه ذات يوم، وظن هو أن دخوله على طريقتك، ينجيه من نحس القصر المنحوس. وكانت النتيجة واحدة فى الحالين. أنت أثرت ضحك النظارة، وهو أثار سخريتهم!!.

●●●

"عندما كنت فى السادسة عشرة، كانت فكرتى عن الرومانسية، مستوحاة من أحد الملصقات الخاصة

بالمسرح.وكان يمثل فتاة واقفة على شاطئ البحر، والريح تعبث بشعرها الطويل. وتخيلت نفسى ألعب معها الجولف، وأبثها عواطفى.. هذا كان تصورى للموقف الرومانسى. أما الحب. فقد كان شيئا يختلف : نظرة، بضع كلمات، وفى نفس الثانية يتغير طعم الحياة كلها، وتشعر أن الطبيعة تحيط المحبين بعطفها، ويكشف فجأة عن مفاتنها. وهذا ما حدث لى.

"كنت فى التاسعة عشرة، بعد أن صرت ممثلا كوميديا ناجحا فى فرقة كارنو، لكن شيئا ما كان راكدا فى حياتى. جاء الخريف ومضى، ثم أقبل الصيف ليجدنى فى فراغ. كانت حياتى اليومية روتينا جامدا، وكان العالم المحيط بى خاويا. ولم أكن أرى شيئا للمستقبل، إلا الأمور العادية، والناس العاديين. ولم يكن العمل كافيا ليشغل هذا الفراغ. وشعرت أنى أنمو على غير اقتناع بهذا الفراغ، ولم يكن أمامى إلا أن أمارس رياضة السير على الأقدام فى أيام الآحاد، أستمع إلى موسيقى الحدائق. وشعرت أنى أفقد حماستى للفرقة التى أعمل فيها ولأية فرقة أخرى. وبطبيعة الحال حدث الشئ الذى كان يجب أن يحدث. وقعت فى الحب".

وتروى أيها الصديق شارلى شابلن قصة حبك الأولى التى ملأت فراغ نفسك. وكيف قابلتها فى كواليس المسرح، وماذا دار بينكما من حديث. ثم كيف قابلتها بعد ذلك ظهر يوم أحد، وأين ذهبتما.

كل هذه التفصيلات الصغيرة، حرصت على أن تسجلها فى مذكراتك.. لم تكن صغيرة هذه الأشياء وقتما وقعت، ولم يكن تأثيرها عليك بسيطا.

وتمضى بك رحلة الحياة يا شارلى.

تذهب إلى باريس، وإلى نيويورك، وإلى روما، وتنتج أعمالك الخالدة، وتروى تفصيلات ما قابلته من عقبات فى بساطتك الطيبة.

وبعد أن تصبح نجم العالم وحديث الدنيا، والمثل الذى يتمنى كل ممثل أن يحتذيه، تختتم مذكراتك الرائعة، بعد خمسمائة صفحة مسجلا عليها بعض نفسك فى صدق، فتقول فى نهايتها:

" وعلى كل حال، فحياتى اليوم أكثر إثارة، أكثر مما كانت فى أى يوم مضى: صحتى جيدة، ولا زلت أنتج، ولدى خطط لمزيد من الأفلام، قد لا أنتجها بنفسي، وانما اكتبها

وأديرها لبعض أفراد أسرتى الذين أتجهوا هذا الاتجاه. وهناك أشياء أخرى كثيرة أحب أن أعملها، فإلى جوار إتمام بعض الأعمال السينمائية التى لا تزال ناقصة، عندى أمل أن أكتب مسرحية وأوبرا، إذا سمحت الظروف.

قال شابنهاور أن السعادة حالة سلبية، لكنى لا أوافقه، فقد عرفت خلال العشرين سنة الأخيرة، ماذا تعنى السعادة لقد أسعدنى حظى بالزواج من سيدة رائعة. ولكم أتمنى لو استطعت أن أكتب عن هذا أكثر من هذا الحديث، لولا أنه سيكون حديثا عن الحب، والحب الصادق، هو أجمل ما يصيب النفس بالارهاق، لأنه أكبر من أن يوصف. وما دمت أعيش مع أونا، فان ما فى طبعها من عمق وجمال، سيضيفان سعادة دائمة لى. وحتى عندما تسير بعيدا عنى على طول الممر الجانبى الضيق، فى بساطتها المترفعة، وجسمها الصغير يبدو مستقيما، وشعرها الفاحم الطويل يتراخى على كتفيها، تتخلله بعض خيوط الفضة، أشعر بموجة مفاجئة من الحب والاعجاب، وعندئذ أشعر بغصة فى حلقى.

وفى هذه السعادة، أجلس أحيانا فى الشرفة وقت غروب الشمس، وأتطلع إلى الخضرة الممتدة إلى حافة البحيرة، ثم

إلى الجبال بعدها، وفى هذه الحالة، لا أفكر فى شئ، إلا أن أستمتع بهذا الوجود الرائع البديع".

●●●

أنت ترى يا صديقى شارلى أن السعادة ليست حالة سلبية.

صحيح السعادة ليست حالة سلبية.. أبدا.

والذين يتصورون أنها حالة سلبية مرضى!

.. أنا سعيد.. اذاً، فانا راض عما أنا فيه. وعندما أكون راضيا عما أنا فيه، أستقبل كل شئ بالترحاب.

أحب الناس، وأحب الحب.

وأكره شرور البشر، وأكره أن يقتل الناس.

أحارب ليسود الخير بنفس الانسان، وأقاتل الذين يعتدون على حريته فى أن يحب، وأن ينتج، وأن يرتاح، وأن يغمض عينيه لينام فى أمان.

.. وأسير أناضل كل مريض بالحقد

... أكشف سوءات الغل

وأعيش أمنى النفس بيوم النصر

والنصر على الأعداء شئ ممكن

لكن النصر الأكبر، هو ذاك النصر على النفس..

.. على البغض الأسود

على المغلولين الكفار

على أعداء الأنسان.

على جرثومة نفس الشرير

يجز من الغيظ على ضرسه

إن لم يقتل أحداً،

.. يقتل نفسه!!

مسكين، بل مجنون هذا المسكين

ينسى يوما يأتى

ونفوذ المنصب قد زال

وعبيد المنصب قد ولوا

ويواجه وحده غضب الناس

يبكى وحده، يمشى وحده

يتلفت لا يجد سوى ظله!!

حتى من صنعوه، تركوه يصيح

ترتد إليه الصيحات ،

لعنات.. لعنات.. لعنات.

●●●

أنا معك يا شارلى.

السعادة ليست حالة سلبية، لكنها واقع ايجابى.

بل ربما كانت السعادة سلعة. وسلعة الحياة هى السعادة.

●●●

ودخلت سميحة تقول له :

- ألم تشبع بعد؟

-.. الشبع نهاية عمرى!

- يا ساتر. وتعيش العمر تجوع؟

- لأملأ حاجات حياتى.

- وما حاجات حياتك؟

- عقلى ينمو.

- ثم؟

- وقلبى ينمو.

- ثم؟

- وأنت.

- أنا.. وما ذنبى؟

- أنت إرادة هذا الجسم.

-.. الجسم فقط؟

- وبعض القلب.

- أقتسم القلب.. تظن؟ مع من؟

- لا تندفعى.

- أتحب سواى؟

- طبعا.

- وتصارحنى؟!

- وأصارحك...

- من تلك.. ما حبك؟

- فنى.. قلمى.

- تكذب..

- أبدا والله.

- هذا شئ لا أخشاه.

- حسنا.. القلب إذًا لكما.

- أما الجسم فلى وحدى.

- طبعا يا سكنى.

- ولم تشبع بعد؟

- مم؟. أشبع مم؟

- منى مثلا؟

- قلت الشبع نهاية عمرى.

- حتى منى؟

- منك، ومن كتبى، ومن قلمى.. بل من ولدى...

●●●

ويدخل حسن وهو يصيح يطالب بلعبته المفضلة.. البالونة يا بابا. أنت وعدتنى بالبالونة، وقلت أنها ستكون حمراء، وأنك ستنفخها.. جدا.

وقبل أن يجيب مراد، وقبل أن يفيق من كل ما كان فيه.. شارلى شابلن بمذكراته، والحديث عن سلبية السعادة بطلاوتها، والحوار مع سميحة بما يحويه من نداء، أو إغراء.

قبل أن يفيق من ذلك كله، ويتلفت إلى حسن، دخلت الخادمة الصغيرة تقول :

ـ واحد اسمه سماح

ـ ماله سماح؟

ـ "عاوز" حضرتك.

ـ حاضر يا ستى.. حاضر!!

ومضى مراد متثاقلا، ونظرات سميحة فى عينيه، ولفتات العربيد الصغير، تؤنبه! وهو مع هذا يردد : والبالونة يا بابا.. والبالونة.. البالونة!!

●●●

كان "سماح" قد أقبل يطلب منه مساعدة سريعة، وأخذ مراد يتأمل "سماح" ، وهو يعجب، ولولا أنه عنده فى منزله، لحدثه حديثا شديدا، ولما سمح له بأن يقتحم حياته على هذا النحو، دون تقدير لشئ.

لكن سماح مع هذا مضى. لم يحفل بلهجة مراد، ولم يهتم بما كان فيه من ضيق.

أكان يتجاهل؟ أم أنه لا يفطن بطبيعته لمثل هذه الاعتبارات؟

ونظر إليه مراد، وأخذ يسمع طلبه. هذه المساعدة التى لا تحتمل الانتظار، فيقتحم من أجلها حياة الناس، ويذهب إليهم فى بيوتهم دون تقدير لظروفهم.

قال مراد :

- خير إن شاء الله يا سماح.

قال سماح :

أريدك أن تقرأ معى هذه الخطبة.

قال مراد :

وما وجه العجلة فى هذا؟ ألا تنتظر؟

قال سماح :

أنت تعلم أنه يحسن للواحد أن يكون مستعدا .. أحسن! فى هذه الظروف الاستعداد المبكر.. أحسن!

وضحك مراد ساخرا وهو يقول له :

على رأيك.. الاستعداد المبكر.. أحسن! كل شئ مبكر. أحسن.

ونظر إليه فى اشمئزاز وهو يقول :

اتفضل.. اسمعنى.

وبدأ سماح يقرأ من ورقة كانت معه:

- سيداتى آنساتى سادتى...

وضحك مراد من قلبه، وهو يتصور سماح يخطب بحماسة مذيعى الراديو. وقال له :

- ولماذا كل هذا الطابور الطويل؟

قال سماح :

- كفكرى أباظة.

قال مراد :

- يا سلام!! طيب أكمل.

وأخذ سماح يقرأ كلاما عجيبا، لا تربطه رابطة ما، ولا يدل على معنى. كلام لا أول له، ولا نهاية. كلام مرصوص، كأنه منقول بالرسم! كأنما أتوا بواحد أمى، فنقل هذه الرسومات من جريدة مثلا، إلى هذا الورق.

وذكر ما كان يسمع من حكايات، عن الباشا الذى امتحنوه فى مجلس النواب فأحضروا له كتاب القراءة الرشيدة المصور، فلما رأى صورة الثعبان صاح : "حنش" هكذا معربا بالرفع!

وصاح ممتحنه فيه : يا باشا !!

وأصر الباشا على أن الكلمة "حنش"!

ثم قلب الممتحن صفحة أخرى من صفحات الكتاب فما أن رأى الباشا صورة لدجاجة حتى صاح : "فرخة" وأيضا نطقها بحماسة وبالضم الفصيح!!

وكانت صورة الأسد عند الباشا : "سبع"! وصورة الثعلب : "نمس"! وكلها كانت مرفوعة بصورة فصيحة!!

●●●

وضاق مراد ذرعا بما يسمع فصاح فى سماح!

- طيب كفى.. ماذا تريد؟

- تعجبك هذه الخطبة؟

- هذه قطعة من الشعر.

- لا لا يا شيخ. هذا نثر.

- يا سلام. و" ايش عرفك"؟!

- لأ.. لأ.. هذا شئ واضح.

- يا.. خى!!

- يظهر أنك غير راض.

- أنا..؟!

- نعم أنت.

- أنا وحدى؟

- طيب من أيضا.

- أنت مثلا راض؟

- أنا أظن.

- وإن بعض الظن أثم.

- طيب نصلحها.

- تصلح إيه وإلا إيه وإلا إيه.

- كما ترى.

- قل بصراحة. ما مناسبة الخطبة؟

- اجتماع الجمعية العمومية للشركة.

- وهذا مفروض أنه.. "إيه"؟

- توجيه عام لسياسة الشركة.

- بصفتك.. "إيه"؟

- الأمين العام.

- يا وعدى!! مرة واحدة.

- أصل الشركة.. ما أنت عارف.

- شركتكم: عارف.

- ماذا تقترح؟

- أكتب.. أكتب. أكتب وخلصنى، جاهز؟

- آ... اتفضل.

- بحق. متى ستلقيها؟ متى الجمعية؟

- غدا.. مساء.

- طيب اكتب.

●●●

وبدأ مراد يمليه وهو يكتب. وكان يتوقف فى بعض الأحيان عند الكلمات الغريبة عليه. ينطقها بطريقة مضحكة، فيصحح له طريقة نطقها، ثم يعيدها على مسامعه الكريمة.

وبعد أن فرغ من هذا، سمع حسن يدب بقدميه، وهو يصيح فى أمه:

ـ بابا سابنى وراح.

ـ بابا جاى يا حبيبى.

ـ هو فين؟

ـ معاه ضيف.

ـ وأنا مالى.

ـ عاوز البالونة؟

ـ حمراء ومنفوخة.

ـ طيب أصبر عليه شويه :

●●●

ونظر مراد إلى ضيفه، بعد أن طرقت الكلمات آذانهما.

وقال له :

ـ أظنك سمعت، الولد ينتظر، ومعه بالونة.. وهو لا يزال طفلا لا يستطيع أن ينفخها.

قال سماح فى سذاجة :

ـ وأنت تعرف تنفخها؟

قال مراد وهو يتطلع إليه :

ـ وأنت مش عارف إنى أنا اللى بنفخها؟

وضحك الأبله ضحكات صاخبة وهو يغادر المنزل!

●●●

وفى مساء اليوم التالى، كان مراد مشغولا بقصة يكتبها..

وكان بطل القصة يروى حدوتة، حلوة أو "ملتوتة" ، لكن حدوتة، لها حوادث وشخصيات وأماكن، وبطلها يدعى الشاطر حسن!!

حسن يا حسن!!

يا خولى الجنينة، ادلع يا حسن!!

والشاطر حسن!

والعربيد الشقى الذى ينام فيحلم بالبالونات، ويصحو فيبحث عن البالونات، ويريدها دائما منفوخة.. منفوخة جدا.

كله حسن!!

وحسن المنظر. وحسن المحيا! وحسن الشمائل!

وحسن السير والسلوك!

وحسن المعاشرة!

.. والحدوتة من غير حسن تصبح ثقيلة الظل وسمجة، وحسن فى الحدوتة، هو الولد الشاطر الشقى الذكى، الذى يفهمها وهى طائرة! والذى يأكلها والعة! والذى يلعب بالبيضة والحجر!!

حسن يا حسن!!

يا خولى الجنينة، ادلع يا حسن!

●●●

وأخذ بطل القصة يحكى الحدوتة.

وتردد مراد فى أن يضعها بلغة الحواديت.

وقد تبدو غريبة فى كتاب مطبوع أو صحيفة سيارة أو فى مجلة، حتى لو أنها تصدر سرية كالمنشورات.

لكنه وجد أن الحدوتة لا تروى بلغة ابن قتيبة، ولا بأسلوب زكى مبارك!

وتوكل مراد على الله، وترك بطل القصة يروى الحدوتة.

كان يا ما كان يا سعد يا إكرام.

ما يحلى الكلام إلا بالصلاة على النبى عليه السلام.

وحدوه! اسمعوا الحدوتة.

كان فيه ولد اسمه حسن. الشاطر حسن. وكان ابن السلطان.

وكبر حسن، وأصبح كالبدر ليلة التمام. وكان أبوه السلطان شديد الحب له والتعلق بيه. رباه تربية ملوك، ليخلفه على العرش، سلطان ابن سلطان.

لكن الفتى كان بيحلم بحاجات كتير قبل الحكم والسلطان. كان فيه سر عاوز يعرفه. كان بيشوف أبوه وعمه يختلوا ببعض ويتكلموا كتير كلام غريب. وفى بعض ساعات كانوا يعيطوا ولما يشوفوا حسن، يمسحوا عينيهم ويضحكوا. ليه يا حسن؟ مالهم يا حسن؟ ما كانش بيعرف حاجة. السلطانة أمه كانت بتخبى عليه. وكان الشاطر حسن يسألها:

- ليه السلطان بيكلم عمى كلام كتير حزين؟

- يا شاطر حسن أنا قلت لك كتير فيه حاجات ميصحش الأولاد الحلوين يعرفوها وهمه صغيرين.

- أمال إمتى يعرفوها يا جناب السلطانة؟

- لما يكبروا ويبقوا رجالة كبار يا شاطر حسن.

- بس أنا كان بدى أعرف يمكن أقدر أساعد السلطان.

ـ لما تكبر يا حسن، حتعرف وتعمل كل حاجة. مش انت حتبقى السلطان.

لا يا جناب السلطانة أنا عاوز السلطان يعيش كتير خالص ولا يموتش أبدا، ولا أنت كمان.

يا حبيبى يا شاطر حسن. ربنا يخليك انت كمان ؛ وتعيش متهنى.

●●●

وحاول الشاطر حسن مع هذا يعرف إيه اللى السلطان مخبيه عنه.

وكل ما كانت الأيام بتمر، كان السلطان بيزيد حزنه، وكمان عمه كان دائم البكاء والألم.

يا ربى فيه إيه؟ فيه إيه يا ربى؟

ولما جت الدادة تغطيه قبل ما ينام، لقت الشاطر حسن لسه بره فى الجنينة. وخافت عليه، فجريت تسأل عنه، لغاية ما جابته.

ليه تسهر بره يا شاطر حسن؟ إنت مش عارف إن الدنيا برد؟

برد والا حر يا دادة. أنا خلاص ما بقاش يهمنى حاجة.

ليه يا شاطر حسن؟ دا أنت ابن السلطان.

يا ريتنى أموت يا دادة.

وانزعجت الدادة لهذا الكلام، وأمسكت بالشاطر حسن من إيديه، وباسته فى عنيه، وطبطبت عليه، وسمت عليه، ودعت له ربنا يبعد عنه السوء.

ليه يا شاطر حسن تقول كده؟ كلنا يا شاطر حسن فداك.

ليه السلطان بيخبى عليه؟ ليه بيستصبغرنى؟ ليه يادادة؟

بيخبى عليك إيه يا شاطر حسن؟

السر اللى بيكلم عمى عنه.

سر إيه؟

السر اللى يخليهم يوشوشوا بعض وفى بعض ساعات يعيطوا.

لا يا شاطر حسن إياك تتدخل فى عمل السلطان هوه اللى يقرر يقولك والا لا، ويقولك إمتى؟

يعنى فيه سر يا دادة.

فيه سر، ما فيش سر. دا شغل السطان.

إنت كمان يا دادة بتخبى عليه. إنت كمان معاهم.

يا شاطر حسن إوعى تتكلم عن حاجة زى دي لحد.

لو كان ما فيش حاجة، أمال خايفين ليه أتكلم؟

مين همه اللى خايفين.

كلكم... حتى إنت يا دادة.

●●●

الشاطر حسن كمان بقى زيهم حزين وشارد.

يدولوا يأكل، يرجع الأكل زى ما هوه؟!

نفسى مسدودة يا ناس. آكل ازاى؟!

يدولوا يشرب، يرجع الميه بالماورد من غير ما يدوقها.

نفسى مسدودة يا ناس. أشرب ازاى؟!

وطول النهار فى الجنينة أو فى الغيط، بيكلم الشجر والزهور والنخل، ويسأل القمح والذرة، ويطبطب على الغزلان ويلاعب الخيل، ويسأل كل حاجة يقابلها!

مين فيكو يقول لى على السر؟

مين فيكو يعرف السر؟

لكن كل الحاجات كانت صامتة، لا تتكلم ولا بتجاوب.

تعمل إيه يا حسن؟ تعرف إزاى يا حسن؟

وقعد حسن يناجى الشجر، ويتكلم مع الطيور وحده.

ليه السلطان زعلان؟ وليه بيدارى عنى؟

وعمى ليه مهموم، ودموعه على خده بتجرى؟

وليه السلطانة مش عاوزة تقول لى؟

ولا الدادة، ولا الحراس، ولا السياس، ولا القاضى!

وحتى الطبيعة اللى حواليه مش عاوزة تتكلم.

أعرف منين يا ربى؟ أعرف منين سرى وحكايتى؟

ساعدنى يا ربى.. ساعدنى على اللى أنا فيه.

●●●

وزهق حسن، ويئس حسن من عيشته ومن نفسه.

وإيه لزوم السلطنة إذا كان السلطان حزين وبيعيط؟

وإيه الداعي لكل ده إذا كان سلطان المدينة مش قادر يسعد نفسه؟ حيسعد الناس ازاى وهوه مهموم؟

واذا كنت يا حسن حتورث الهم ده، يبقى أحسن تشوف لك شغلة تانية أحسن.

الحطاب اللى هناك ده أسعد من السلطان. بيعرق لكن العرق أحسن من الدموع.

والجزار أسعد، والجناينى أسعد. كلهم بيشتغلوا وبيتعبوا لكنهم فى الآخر بيرجعوا بيوتهم يضحكوا مع أولادهم.

سلطان إيه وبتاع إيه، اذا كانت حياة السلطان دموع وأحزان ومواجع؟

سيبك يا حسن، وشوف لك شغلة تانية أحسن.

●●●

كان الشاطر حسن قاعد فوق شجرة صفصاف، فروعها مدلدلة زى شعور الحسان. وكانت الدنيا طراوة، وكانت حواليه عصافير كتير وكروان. وكل حاجة كانت حلوة، الشاطر حسن وحده اللى كان مسكين.

وضعبت عليه نفسه، وهوه فى وسط طبيعة حلوة وهنية، فسالت دموعه على خديه. سقطت دمعة، على خد أمنا العجوزة، واللى كانت ساعتها نايمة تحت الصفصافة تتمتع بالطراوة الحلوة، والشاطر حسن من همه ما كانش شايفها.

وصحيت أمنا العجوزة وفتحت عينيها واستغربت!

الشاطر حسن؟ مش معقول!

ليه مش معقول؟

الشـــاطـر حــسن مـكانه ســراية السلطان، بين الحـــرس والخدم والحاشية والأتبـاع، مش فـوق شـجـرة صـفـصـاف زى أولاد الفلاحين.

والله يا أمـه العـجـوزة مـا انـت عـارفـة. الشـاطـر حـسن هـو أبأس إنسـان على وجـه الأرض. الشـاطـر حـسن تعبـان يا أمـه العجوزة، بائس ومسكين.

بعد الشر عنك يا ابن السلطان.

كتر خيرك على الدعوات، لكن عمـر الدعـوات مـا شـالت البؤس من قلب مليان بالدموع.

يا بنى إنت ابن إمتى علشان تقول كده؟

أنا خلاص عجزت يا أمه العجوزة.

تكونش يا ابنى بتحب؟

بحب!! دا إنت رايقة يا أمة العجوزة.

ليه؟ دا أنت شاب.

وحا احب مين يا أمة العجوزة.

أى واحدة أبوك يجيبها لك. دا أنت الشاطر حسن وكل بنت تتمناك.

يا أمة العجوزة سيبينى فى حالى. آل أحب آل.

عرفت. إنت بتحب هنا بنت عمك.

●●●

وقفز الشاطر حسن إلى الأرض. قلبه خفق ودمه غلى. وبقى مش عارف يقول إيه.

بنت عمى! أنا ليه بنت عم.. أنا ماليش حد إلا السلطان أبويه، وعمى الحزين، وأمى السلطانة.

لأ يا شاطر حسن، لك هنا بنت عمك.

هنا مين؟

اللى خطفوها الغيلان.

إمتى؟

من زمان.

وراحوا بيها فين؟

راحوا بلاد الغيلان.

يعملوا بيها إيه؟

والله ما أنا عارفة يا ابنى يعملوا بيها إيه؟ قالوا كبير الغيلان عاوز يتجوزها، فخطفها وطار يتجوزها هناك. وقالوا دا تار بايت بين أبوك السلطان والغيلان، فحبوا يغيظوه.. خطفوها عشان يذلوه.

وعمى عمل إيه؟

عمك يعمل إيه؟ إذا كان أبوك السلطان مقدرش يعمل حاجة، عمك حيعمل إيه؟

وبعدين يا امة العجوزة؟

إنت يا حسن اللى تجيبها.

إزاى يا امة العجوزة؟

حتقول لى أنا إزاى، أنت شباب، وقادر.

لكن أعرف راحوا بيها فين ازاى؟

أهى دى أقول لك عليها.

أرجوك يا امة العجوزة.

لما تنوى تسافر، وتحزم أمرك، وتوضب نفسك، أنا حديلك كورة صغيرة تحدفها وتجرى وراها، تحدفها وتجرى وراها. هيه حتدخل لغاية جبل الغيلان. وهناك بقه تلاقيها، وتحارب اللى ذلوا أبوك السلطان، وترجع هنا بنت عمك.

طب هاتى الكورة.

لأ.. لما تستعد يا شاطر حسن.

بايه؟ أستعد بايه؟

بالزاد والزواد.

خلاص أستعد. من بكرة أستعد.

يا شاطر حسن.. بكره ده يبقى كلام ناس صغيرين. وانت اسم الله عليك بقيت راجل.

أمال ايه؟

دا مشوار طويل وخطير. دا أنت حتسافر أيام وليالى. وحتعدى بحر وتمشى صحارى وتطلع جبال، وتقابل وحوش وسحالى وتعابين. هيه دى شوية؟

طيب وإيه المطلوب؟

رجالة.. محتاج لرجالة معاك.واحد يوضب الركايب، وواحد يوضب الأكل، وواحد يحرس التموين، وواحد يسبق ويشوف، وواحد يتولى الحراسة والسلاح، وواحد يتولى الترفية عنكم فى السكة، وواحد يجيب لكم الأخبار.. وحاجات وحاجات، وناس وناس.. انت عاوز تجريدة كبيرة

تحوجها كويس، وتسير على بركة الله.. وتسير على بركة الله.

خلاص أعمل كده.

وأبوك يوافقك؟

يوافق ما يوافقش دى مسألة شرف، بنت عمى هيه شرفى.

وكمان إيه. دى لهطة قشطة. حلوة.. أحلى من البدر ليلة تمامه.. حلوة وعاقلة وتسوى الواحد يموت من أجلها. يا سلام لو ترجعها.

دا أنا لازم أرجعها يا أمه العجوزة.

وتتجوزها.

لو رضيت.

ومترضاش ازاى؟ ما تتجوز اللى يرجعها لأهلها ولناسها؟

المهم ترجع تانى.

ربنا معاك يا شاطر حسن.

وإمتى آخد الكورة؟

لما ترتب كل حاجتك.

والكورة متغلطش؟

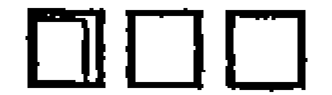
عيب يا شاطر حسن. دى كورة مسحورة.

طيب يا أمه العجوزة.

وجرى الشاطر حسن. مارضيش يقف لحظة. كان عاوز يرتب حملة عشان يروح جبل الغيلان، ينقذ بنت عمه "هنا".

جري وأمنا العجوزة بتبص عليه وبتدعى له.

ربنا معاك. دى "هنا" بنتنا كلنا. بنتنا كلنا.



7

وسمع مراد صوت حسن يناديه.

.. وابتسم، فقد كان يحكى الحدوتة عن الشاطر حسن.

حسن يا حسن.. وكاد يتم الأغنية، لولا أنه كان يريد أن يفرغ من الحدوتة، ليبنى عليها بعد ذلك قصته.

البالونة.. عاوز البالونة.

ما كانت معاك بالونة..

فرقعت يا ماما.

وليه فرقعتها؟

هيه بتفرقع لوحدها.

لأ لأ.. هوه فيه حاجة تفرقع لوحدها يا شقى؟

البالونة يا ماما.

إزاى يا عفريت؟

أصلها هوا. منفوخة هوا.

والهوا عيبه إيه؟

مفيش يا ماما. إنما هوا.

وعاوز إيه؟

البالونة يا ماما. عاوز بابا ينفخها لى.

بابا مش فاضى ينفخ حاجة!

ليه.. هوه ينفخ حاجة ثانية؟

لأ.. دا بيكتب..

بيكتب بالونة؟!

●●●

واستغرق مراد فى ضحك طويل متواصل، وهو منفرد بنفسه.

الحوار الطريف الذى سمعه، حمله على هذا الضحك، لكنه سريعا ما عاد إلى ورقه يتمم حدوتة الشاطر حسن.

قال لنفسه : أنا بين حسنين.. حسن العربيد، والشاطر حسن!

ومضى يتم الحدوتة.

●●●

الشاطر حسن ما كدبش خبر. من ساعة ما أمه العجوزة قالت له الحكاية، وهوه سرحان بيفكر. ومبقاش حزين، ولا يائس.. أبدا. إنما أخذ يفكر إزاى يرجع بنت عمه.. "هنا" الجميلة، لهطة القشطة.

بنت عمه يخطفوها وهو حى! يادى الندامة يا أولاد!

يعمل إيه؟ يعمل إيه؟

يا ترى يرتب أموره فى السر، ويخرج بتجريده فى السر؟ لكن دا مش ممكن. أبوه السلطان يقول إيه؟ وعمه وأمه؟ يهرب منهم إزاى؟ إذا كان أبوه وعمه حزانى على طول من الحكاية دى، فإزاى حيقابلوا هروبه هوه كمان؟ دى حتبقى محزنة وحيعيطوا بدل الدموع دم!

لا يا حسن.. لأ.. لازم يعرفوا، وبصراحة تطلب منهم اللى أنت محتاج إليه.

وراح حسن للسلطانة أمه وقالها!

يا أمى السلطانة وضبى لى زادى وزوادى. أحسن أنا رايح بلاد غير بلادى.

قالت له السلطانة أمه :

رايح فين يا شاطر حسن. تصطاد غزلان.

قال لها وهو بيضحك :

- ولا حيتان.

قالت له السلطانة.

أمال إيه يا شاطر حسن.

قال الشاطر حسن لأمه السلطانة :

أجيب "هنا" بنت عمى، من جبال الغيلان.

السلطانة من خوفها على الشاطر حسن، ابنها الوحيد، وولى عهد السلطان، ومن رعبها من السكة والخطر صرخت وقالت له :

بتقول إيه يا شاطر حسن. عشان تروح ولا ترجعش؟

قال لها الشاطر حسن وهو يبكى :

أمال يا جناب السلطانة أعيش من غير شرف. أعيش وبنت عمى واخدينها عندهم، لاإحنا عارفين هيه فين، ولا أحوالها إيه؟ ولا عملوا فيها إيه؟ نعيش إزاى، وحتة منا فى إيديهم؟! نعيش إزاى وشرفنا مهان؟! وأبقى إزاى ابن السلطان ايه، وسلطان على إيه، إذا ما كانش يكون أول اللى يضحوا، وأول اللى عاوز الناس تبكى عليه، وتشفق عليه، وتطبطب عليه، أحسن يسيب كرسيه ويبقى رعية، ويخلى اللى يقدر يتسلطن يا جناب السلطانة. فاهمانى.

وأحس الشاطر حسن إن فيه إيد بتحسس على شعره. إيد بتمتد إليه من ورا، وبتطبطب عليه.أتارى أبوه السلطان كان سامعه، واستنى بعيد لغاية ما يكمل.

وخاف حسن وقال لنفسه لو ما وافقش هوه كمان، أنا حاهرب وأروح أحارب الغيلان. أموت أشرف من الذل اللى أنا فيه.

لكن تقدير حسن، ما كانش مضبوط، لأن السلطان أخذه فى حضنه وباسه وقال له كلام كتير حلو.

الله يخليك يا حسن ويوفقك. أهو ده اللى أنا كنت عاوز أسمعه منك أنا كبرت. وهمتى فترت، وسلاحى شاخ، وأملى أصبح فيك إنت ياحسن.و"هنا" بنت عمك هيه شرفنا كلنا. هيه كرامة بلادنا وعرضنا. هيه الحتة الضعيفة من قلبنا. هيه مصيرنا كلنا. بلدنا يا حسن عاشت كريمة على نفسها وعلى الناس. بلدنا اعتادت تمد إيدها للى عاوز واللى محتاج. بلدنا كانت بتدافع طول عمرها عن حقوق ضايعة، وعن ناس مظلومين، صارت إيه النهاردة من غير "هنا". صارت إيه، بعد ما لطخ الغيلان شرفها وداسوه يا حسن؟ آدى أنت شايف الدمعة ورا الدمعة نازلة على خد السلطان. والشهقة ورا الشهقة فى صدر السلطان. وهزيمة وراء

هزيمة فى حياة السلطان. وإيه تانى يا حسن. إحنا بناكل، لكن ذل؟ وبنشرب لكن سم! وبنلبس لكن بالدين! بالدين يا حسن!

اللقمة يا حسن بقت مرة، والعيشة بقت مرة، واتحولنا من شعب رافع رأسه فى السما، إلى شعب مطاطى رأسه عشان تمر الريح! يا سلام ياحسن علينا وعلى تاريخنا وعلى اللى نقدر نعمله! كتير. كتير جدا. إحنا لسه عايشين، لكن مغلوبين، منهارين، تعبانين، ومدغدغين! "هنا" بنت عمك راحت مننا. والمسألة مش مسألة "هنا". دى الكرامة والشرف، ورفع رأسنا أمام الناس كلها، من غير "هنا" احنا فى بلا.. بلا بيحطم حياتنا، وبيكسر نفوسنا، وبيضحك علينا العدو، وحتى الصديق مبقاش صديق. إيده عليت علينا من حاجتنا ليه، فأصبح يبص لنا، وهو مشفق، وهوه مش عارف يدارى موقفه! يا حسن إحنا فى مذلة، واللى حيخلصنا منها.. إنت يا حسن الشباب، والجيل الجديد، وفى ايديك تبذل همتك، وتنقذ شرف أسرتك، وترجع لنا "هنا" كريمة وسعيدة، تحكى للاجيال عن سفالة غيلان زمانا، وتحذر المخدوعين فى نواياهم، وتدى للكل درس، عشان يعتمدوا على الله ونفسهم.ونفسهم بس ياحسن، كل اللى بتشوفه ده، مش لنا. دا لهم همه. يعملوا كل حاجة وكل

حاجة لنفسهم. إحنا فرصة! إحنا ثغرة مفتوحة لمطامع لا تنتهى! واللى بيدافع، مخبى فى نفسه حاجة! واللى بيمد إيده، برضه فى نفسه حاجة! واحنا غلابة يا حسن! بنفكر فى "هنا"، وعشان "هيا" ما ترجع لنا، بنقبل أى حاجة كنا زمان رافضينها. بنأخذ أى لقمة وأى كلمة طيبة! بنسمع ونمد إيدنا نطلب حاجات من هناك ومن هنا. عاوزين حاجات ومحتاجات. عاوزين ننظم صفنا. عاوزين نناضل خصمنا.

وهمه مين؟ دول غيلان وقتلة. غيلان ما فيش فى قلوبهم رحمة ولا حنان، ولا إنسانية، ولا شئ يوفقهم هنا والا هنا. غيلان. بقول غيلان. تعرف الغول يا حسن؟ الغول دا وحش ياكل كل حاجة يلاقيها فى سكته. انسان أو نبات، أى وحش زيه يأكله برضه. يهد ويخرب بيوت الناس، ويجرى يشكى فى خبث ورزالة كأنه مضروب ومتهان وواخد علقة سخنة من مفترى! غيلان يا حسن، متخصصين فى الخراب، وصنعتهم يا حسن خراب البلاد، وذل العباد، وخطف البنات والمتنورين، قبل ما يدوا بلادهم حصيلة عقلهم! غيلان يا حسن! دول غيلان يا حسن، لا فى قلبهم رحمة، ولا عندهم انسانية، ولا يعرفوا شئ غير الدم. الدم..الدم وحده،

يشربوه ويسكروا. وساعة ما يسكر كلب منهم، شوف بقة يعمل إيه : كلام كتير يقوله ضدنا، والناس بتصدقه. غول وغالب يا حسن! وإحنا إيه. إنسانية؟ يعنى إيه فى وسط كله غيلان ياحسن! حق يبقى إيه فى غابة زى دى! عدل إيه وبتاع إيه، روحوا شوفوا قط غمضوه، دا إحنا ما صدقنا غلبنا وضربنا وخدنا "هنا" عندنا، يا نهار أسود! وتعيش عندكم؟! وتموت عندكم؟! وإحنا وشرفنا وتاريخنا وأهلنا نعمل إيه؟! ولا حدش يحارب يا حسن! كله كده. المنتصر هوه كده! الغيلان همه كده! عاوز تعيش زيهم، لازم تصير قدهم! تاكل لحوم البشر زى ما بيعملوا. تشرب الدم ولا تقرفش من حاجة زيهم! تهد، تفتك، تقتل تعمل اللى يعملوه! ويوم ما يعرفوا إنك بقيت زيهم، حيخافوا منك يا حسن! ويحترموا إرادتك، ويعملوا ألف حساب للولد اللى يقدر يهدهم ويفتك بهم، ويذل كبرياءهم.. كلهم كلهم إياك تصدق يا حسن إنه فيه حد غيرك حيعمل كده. إنت وبس، ودى بنت عمك إنت، ولا تهم حد غيرك، ولا حد فيهم عنده مشاعر نحوها! كلهم بيخدعوك، وبيستعملوك يا حسن.. يا حسن.. فوق لنفسك ياحسن. أنا خلاص انتهيت وإنت أمل كل البشر يا حسن. وإيه اللى أنت عاوزه يا حسن؟ زادك وزوادك ده جاهز يا حسن. البلد بلدك واعمل فيها ما تريد يا حسن. خذ اللى

تاخذه، اعمل كل حاجة انت ترى فيها المراد يا حسن. اقطع لسان الناس، وسد ودنهم، وافتح لهم عندك حساب. بس المهم تنتصر. تعرف إزاى تنتصر؟ دا هوه المهم. واعمل بقه كل اللى إنت عايزه يا حسن. الناس معاك كلهم، الناس معاك فى كل حاجة يا حسن. تقول لهم ما مفيش كلام، يصوموا عن أى كلمة يقولها وانبسط، تقول لهم ما فيش حتى طعام، حيقولوا حاضر يا حسن، بلاش نملا بطننا. تقول لهم أنا اللى وحدى أدى الأوامر هنا، واللى مش عاجبه حاحبسه أو حاشنقه، حيقولوا حاضر يا أفندى اعمل اللى تعمله! همه عايزين إيه؟ مرادهم إيه؟ الانتصار هو غايتهم يا حسن. هنا ترجع لهم، ودا هو حلمهم. اعمل بقة أى حاجة، وكل حاجة، وهمه راضيين، بس ترجع "هنا" لحضنهم. أى خسارة، الانتصار يعوضها. أى تضحية الانتصار يغطى عليها. المهم تنتصر. "هنا" لازم تعود يا حسن ، وساعتها اعمل بقى اللى إنت عايزه، والناس حتكون معاك، حتى اللى ماتوا أهلهم، واللى راحوا، واللى جاءوا، واللى نسيوا ازاى يقولوا رأيهم. كل ده حيتنسى، لو بس كانت ضربتك ضربة معلم، يعرف ازاى يسدد ضربته لخصمه وينتصر.

فاهم يا حسن. فاهم يا حسن.

وبص حسن بعدها لقى أبوه، السلطان أبوه، بيدفن وشه فى إيديه وينتحب! وبكاه كان مؤثر.. مؤثر إلى حد إن حسن شاركه فيه. السلطانة كمان بكت، وهيه شايفه جوزها وابنها محتارين.. ومحزونين، مليانين بالهم والغيظ والرغبة فى الانتقام عشان "هنا".

●●●

بعدها حسن جمع جماعته ولم لمته!

وقال لهم كلام صريح مفيهوش هزار، ياللا بينا نستعد. ياللا يا أولاد بلدنا ننتقم. نرجع شرفنا وبنتنا الحلوة، وندى الأعادى درس ميتنسيش.

كل واحد قال له ياللا يا شاطر حسن. ياللا بينا، أدى إحنا جنبك، ومستعدين للتضحية.

وبدأ حسن ينظم صفوفه. التجريدة كان لازم لها نظام وترتيب وحاجات كتير. نعمل إيه؟

- ولازم لنا الأول نطهر صفنا.

- طيب نطهر صفنا.

- واللى مش منا لازم يولوا ويسيبونا لوحدنا.

- طيب يولوا ويسيبونا يا حسن.

ـ وكمان يسيبوا كل شئ عندهم، مش يهزوا أرضنا، لما يمشوا بكل حاجة عندهم.

ـ طيب يا حسن، يسيبوا كل شئ، ويشحتوا.. بس ياللا.

ـ واللى منهم كان مفترى، نؤدبه.

ـ نؤدبه.. نحبسه حتى، ونخلص ونستعد.

ـ كمان دا وقت ميحتملش ضياع جهودنا فى الكتب والفلسفة.

ـ بلاش لا كتب ولا فلسفة.

ـ والفلاسفة يروحوا حتة تانية ويروقونا.

ـ يروحوا أى حتة، بس ياللا بقه نستعد.

ـ والأماكن اللى تفضى، شغلوها رجالتنا عشان ما نطمئن.

ـ رجالتنا مش يحاربوا يا حسن؟

ـ ما حنا برضه حنعوز حاجات للحرب منهم.

ـ ولما ننقص وتبقى بلوى.

ـ ومين يحمى صفوفنا والمدينة لوحدها.

ـ طيب يا حسن اعمل أى حاجة يا حسن، بس المهم فى النهاية ننتصر.

●●●

ويقه حسن مشغول ليل نهار، بيرتب صفوف الحملة اللى بيديرها. وبيرتب أمور البلد. وأبوه فى الحق سابه يعمل اللى هوه عاوزه، لا وقفه ولا حتى شار عليه.

ما كانش بيهمه أبدا، ولا عنده ثانية واحدة يكلم فيها حد. وكان لازم يرتب التجريدة تمام عشان يحقق الغرض ويعيد "هنا".

تعمل إيه يا حسن.. تعمل إيه؟

إنت محتاج لإيه يا حسن.. محتاج لايه؟

ومين يساعد فى إية.. مين؟

وحط حسن خطته.

نظيم يمسك قيادة التجريدة، لازم القيادة تكون فى إيد أمينة، ونظيم دا صاحبى، ولا يمكن يخونى.

وخلفاوى مسئول عن النظام. لازم النظام يستقر والناس تحس بالأمن والطمأنينة. لازم. لازم. أمال نحارب والناس خايفين؟!

أما سنسن، فده لازم يمسك الأخبار. هوه اللى يجمعها ويرتبها ويوضبها ويقول لى عليها أول بأول. مش لازم الواحد ينخدع لا فى حاجة ولا فى شخص. وسنسن ولد

تمام، عنده ناس كتير حواليه، يشغلهم ويكلفهم باللى أقوله عليه.

والجبار دا يمسك أشغالى، ويدير أشغال المدينة كمان. مكار وعقله واسع، ويعرف إزاى يرتب نفسه، ويرتب اللى حواليه، ويحط كل واحد فى مكانه.

يبقى فاضل ايه يا حسن؟ فاضل إيه؟

آه الترفيه عن أفراد التجريدة، وترتيب أوقات فراغهم، وده شئ مهم جدا، لازم نحط له واحد يكون كده يعنى عنده ذوق، ويحب الحاجات الحلوة.

مين يا حسن؟ يبقى مين؟.. يبقى مين؟

مفيش غيره. صفوت بيه!

والحاجات التانية يمسكها مين؟ مين يا حسن؟

لكن حسن قال أى واحد ميهمش، ما دام حطيت المهمين، وكلهم أصحابى، ومتربيين معايه، يبقى خلصنا. طبعا خلصنا.

●●●

ويدأ حسن يستعد.

كان لازم يجتمع بيهم كل يوم، ويشوف معاهم كل حاجة، لكن دا ماكانش ممكن، فسابهم يرتبوا نفسهم لغاية ما يقولوا له جاهزين يبقى يخرج لجبل الغيلان عشان يحارب ويقاتل، ويرجع "هنا" بنت عمه.

ومرت الأيام والاستعداد ماشى.

وكان لازم حسن يطهر صفوف المدينة عشان لما المعركة تبتدى.. تبتدى على نضيف. واشتغل سنسن حلو، وكمان خلفاوى. اللى حد يقول عليه حاجة يطير، واللى مش عاجبه ينفلق.

وجه سنسن لحسن يطالبه بحاجات كتير مطلوبة لوظيفته، وكمان خلفاوى انضم له.

وسابهم حسن يعملوا اللى يعملوه.

وقبض خلفاوى على ناس كتير، وسنسن وراه يقول له يعمل إيه، يعمل من غير كلام.

وأخينا الجبار ينظم ويرتب، ويوضب كل حاجة مطلوبة.

ونظيم كمان فتح له فاتوحة. ليه مينظمش التجريدة بتاعته كويس هوه كمان دول أهم حاجة، لأنهم همه اللى حيخرجوا إلى الجبل، يقابلوا الغيلان. وعمل نظيم ترتيبه،

وحط اللى حطه فى أركان التجريدة. والكبار شالهم عشان تعبانين.. وعيانين.

صفوت بيه كمان كان قايم قاعد عمال يوضب نفسه. المزيكة لازم تكون وتكون وطرزان لازم يصاحب التجريدة بحركاته وشجاعته. وكمان سبوع لازم يكون فى وش الغيلان. أمال؟ وحط ده هنا، وده هناك، وقعد يشيل ويحط، كل واحد فى حتة، فإذا ما عرفش حاجة فيها، شاله تانى، وحط غيره فى مكانه. وكان الحق، والحق لازم ينقال، بيتعب نفسه تمام. كان هوه بس اللى يقرأ الكلام، وهوه بس اللى يوضب الألحان، وهوه بس اللى يدرب النمور والغزلان، وهوه بس اللى يشيل ويحط، وياعينى لا بينام ولا بيرتاح، والناس سايبينه لوحده لغاية ما كان حيموت من الأشغال.

والشاطر حسن كان بيسأل كل واحد : عملت إيه؟ يقول له تمام.. تمام. مابيقاش بقه أحسن من ده الحال.

طيب إمتى يا رجاله نخرج بقه نقابل الغيلان.

كمان شويه يا شاطر حسن. شوية كمان..

ليه يا رجاله. دا احنا صنعتنا هيه بس الغيلان.

ما هو عشان ما نكسر شوكة الغيلان، لازم نقوى نفسنا فى الداخل. وعشان ما نقوى نفسنا فى الداخل، لازم نشيل

الداء من أجسامنا. وعشان ما نشيل الداء من أجسامنا، لازم نكشفه، أحسن نشيل مع الداء، حاجة مش هيه الداء، ونبقى ظلمة وكفا. وعشان ما نطشفه لازم لنا ناس وأجهزة، وعشان نشترى الأجهزة ونوظف الناس، لازم ضريبة، وعشان نفرض ضريبة لازم تكون عندنا موارد، وعشان تكون عندنا موارد، لازم نفتح مصادر رزق جديدة، وعشان ما نفتح مصادر رزق جديدة، لازم نعمر الأرض، وننشئ صناعة، وعشان ما نعمر الأرض، لازم نصلح مجرى النهر ونوضبه، وعشان ما ننشئ صناعة لازم لنا رأس مال، وعشان نوفر رأس المال لازم نصادر أموال الخونة والرجعيين، وعشان ما نصادر هذه الأموال، لازم لنا حراسة، وعشان ما يكون عندنا حراسة، لازم لنا حراسة تحرس الحراسة، وعشان حراسة الحراسة ما تطمئن، لازم لنا قوة نظام، وعشان قوة النظام تكون مرتاحة، محتاجة لقوة محاكم، وعشان المحاكم ما تبقى قادرة على عملها، لازم نشيل منها ناس ونحط ناس، وعشان ما نوضب المحاكم كويس، لازم الدعاية تكون كويسة، وعشان الدعاية تكون كويسة، لازم نفتح عنينا على خارج بلادنا كويس، وعشان ما نوصل لده لازم نحط رجالتنا فى الحتت

اللى بره، وعشان ما نحط رجالتنا فى كل مكان، لازم نعمل حسابنا نعوضهم فى التجريدة.

●●●

وتدور رأس حسن.. وتلف دماغه، وميعرفش رأسه من رجليه.

ويعرف ليه؟ حسن يعرف ليه؟

المهم نظيم يكون مطلق السراح، وخلفاوى محدش يرد له كلمة، وسنسن يعمل اللى هوه عاوزه، ويقدم لحسن الأخبار اللى تعجبه، واللى متعجبوش يرميها فى سلة المهملات.

وأهم من هذا أن الجبار يمشى منفوخ ومبسوط وعال العال، ويعمل اللى يعجبه، وهوه برضه عارف بيعمل إيه، وعارف إن التجريدة لازم تكون على أحسن حال.

وأخينا صفوت بيه، عينى عليه، كان نازل نزلة فى كل مكان. مفيش حد مبقاش يقرا كتبه، واللى ميقراهاش، يحبسوه! واللى ما يحبسهوش يرفدوه! أمال!!

وناس كتير تانيين، ملخومين ومشغولين. اللى عنده ده، وإلا ده، وإلا ده. مدرسة، أو مكنسة، تعمل قزاز أو غيط عنب، أو إيه وإلا إيه!! كلهم بيوصوا الساعة حسب الطلب!

حتى اللى مطلوب يحطوا الزينات جهزوهم. واللى لازم يهتفوا رتبوهم! واللى حيروحوا ورا التجريدة يشجعوا.. كلهم.. كلهم من غير كلام أصبحوا مستتيين! وليه لأ؟ التجريدة معروفة، ونتيجتها محددة! إحنا هنا مستتين المعركة. والانتصار أصبح قريب، ولا حد يقدر يقف فى سكتك، يالا يا حسن... برافو يا حسن. ويل يا جسن. اضرب يا حسن. إياك يخدعوك ويلعبوا لعبة تغير سكتك!

●●●

وصدق حسن. طبعا كان لازم يصدق. إداهم وقت كافى، وكان لازم يبتدى. حالا يبتدى.

وابتدأ. التجريدة خرجت يا ناس زغرتوا. وهيصوا. واستنوا أخبار طيبة. وبكره حتسمعوا إن الغيلان عزلوا. سابوا جبلهم وعزلوا.. راحوا حتة ميلاقوش فيها وحوش زينا. إحنا غيلان أكثر من الغيلان، وحتعرفوا.

النساء زغرتت : والعيال صوتت، والرجال وقفت تنادى تشجع ، وهى بتنادى : هنا. هنا لازم تعود لأهلها. هنا بنتنا، ولازم تعود. هنا.. ياهنا.

ومر يوم.. ولا فيش حس ولا خبر.

ومر يوم.. ولا حد قال حاجة ولا سنسن زف البشارة..

ومر يوم.. ونظيم كاتم ولا حد يعرف سر صمته.

ومر يوم.. وخلفاوى راخر لا بيبدى رأى ولا له كلمة.

الله.. وأنت يا صفوت بيه، يا أبو الأغانى كلها. فين مزازيكك يا حلو. فين؟

وجبار بلدنا جرى له إيه؟

وهنا أخبارها إيه؟

والغيلان هربوا، والا لسه حيهربوا!

●●●

حسن سمع وارتمى يبكى فى سره، كل اللى حصل.. الغيلان كلوهم كلهم. اللى مات ، واللى ضاع، واللى اتحبس وحسن ينادى : إيه حصل؟ لكن نداءه يعود اليه من غير بيان واللا حاجة توضح له الحقيقة.

قالوا : الغيلان ما كانوش وحدهم.

إزاى؟ مين كان معاهم؟

الدبابة والناموس والعقارب كانوا رخرين هناك.

يا سلام! وإنتوا لوحدكم؟

كنا لوحدنا مش معانا إلا بعض الجيران الطيبين وكانوا برضه زينا.

فى إيه.. زينا؟

فى كل حاجة، وكل كلمة.. لا عندهم تجريدة ولا يحزنون، لكن لسان طول الصاروخ، ولما يدخل معركة يسكت ويخرس، عشان ماحدش يسمعه!!

حسن يا ناس قاعد يعيط سمعته!

حسن ياهوه مش عارف يعمل إيه فى دنيته!

وقف وقال أنا اللى كان لازم ارتب كل حاجة. انما دول ضللونى، وفهمونى إنى رايح انتصر.. وأجيب هنا لبيت أهلها وأخلصها من أسرها.. ضللونى.. ضللونى!

وفى لحظة هزيمة، حب يمشى.

لكن ومين يأخذ على أكتافة المسئولية.

إنت تخلص ذمتك يا ولد.

وقعد حسن. لكن كان لابد يعرف إيه حصل، وإزاى حصل؟ هل خانوه؟ هل تواطئوا مع الغيلان؟ إزاى حصل كل ده، وفى ثانية واحدة؟! إزاى؟ إزاى؟

معلشى يا حسن. مرة ثانية اختار رجالك من الرجال، أما العيال أصحابك، فدول مش قد المسئولية. دول تلعب معاهم آه.. تتفسح معاهم.. آه. يضحكوك.. آه.. يفرفشوك.. آه!

لكن يحـاربوا.. إيه همـه مـين؟ يديروا مـدينتك.. هـم إيه؟ يتحملوا المسئولية.. دول صغار ياحسن. صغار يا حسن. آدى أنت شفت.

حسن كان بوده يعرف إية الحكاية.

وقـالوا له: ـ سـيبك من نظيم. رتب إنت وسـيب نظيم فى حاله، بعد كل اللى حصل.

ـ لكن كان ليه ده كله؟

ـ كان عنده شغل تانى.

ـ شغل إيه غير القيادة؟

ـ الدنيا حلوة واللى بيعيش، بيعيشها مرة..

ـ ويسيب سلاحه يحطموه؟

ـ طبعا يسيبه: يهمه ايه؟ هوه عاوز ينبسط.

ـ وأنا أروح منه فين؟

ـ روح مطرح ما انت عاوز.

ـ و «هنا» تروح لمين؟

●●●

ـ لكن حسن كان عاوز يعرف كل حاجة، على الأقل عشان متتكررش.

ـ قالوا له: طيب شوف صفوت بيه عمل ايه.

ـ عمل إيه راخر. دا كان فاسوخة,حلوة ومعطرة.

ـ لنفسه يا حسن..مش لحد تانى.

ـ يعنى ايه؟

ـ راجل أحس إنه صاحب عزبة خاصة.

ـ ياه..! عزبة.

ـ عزبة بس دا ورثها من زمان، وصار مالكها! مش بس العزبة، لكن أهلها كانوا خاضعين ولا حد منهم يقدر عليه.

ـ وبعدين.. حصل ايه؟

ـ كان بيعمل ما بدا له. صار مؤلف، وصار ملحن، واللى مش عاجبه، الباب بيقدر يخرج جمل بحاله.

ـ والناس رضيت؟

ـ تعمل إيه؟ وياكلوا إيه؟

ـ وهو يرضى؟

ـ دا كان بيشعر بكل لذة، لما يعذب أى واحد.

ـ وسكتوا له ليه؟

ـ عشان سيادتك. كان دايما يقول انك معاه، فى أى حاجة هوه عايزها.

ـ أنا.. أنا معاه فى الظلم.

ـ والغدر كان شئ يمارسه كل يوم وهو يضحك!

ـ وإيه كمان؟

ـ زى الحسان الحلوة. غيرته قاتلة.

ـ من إيه؟

ـ من أى حاجة يظن إنه عاوزها.

ـ طيب ومن مين؟

ـ من اللى يقدر يشتغل والناس تحبه.

ـ لكن ليه معرفتش.

ـ لأنك أنت عملت منه خيال كبير.

ـ أنا.. أنا اللى عملته؟

ـ طبعا، ولولا أنك فرضته فرضا، كان إيه جرى له؟

ـ كان إيه جرى له.

ـ دا خد شهادة!

ـ شهادة!! شهادة إيه؟

ـ شهادة فلاسفة، عشان ما يبقى زيهم!

●●●

حسن سمع الكلام ده كله، وثار على نفسه ، وعلى الناس، وقال لكل الناس اللى حواليه.

أنا دلوقتى بس عرفت. عرفت كل حاجة. دلوقتى بس عرفت إنى كنت غلطان، لكن اللى اتكسر يتصلح. لازم يتصلح أنا مش حعتمد على غير الله، والرجالة اللى بحق وحقيق. دول حشيلهم.. كلهم حشيلهم. لازم أشيلهم. لازم أجيب ناس يقدروا يتحملوا المسئولية. ناس يرجعوا هنا لبيتها ولاهلها. يحرروها من الغيلان اللى خطفوها فى الضلمة.

●●●

وسمع مراد وهو فى مكانه يكتب، عربدة حسن، وهو يصيح : بابا.. عاوز بالونة يا بابا. عاوز بالونة يا بابا.

ولم يرد مراد، فظل حسن يصيح :

- بابا فين يا ماما؟

- بابا بيكتب يا حبيبى.

- لكن أنا عاوزه ينفخ لى بالونة.

- حمرة برضه؟

- حمرة وحلوة. بس ينفخها خالص.

- لما يخلص يا حسن.

- وحيخلص امتى؟

- مش عارفه يا حسن.

وسكت حسن قليلا، ليعود مراد إلى الحدوتة يكملها. لكن صوت حسن ابنه ظل يطن فى أذنيه.

البالونة يا بابا. عاوز بالونة!

وعندما أراد أن يكتب نهاية للحدوتة، كانت لا تزال كلمات حسن تطن فى أذنيه فكتب ختاما ظل بعد ذلك يضحك منه إلى سنوات طوال.

لقد كتب مراد يقول:

أنا حطيت فى كل مكان بالونة.. بالونة حمرة ومنفوخة. بالونة هنا، وبالونة هنا، وبالونة هنا. وساعة الجد، بصيت ما

لقيتش البالونات. كلها فرقعت. كلها فرقعت. فرغت الهوا اللى فيها، وبقيت كل واحدة حتة كوتش حمراء.. مرمية على الأرض مقطعة وحالها حال. والهوا اللى فيها راح، والنفخة اللى فيها راحت، وتمسك ما تلقاش حاجة. كلها فرقعت. البالونات كلها فرقعت.

لكن ده مش ذنب حد. دا ذنبى أنا. كان لازم أعرف إن البالونات كده، منفوخة هوا.. منفوخة فراغ.. منفوخة، وجميلة، وتطير.. لكن لما تفرقع تضيع. تصبح إيه.. هوا زى ما كانت.

أنا عاوز ناس مش بالونات.

ناس متفرقعش زى البالونات.

ناس مليانة حاجة تانية غير الهوا والفراغ.

ناس لما تمسكها تلقى جواها حاجات. تلقى كرامة وعلم ومسئولية واحترام للنفس واحترام للوطن، واحترام للغير.

ناس تقدر ترجع «هنا» لبلدها ولناسها.

●●●

وأقفل مراد قلمه الحبر العتيق، الذى كان يستعمله وهو تلميذ، ولا يزال يستعمله، وهو كاتب محترف.

وأخذ ينظر إلى الورق مرة، وإلى القلم مرة.

أما الورق، فقد مر عليه بعينيه، وهو يهز رأسه حائرا.

هل يا ترى يقبل الناس هذه الصيغة فى حكاية الحدوتة؟

لكن هل كان لابد من حدوتة تبدأ بها القصة؟

وما عيب الحدوتة، وفى كل منا حدوتة سمعها من أمه أو جدته أو من قريبة من قريباته؟!

ولم مراد ورقه، وهو يقول لنفسه :

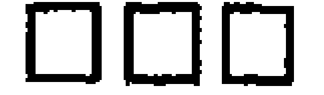
على كل حال، لا بأس من أن تكون الحدوتة ضمن البناء الفنى للقصة. هذا أحسن، لأنه سيجمع الحدوتة والقالب الفنى الذى اعتاد عليه الناس.

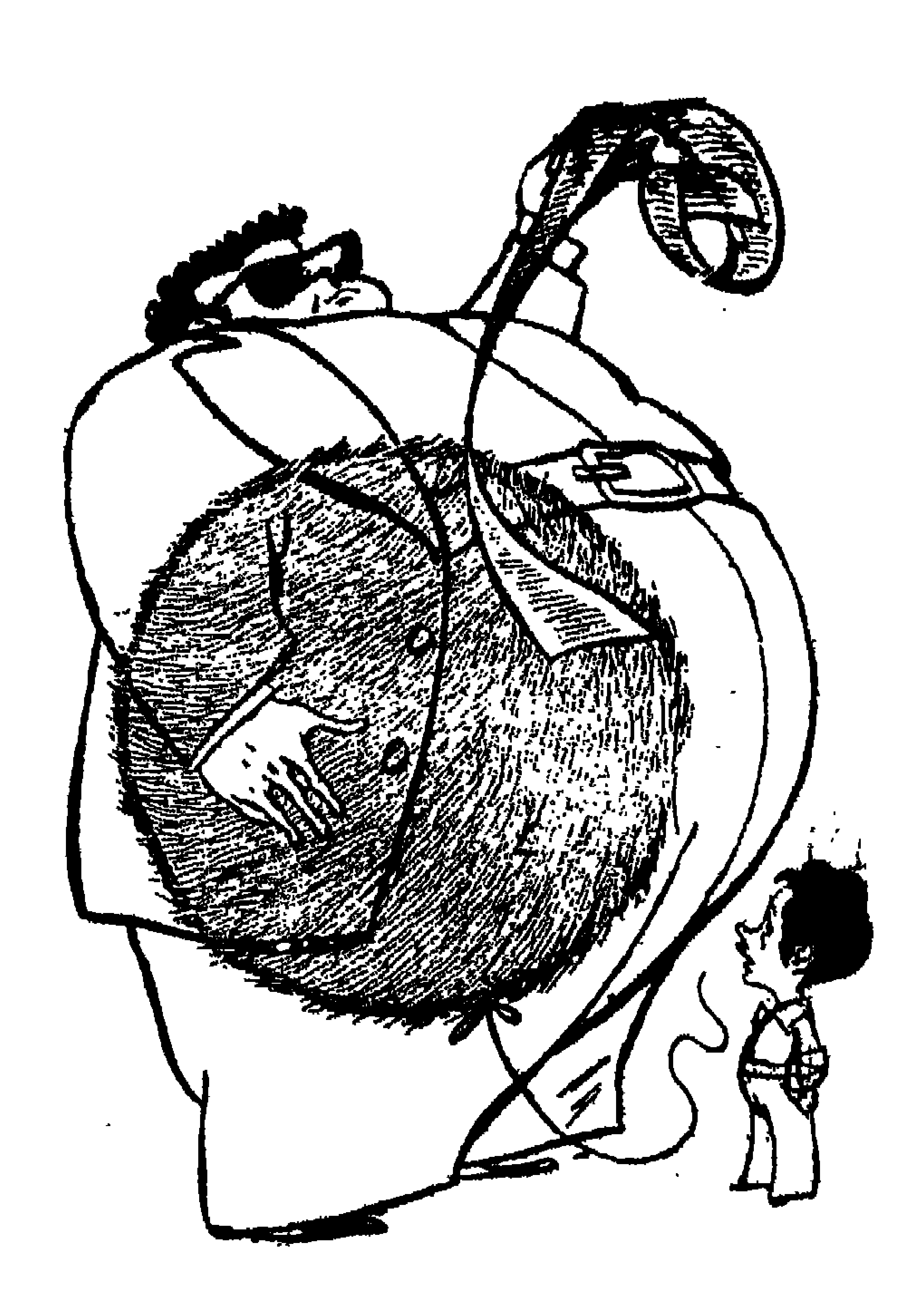
بقى القلم القديم.. أو العريق.

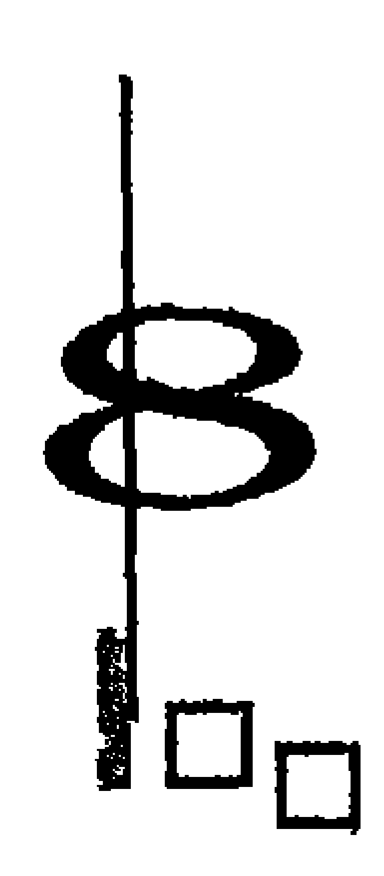
ولقد قلبه مراد بين يديه، وهو يقول له!

أما أنت، فلا ضير عليك، وسواه كنت جديدا أو قديما، فالمهم أن تكتب ما فى فكرى.

وأهم من هذا كله، ألا تصبح.. بالونة!!







وجلس مراد وحسن، بعد أن فرغ مراد من كتابة الحدوتة.

وجاءت سميحة لتشاركهما جلستهما، وبدأت تقول :

- انتهيت من إشماع حكمتك، يا حكيم التاريخ؟

- حكمتى!! أنا اليوم كاتب شعبى.

- وما عيب الكاتب الشعبى؟ ماذا كتبت؟

- حدوتة..

- الله.. حلوة؟

- لا .. ملتوتة.

- تبقى عليك حدوتة.

- بالك رايق..

- وأنت؟ مالك؟

- خائف من الحدوتة، واستقبال الناس لها.

ـ ولم تنس الشاطر حسن.

ـ وهيه من غير الشاطر حسن، تبقى حدوتة؟!

ـ على كل حال، لقد انتهيت منها. انسها.

ـ هذا هو عيب الفن. لا ينسى!

ـ لتكتب سواه.

ـ وسواه لن ينسينى الحدوتة.

ـ الولد ينتظر من مدة. هيا انفخ له بالونة، حتى أرتب أنا المائدة.

●●●

وأخذ مراد يناقش حسن، العربيد الشقى.

ـ قيم حبك للبالونات يا حسن؟

ـ حلوة يا بابا خصوصا وهى منفوخة.

ـ ولماذا تحب الشئ المنفوخ؟

ـ لأضحك عليه.

ـ لكن الشئ المنفوخ، لا أمان له.

ـ ليه يا بابا؟

- لأنه فى ثانية واحدة يفرقع.

- وماله لما يفرقع؟

- يبقى لا شئ.

- أحسن!!

-... غريبة! أحسن.. "ليه"؟

- عشان نفخ غيرها.

- وأنا أنفخ، لغاية نفسى ما ينقطع.

●●●

وأخذ الشقى العربيد يضحك من أعماقه، وهو يدب على الأرض، ومراد يتأمله، وهو لا يدرى ماذا يفعل.

ونادت سميحة عليهما.

الغدا. يالا الغدا.

وذهبا إلى المائدة، ليتما عليها الحوار.

تعرف يا بابا. أنا لما أكبر حنفخ بالونات كتير.. كتير..

طب ليه يا حسن.

عاوز.. عاوز أطير معاها.

تطير مع البالونات؟

آ.. ليه لأ. البالونة مش بتطير؟

أيوه بتطير.

ولو ربطنا فيها ورقة خفيفة، مش تطير معاها؟

تطير معاها يا حسن.

ولو كنت أنا ورقة كنت طرت مع البالونة؟

تمام.

ولو كانت البالونة كبيرة خالص، كانت استحملتنى وشالتنى وطارت بيه مش كده؟

تمام كده.

وبدل ما تبقى بالونة كبيرة.. كبيرة خالص. يبقى بالونات كتير تنفع بدل بالونة واحدة.

لكن "ليه"؟

كده لذيذ يا بابا. تصور نفسك وانت متشعلق فى البالونات وطاير.. وشايف كل حاجة من فوق. تصور.

طيب اركب طيارة.

لا يا بابا دى شئ تأتى.

وإذا فرقعت بيك؟

إذا كانت منفوخة كويس، تفرقع ليه؟

لأنها.. هوا..

والهوا ميستناش ليه؟

والله عال.. أقول لده إيه؟

●●●

وترك مراد البيت، قاصدا مكتبه، لكن ذهنه ظل شاردا فى حسن، والبالونات الكثيرة التى يريد أن ينفخها، ثم يتعلق بها، متوهما أنها ستطير به، وهو معلق فيها.

وأخذ يتذكر شيئا مثل هذا.. شيئا شبيها بهذا.

نعم أنا أذكر أن شيئا كهذا حدث. من قال لى مثلا ينطبق على أحلام حسن؟ أنا واثق تماما من هذا. طبعا مثل يطابق هذا الحلم الساذج..

ومضى فى طريقه يسأل نفسه، ويشرد عن السؤال قليلا ليعود إليه، فلما وصل المكتب، لم يكن قد وجد إجابة على السؤال بعد.

ووضع أوراقه أمامه، قبل أن يرسلها للنشر.

وأخذ يراجع الحدوتة، ثم انطلق فجأة يضحك ويقهقه ويضحك وهو يقول لنفسه.

تماما كحكاية الحشاش الذى فقد ساقه ونادى العسكرى ليبحث له عنها!! وأخذ يراجع حدوتة حسن ، وبالونات حسن بين عينيه!

وقبل أن يرفع سماعة التليفون، ليسأل عن صديقه مختار، وهل وصل، ليسأله الرأى فى الحدوته التى كتبها، خلفيه لقصته، إذا بعاملة التليفون تقول له أن زائرا يريد مقابلته.

وقبل أن يسألها : من. قالت واسمه سماح.

وهز مراد رأسه، وهو ينظر فى ساعته.

الله!! لماذا لم يذهب إلى الجمعية العمومية؟ ألم يقل له أن عليه أن يلقى خطبة فى الجمعية العمومية للشركة؟ ألم يكن ذلك أمس؟ وألم يقل أن الجمعية تجتمع مساء غد؟ وغد أمس.. ماذا يكون؟ أليس اليوم ماذا أتى به، والجمعية تكاد تنعقد؟ أهو دائما هكذا! أمس كان على عجل لأن الجمعية تنعقد غدا.. وقد صار غد أمس هو اليوم، وهو موعد انعقاد

الجمعية. فماذا يريد؟ وعلام العجلة اليوم أيضا؟ هل ألغيت الجمعية، أو أجلت، أو أن طارئا آخر طرأ، دعاه إلى هذه الزيارة المفاجئة والعاجلة؟ ولماذا يعيش الناس دائما متعجلين؟! يتعجلون العمر، ويتعجلون الرزق، ويتعجلون الثروه ويتعجلون كل شئ.. كل شئ.. حتى الحب يتعجلونه! حتى الهجر، حتى الدمع! حتى الموت!

وما كان مراد يدرى ماذا قال لعاملة التليفون. لكن يبدو أنه قال لها دعيه يدخل، فقد سمع طرقا على الباب، وقبل أن يجيب، فتح الطارق الباب ودخل، وهو على "سنجة عشرة"!! كان فى أفخم ثيابه، حليقا رشيقا أنيقا، تفوح منه رائحة كولونيا مستوردة!

- خير.. ماذا أتى بك؟ ألست ذاهبا إلى الجمعية العمومية؟

- ومن أجل هذا جئتك لأستشيرك فى شئ هام.

- نعم؟. خير؟

- هل أقرأ من ورقة، أم أتلو الخطبة "غيبى"؟!

- وتستطيع؟

- طبعا.. لقد حفظتها.

- "صم"!

- آه "صم".. وعن ظهر قلب.

- "ياه!! دا انت هايل"!!

- "لازم.. كان لازم"!

- "طب أمال ما كنتش بتعمل كده ليه فى المدرسة"؟

- هذه نقرة..

- وهذه نقرة! طيب ما عيب القراءة من ورقة؟

- أنا الذى أسألك.

جمعية عمومية، ومساهمون مجتمعون، وجدول أعمال موضوع، وخطاب عن توجيه سياسة الشركة.. وتريد أن يكون ذلك شفويا؟. "هو أنت فى سرادق انتخابات"؟ ومع هذا أسمعنى ماذا حفظت.

●●●

وأخذ "سماح" فى حماسة تلاميذ مدرسة الأورمان "يسمع"!

لكن..إيه؟! كان ينطق لغة كأنها اللاتينية، أو الأردية! لغة سنسكريتية، غير مفهومة!! حتى لقد صاح مراد يقول له :

"حد حيترجم"؟

ولم يفهم سماح النكتة، وأخذ يضحك.

قال مراد :

أظن أحسن تقرأها من الورقة. بس "أشكلها لك ".

وأخذ يشكل له الخطبة، تشكيلا كاملا، وسماح يراقبه فى بلاهة، وهو مبهور بهذا الذى يتم"

وبعد أن انتهى مراد، قال له :

- والآن أقرأها على مهل.

وأخذ يقرأ على مهل، ومع هذا اضطر مراد إلى تصحيح بعض مخارج الألفاظ التى كانت تصدر عنه.. ميتة!

●●●

وبعد أن خرج سماح ليلحق اجتماع الجمعية العمومية أخذ مراد يفكر فى هذه الدنيا الغريبة، التى تعطى باليمين وبالشمال، على غير أساس من منطق!

المحتاج إلى لقمة خبز جافة يسد بها رمقه، تتركه للفاقة والذل!

والغنى الذى لا يجد وقتا يعد فيه ثروته، تعطيه ما ليس فى حاجة إليه!

وأصحاب الذكاء والفطنة، ينحتون الصخر، ليعيشوا!

وأصحاب الغباء والسذاجة، لا يعرفون من أين يأتيهم الرزق!

شئ غريب، ومثير ، لكنه واقع. وأسهل الحلول أمام هذه المتناقضات: التسليم!

●●●

التسليم بأن أولاد الأعمام الثلاثة، يصبحون هكذا، على هذا القدر من الجاة، ومن النفوذ!

أيام المدرسة، وتاريخهم الغريب فيها؟ لا يهم!!

العواطف البليدة الجامدة؟ لا يهم!!

التفكير الساذج الأبلة؟ لا يهم!!

الأنانية المسرفة، بلا ذوق؟ لا يهم!!

ماذا إذاً يهم؟!!

وكاد مراد يصرخ بينه وبين نفسه :

ويذهب الأذكياء القادرون إلى الجحيم، لتتفتح أبواب الدنيا للسفهاء!!

أين مكان الانسان الطيب على هذه الأرض؟! أين يعيش؟ وكيف يعيش؟ وهل لابد للطيبين من الفاقة، ليكونوا طيبين؟ هل لابد للشرفاء من الضنك، ليكونوا شرفاء؟! ألا يكون الفضلاء فضلاء، إلا إذا عضوا الضنى؟! وبلعوا العقم؟! وساروا عرايا؟! أهذا وحده مقياس الطيبة والشرف والفضيلة؟! والراحة، والنعيم. وهدوء النفس؟! والستر الحلال.. والثراء، والغنى، والجاه.. هل يتنافى مع الشرف والاستقامة؟!

يا ناس!! أين مكاننا على هذه الأرض؟!

أم ليس لنا مكانا على القشرة الأرضية؟ لابد أننا مؤقتون!! ومكاننا الحقيقى، فى الجنة! وننتظر!! علينا أن ننتظر!! بلا ملل ننتظر!! نعانى ونصبر وننتظر!

ولا بأس أن تضيع أعمارنا فى انتظار!!

نعم ولو انتظرنا إلى أبد الابدين، فسيكون علينا أن ننتظر!!

●●●

هذا مختار مقبل..

ومن الحكمة أن تستقبله هاشا باشا، فإنه يعيش على فوهة بركان يهدد بالانفجار فى أية لحظة.

لكنى أريد أن أداعبه. لابد لى من أن أداعبه. بل لا بد من أن أنتزع ابتسامة من على شفتيه. مختار ليس فوق الابتسامة، ولا هو أكثر حزنا منك. أنت أيضا تعيش محنة، ومحنة، ومحنة. حتى لقد صارت هذه المحن عادة.. كل الفرق بينك وبينه أن محنتك موزعة على مناسبات كثيرة، وناس كثيرين، ومواقع كثيرة. أما مختار، فقد تجمعت كل محنة، فى واحدة، وفى مناسبة، فأثقلت ظهره. لكن والله لو جمعت أنا محنى، لفاقت محنه وتجاوزتها. المحن كالرزق، تتوه إذا وزعتها.

●●●

ـ ألا تذكر هيام؟

ـ من هيام هذه؟

ـ تصنع أنك نسيت. يا "واد"!!

ـ هيام؟

ـ لا أذكر.

ـ طيب أذكرك أنا. تذكر الشقة التى كانت تعلو شقتكم مباشرة؟

ـ أين؟. وأى شقة؟

ـ الشقة التى نشأت فيها، حتى التحقت بالجامعة.

ـ فى طنطا؟

ـ نعم فى طنطا. تذكرها؟

ـ مالها؟

ـ وسكان الشقة. تذكرهم؟

ـ "يا شيخ الله يقطعك".

ـ آ.. الآن تذكرت. هل لا تزال تذكر الشفرة بينك وبينها؟

ـ لا.. أى شفرة؟

ـ دقة واحدة تعنى "ماما هنا".

ـ لا.. لا لأ.. يعنى "بابا هنا" يا غبى.. أنت نسيت.

ـ أمال ماما كام دقة؟

ـ ثلاثة.. هيه الخطر كانت.

ـ وكام دقة يبقى الطريق فاضى.

ـ أربعة..

ـ.. آ..!!

وملأت الابتسامة وجه مختار! وشعر مراد أنه نجح فى المهمة التى أرادها. إن مختار إنسان طيب ومرح، ولقد كان كثير المزاح إلى أن وقعت الواقعة، فانقلبت حياته انقلابا كاملا.

●●●

وسكت الصديقان.

نظر كل منهما إلى الآخر وسكت.

وبدا لكل منهما، أن الآخر يكتم عنه سرا.

وفى وقت واحد تكلما عن السر، فتفجر ما كان يخفيه كل منهما عن صاحبه.

●●●

ما حكايتهم زملاؤنا هؤلاء؟

وهذا الشئ الغامض الذى وراءهم ما هو؟

وهل صحيح هم أغنياء وارثون؟ أم أن هذه الثروة من صنعهم؟ وهذه الشركة الضخمة، هل هى أيضا موروثة؟ أم أنها ثمرة كدهم وكفاحهم؟

●●●

لم يكن مراد ولا مختار بقادرين على أن يتعرفا على شئ ينير أمامهما الطريق، حتى تدخلت الأقدار لتضع الحقائق كلها أمامهم دون قصد أو ترتيب.

لقد آثر مراد ومختار منذ تخرجا أن يسيرا فى الطريق الوحيد الذى يسير فيه كل الكتاب والفنانين. ليس غير الصحافة وسيلة للعيش، وسواء كان رأيهما فى الصحف جيدا أو سيئا، فهى أقرب الكائنات الحية إلى الأدب والفن! وسواء رضيا أو لم يرضيا، فالأدب لا يضمن مجرد رغيف الخبز!

لكن الصحافة مهنة قائمة بذاتها.

وهى مع هذا تنشر الأدب.

لتروج الصحف، لا إيمانا بالأدب، ولا حرصا عليه.

تروج عن طريق الأدب، ويروج الأدب بها.

لكن ذلك شئ، والبيئة الأدبية الخالصة شئ آخر.

طيب. انتظر أنت حتى تتوافر البيئة الأدبية الخالصة.

ويوم تتوافر أكون فى خبر كان.

أو تكون قد نسيت الشعر والقصة والقدرة على التعبير.

والحل؟

لا حل إلا قبول الأمر الواقع. نعيش من الصحافة لنمارس الأدب.. شئ للرزق، وشئ للهواية.

فإن تعارضت المهنة مع الهواية.

لا أدرى.

بماذا سنضحى؟

الإختيار صعب جدا. إن اخترنا الهواية.

نجوع.

وإن اخترنا المهنة.

نذبل.

والحل؟

أن ندعو الله أن نجد طريقة بين بين.

الجريدة لا تشترى الأحلام.

ولا تدفع مرتبات لشعراء ينظمون الشعر.

وحتى لو دفعت، فهى تشترى الأعمال الأدبية مرة، وينتهى الأمر.

طبعا.. أما أن تجرى مرتبات شهرية على المجانين.

فستغلق أبوابها لا محالة!

●●●

لكن مراد ومختار، كانا يحاولان أن يظلا محتفظين بروحيهما. بروح الأديب والكاتب والشاعر. بالشيطان الذى يحرك الموهبة. بالخيال الذى يثير الوجدان. لكنهما مع هذا كانا مضطرين إلى العمل فى الصحيفة، فى دورات منتظمة، ليقبضا مرتبيهما آخر الشهر، وليكن شرود الفنان فى غير أوقات العمل الرسمية!

لكن روح الأدب كانت تتسلل منهما بصورة تلقائية إلى أى عمل يوكل إليهما.

وعرف عنهما فى الصحيفة التى يعملان بها، أنهما شاعران! وأنهما يكتبان الخبر بأسلوب الشعراء! يكتبانه موزونا! وبقافية! إلى آخر ما تردد عنهما من نكات.

وبرغم ما صادفهما من السخرية، إلا أنهما لفتا إليهما الأنظار، بروح الأدب التى صبغت عملهما. وبعض الأخبار تحتاج إلى لمسة شاعر، أو خيال أديب، أو شفافية فنان، لتصاغ فى صورة تتفق وطبيعتها.

وكثيرا ما كان الزملاء يلجأون إليهما، عندما يتلقون من الأخبار ما يحمل بعض مآسى الحياة، أو يتناول مواقف انسانية معقدة الجوانب.

وفى أحيان أخرى، كانت تصلهما أخبار أخرى بتحذير!

وتلك كانت أبغض الأخبار اليهما!

تنقلات الموظفين، ونتائج الامتحانات، أو أسعار البورصة! والأخبار السياسة كذلك، خارجية أو داخلية!. كل تلك كانت أخبارا معتمة كما يقول مراد، أو مظلمة فى تعبير مختار.

وعندما كانت هذه الاخبار تصلهما، وهما فى دورة من الدورات كانا يراجعالها، ويعيدان كتابة بعضها، ويضعان العناوين لها، ويرسلانها إلى المطبعة، وكأن ما حدث لم يكن أكثر من نوع من الفقاقيع مرت على صفحة نهر آسن، فلم تحرك فيه شيئا.

ثقيلة هذه الأخبار كانت على نفسيهما!

لكنها مهمة.. وخطيرة.

.. وهذه هى المأساة.

مأساة من؟

مأساة الانسان.

وكيف؟

ماذا يخسر الانسان لو لم يقرأ أخبار الحرب فى الشرق الأقصى أو خطاب الرئيس نيكسون عن الاجراءات الاقتصادية الجديدة؟ أو كل ما يجرى فى الأمم المتحدة؟

ينعزل عن الدنيا.. وعن الأحداث.

ليكن.. هل يخسر كثيرا بهذه العزلة؟

يخسر نفسه.

بل يكسب نفسه.

بل يخسر..

كيف يخسر؟

فى غيبة الناس، يحلو للمغامرين أن يعملوا أى شئ.

وبعملهم، وأمام أنظارهم، وعلانية، وعلى رؤوس الاشهاد، يقتلون الخلق بالآلاف، ويحصدون الأرواح بلا حياء،

ويهدمون البيوت، ويدكون المدن، وينسفون ما يبنيه الإنسان طول عمره، فى لحظة طيش أحمق.

الظلام قائم برغم هذه الصحف والإذاعات. وهم قادرون على أن يفرضوه، عندما يريدون.

وقد تفيق ضمائرهم من الحياة.

أو يضغط الرأى العام مثلا؟

مثلا.

يا سيدى الناس عبيد القوة، وقد لازمهم الخوف منذ كانوا مخلوقات بدائية. ومع كل ما حققوه من حرية، لا يزالون يخافون.

وكل الثورات التى قامت لتحرير الانسان؟

كانت دفاعا عن النفس.

ضد من؟

ضد الخوف.

ولم تنتصر عليه بعد؟

ويوم تنتصر عليه، يذبل الانسان ويجف.

ألى هذا الحد؟

ويبدأ عصر التقدم-إلى الخلف!

لا قوة اذاً للرأى العام؟

الرأى العام!! طريف ما تقول!! وأطرف منه أن تنخدع أيها الأديب، فيه!

وتقويمك أنت له.. ما هو؟

شئ تصنعه السلطة.

والسلطة تصنع شيئا قد ينافسها؟

.. وقد ينافقها!!

هذه نظرة تشاؤم.

نظرة مثال، لا شاعر.

بل نظرة حالم، لكن من خلف!

والرأى؟ ماذا عندك من رأى؟

عندى أن الصحف تبدد طاقة من يقرؤها، بكلام ليس بذى فائدة بالمرة.

والفائدة كيف تكون؟

بتعمق نفس الانسان، وشحن الطاقات الخلاقة فيه.

وخطايا الناس؟

كالناس تحتاج لوقفة.

وتنتهى هذه المناقشات عادة إلى غير نتيجة.

●●●

المهم أن مراد ومختار قد كانا يتوليان دورة فى الصحيفة التى يعملان بها، عندما أقبل أحد الزملاء متهللا، وبين يديه أوراق كثيرة مبعثرة. وسبقته إليهما صيحاته.

●●●

هذه أخبار هامة لكما أيها الشاعران.

الحرب فى فيتنام؟

أهم.. أهم بكثير.

زحف دودة القطن على مساحات جديدة؟

لا لا.. أهم.. أهم.

أهم أهم!! إيه؟ تجدد الضرب على الجبهة؟

هذه هى.. لا تخمين أمام الواقع..

وأخذ مراد يقرأ، فى فتور أول الأمر، بينما مختار جالس أمامه، يقرأ بعض الصحف الواردة من الخارج.

لكن فتور مراد، قد بدأ يزول، ليحل محلة اهتمام، حمله على أن يعتدل فى جلسته، ويفتح عينيه جيدا لما يقرأ.

ثم إذا هو يقرأ، وهو نصف واقف! لم تعد القراءة الهادئة تكفى، ولا القراءة المتنبهة! القراءة المتوترة، الواقفة، كانت هى التى تشفى الغلة!

وانتقلت العدوى إلى مختار، فترك هدوءه واستدار إليه، ليقرأ الأوراق المبعثرة، التى كان ينتهى منها، وبعضها على المكتب، ليعود إليها بعد حين.

وكما انتقلت العدوى من مراد إلى مختار، انتقلت من مختار إلى بعض الزملاء، فتجمع من كان منهم فى صالة التحرير حول هذه الأوراق يقرأون فى فضول.

وكانت الأخبار، على تناثرها، تكون عناصر قصة.

●●●

طالبة تحاول قتل أحد رجال الأعمال!

عنوان لطيف ومناسب. وتحت العنوان، قالت الأوراق المنثورة :

كانت القاعة مزدحمة بجمهور غفير من أعضاء الجمعية العمومية لإحدى الشركات الكبرى، وكان أحد اعضاء مجلس

الادارة مشغولا بإلقاء خطاب هام عن سياسة الشركة. وكانت كل الآذان منصرفة إليه، نظرا لأهميته، وتناوله عددا من الخطوط الأساسية لعمل الشركة فى المجال الخارجى.

وكانت الدلائل كلها تدل على أن كل شئ يسير سيره الهادئ الوقور.

لكن كل هذا الهدوء، قد تبدد ، عندما دوت رصاصة فى القاعة، هزت الأعصاب، وأشاعت فى القاعة جوا من الخوف والقلق.

وكان مصدر الرصاصة باب قاعة الاجتماعات.

وكانت قد انطلقت من فوهة مسدس صغير، تحمله فتاة فى عمر الزهور، يانعة وجميلة فتاة تبدو برغم انفعالها الشديد أنها تحاول أن تضبط أعصابها لتصيب هدفها.

وفى لحظة تغير كل شئ.

الرصاصة انطلقت، ثم تبعتها عدة رصاصات أخرى، والذعر عم الموجودين، واضطربت صفوف مجلس الادارة الذى كان يتصدر المكان، وساد الهلع عندما سقط العضو الذى كان يقف خطيبًا أمام الميكروفون، بعد أن أصابته

الطلقة، فلما توالت طلقات أخرى، طأطأ الناس رءوسهم، حتى لا تصيبهم هذه الطلقات، والجمهور من أعضاء الجمعية العمومية، وجل وخائف، تتنازعه عدة عوامل : الخوف والقلق والاضطراب أمام المفاجأة.

●●●

وأقبل رجال البوليس، والنيابة والاسعاف.

ثلاثى أضواء المسرح!!

نعم.. ثم؟

وتحدثت الفتاة فى التحقيق، بمنطق متئد ومتزن وعاقل. كانت ترفع رأسها فى اعتزاز وكبرياء. كانت تسأل: أمات؟ ألم يمت بعد؟

قالت لوكيل النيابة :

عندما يواجه الانسان عدوانا، يعرف مقدما أن شيئا ما لن يعوضه عنه. ماذا يفعل؟ إن سكت مات من الحسرة، وإن لجأ إلى القانون، سيجد القانون حمارا كما يقول رجال القانون أنفسهم. إذًا.. ماذا يفعل. قل لى أنت ماذا يفعل؟

وفى هدوء محقق مدرب، قال وكيل النيابة :

ـ طيب قل لى أنت ماذا يفعل؟

وانطلقت الفتاة تتحدث :

ـ يفعل مثلما فعلت. يأخذ حقه بيديه! بيديه!

ومضت تحكى القصة.

●●●

ما أنا إلا فتاة بسيطة، ومن وسط بسيط، أصابتنى لوثة الأدب! نعم هى لوثة ربما! هى نزوة ربما! هى عاهة ربما! المهم أن هذا الداء أصابنى وأنا فى بداية النضج. كنت أنظم الشعره وصدرى لم يبرز بعد! كنت أكتب الرسائل، مليئة بالانفعالات ، ومنها الحب، وأنا لم أعرف معنى الحب بعد!

ومن حسن حظى، أو ربما من سوئه، أن أبى كان رجلا على جانب من الثقافة، فشجعنى، أو كتعبير أصدق، لم يعارض هذه النزوة فى! قال لى فى حنان أب، وتطلع والد.. من يدرى، قد تصبحين أديبة كبيرة شهيرة ذات يوم! أصحاب المواهب، يكونون فى بعض الأحيان، كالمنومين أو كملكات النحل، لا بد لهم من العطاء.. ملكة النحل لا تعطى الشهد لأنها تريد أن توفره للناس، ولكنها تعطيه، لأن هذه طبيعتها!

لهذا وجدت التشجيع أول ما وجدته من أبى، فانطلقت فى التعبير عن نفسى.. لا أخجل من شئ يداخلنى أبدا، لهذا خرج أدبى شجاعا إلى حد التهور! شجاعا وصادقا وأمينا.

ومضيت فى هذا الطريق، وهوامش كراساتى شعرا! وجدران بيتنا خواطر! إلى عشرات الكراسات التى امتلأت بانتاجى.

وفى الجامعة، كانت أنوثتى قد بدأت تكتمل، وبدأت أشعر أنى فتاة، ذات قد ممشوق، وعود ملفوف، وصدر ناهد، وقلب تواق إلى الحب.

●●●

غريب أمر الانسان يا حضرة الوكيل.

هكذا قالت الفتاة حاملة المسدس.

نعم غريب أمر الانسان، وأغرب منه أمر الإنسان الفنان! ليت هذا الانسان، خلق بلا ارتباط بشئ. لا بناس، ولا بمكان، ولا بزمان، ولا بمسئولية! ليته خلق حرا طليقا، غير مقيد! إن حدود هذا المخلوق فى الزمان والمكان وبين الناس، تقتله! وأشجع لحظاته، عندما يتجرد! عندما ينطلق وحده،

فى المطلق، يحلق فى أجواء الأزمنة والأمكنة جميعا، يخالط من يحب، بل يحب من يحب، ويكره من يكره، ويعطى كما تعطى ملكة النحل. يفرز شعرا غير مقيد بشئ، وينتج أدبا لا تتحكم فيه حتى الشهوة!

لكن الفنان أيضا إنسان وعندما تتحدد علاقاته بحدود، أو عندما يوضع فى إطار المادة، تفرض عليه فيه قيود.. وقيود.. حتى ليحس أنه فى سجن. عقله مقيد بنظريات واعتبارات. عواطفه مقيدة بمن يحب ومن يكره. إرادته مقيدة بشهواته ورغباته.

وبين الانسان و الفنان أبدا معركة.

الفنان يريد أن يخرج عن طوع الإنسان، والإنسان يشد الفنان إلى أرض الواقع. الفنان يريد أن ينتصر على الانسان، والانسان يوهمه بأن هذا الانتصار ليس إلا انتصارا على نفسه.

الإنسان أو الفنان، والفنان أو الإنسان.

والمعركة تدور، فى نفس الإنسان، لا يضبطها ضابط، والخسارة على الإنسان والفنان جميعا. لا الإنسان انتصر، ولا الفنان أنتج ما يهواه.

●●●

فيلسوفة هذه الصغيرة. إنها متهمة من نوع خاص.

ووكيل النيابة محظوظ، فهذه شاعرة ثرثارة، تكشف عن نفسها القناع بما لا يتطلب منه لباقة لكشف أسرار الجريمة.

وهى تمضى تقول له :

وتلك هى المأساة!

هذا التناقض بين الانسان والفنان هو قمة المأساة.

الفنان يريد الناس أمثلة رائعة، كتلك التى يتصورها، ويتغزل فيها، ويعيش معها، وقد يعاشرها فى أعماله. وعندما يخرج من هذه الدنيا، إلى أرض الواقع، يجد من يعاشرهم من الناس، غير أولئك الذين عاشرهم فى عالمه الخاص به. ويدور الصراع، وتحدث المأساة.

وأنا يا سيدى لست إلا ضحية هذا الصراع.

على أنى أحذرك من أن تعتبر هذا دفاعا أو إعتذارا وتبريرا. لا. فأنا أتحدث إليك كما لو كنت واحدا من أبطال القصص التى أكتبها، وأعاملك ناقد من نقاد الأدب، أكشف له نفسى بصدق وأمانة. وحينما أقول لك أنى ضحية، فليس

ذلك إستهدافا للتخفيف عنى، بقدر ما هو كشف لحقيقة نفسى!

وتمضى الفتاة.

وعندما كنت أقرأ لأبى، ولأساتذتى، ولزملائى بعضا من إنتاجى، كانوا يثيرون فى الاقتناع.. حينا، والغرور فى كثير من الأحيان.

لماذا لا تنشرين أعمالك هذه؟

لأنى لا أعرف ناشرا يفتح ذراعيه لناشئة مثلى.

لكن هذا لا يمنع من المحاولة. أم تراك تنتظرين أن يبحثوا هم عنك.

أبدا. ليس هذا قصدى.

أو ربما تتوهمين أن يقدمك إليهم أحد.

ولا هذا أريده، فإنى أرفض تزكية غير تزكية عملى.

إذاً حاولى.. ابحثى وحاولى.

●●●

أحيانا تكون الوسيلة إلى النشر، هى نفس الوسيلة للظهور على شاشة السينما! وأحيانا!! وأحيانا يكون طريق

الشهرة، مفروشا بالوحل! أحيانا! والذين تقرأ عنهم كلمات وأوصافا، ونصدقها، ليست حقائق، بقدر ما هى اعلانات، لترويج الاعمال الفنية. وعذارى الفن، وبنات البيوتات، والأحاديث المكررة عن معارضات الأسر لاشتغال بناتها بالفنون. كل تلك مبتكرات ادارات العلاقات العامة. مجتمع اعلانات عن سلع. الهدف منها أن تروج!! وفى الفن، كما فى الصناعة، بضائع مغشوشة!! وصدقنى يا حضرة الوكيل، أن أغلب البضائع مغشوشة!

على أن بضاعتى أنا ليست مغشوشة! أبدا، وألا ما كنت قد وقفت هذا الموقف أمامك، وما كنت أفكر فى أن أطلق الرصاص على أحد! أنا أطلقت الرصاص، لأحمى بضاعتى من الغش يا حضرة الوكيل.

●●●

قالوا لى عن هذا الناشر.

وكانت فكرتى سيئة جدا عن الناشرين!

إن أسوا التجار يا سيدى هم الصياغ!

فى أيديهم ذهب وماس، وكل الجواهر النادرة، لكن يعلو أيديهم صدأ!! ويعلو قلوبهم صدأ أسوأ من الصدأ!!

أبشع التجار، يتجرون فى الجواهر النادرة!

والسلعة الغالية، يتولاها أفسد الناس!

تجار الفن، أشد الناس للفن عداوة! يتاجرون بالفن، ويكرهونه!

ما الفن فى نظرهم إلا كسب.. فرصة للكسب! أما الفن نفسه، فشئ لا يعنيهم!

جسم الانسان يا حضرة الوكيل. أليس شيئا مقدسا؟ أليس أبدع ما خلق الله؟ لكنه أيضا صار مادة لتجارة!

لا تعجب منى. أنا لست إلا شاعرة مجنونة. ربما!! لكن اسمعنى.

أليس الطب تجارة هذا الجسم؟ ألا يتاجر الأطباء فى أجسام الناس؟ ألا يتاجرون بالمرض؟ والمرض ظاهرة من ظواهر جسم الانسان.

ما أبشع ما تنحدر إليه التجارة فى جسم الانسان عندما يموت، يتناوله تربى، يواريه التراب، بلا دموع!! وإنما بأجر معلوم!!

كلما غلت البضاعة يا حضرة الوكيل، انحطت التجارة فيها!

يعنى المعادلة هى أن البضاعة والتجار يطردون من حيث النوع والقيمة إطرادا عكسيا يا حضرة الوكيل.

والأدب كالفن، وكالجواهر، وكالجسم الرائع المقدس.

ولأنه هو هذا، كان لابد من أن تخضع تجارته للمعادلة المقلوبة!

●●●

ونظر مراد إلى مختار.

وكانت النظرات طرية مبتلة بالدموع!

هذا معدن خاص من المتهمين. إنها ليست ثرثارة هذه المتهمة كما تقول. أبدا، ولا هى مجنونة. إنها فنانة.. فنانة.. فنانة، من أخمص قدميها، حتى شعر رأسها.

لكن ماذا قالت بعد ذلك؟

●●●

وبدأ الناشر يستقبلنى كأنى ملكة!

وأخذ يسمع لى، والنشوة تملأ جوانب نفسه!

وأخذ يصيح من اعجابه، كأنما كنت أغنى!!

والشاعر يا حضرة الوكيل مجنون!

والإنسان كل إنسان فيه جزء من الشاعر!

المهم أن الغرور ركبنى، واستبد بى، فشعرت أنى موهبة كبيرة! كبيرة جدا، وأنى على أبواب مجد رائع!

وتفتحت شهيتى، فأخذت أكتب، لألقى ما أكتبه على مسامعه، لأنال صيحات الاعجاب التى ملأتنى شعورا بالتفوق، وجعلتنى أسير على الأرض، كأنى طاووس!

ونسيت أنى جئت لناشر، فى غمرة ما أحاطنى به من مشاعر!

سامحنى يا سيدى، لقد بدأت أشعر أنى أكتب له.. ومن أجله!

وبدأ صراع الانسان والفنان. صراع المطلق والمقيد ، وصرت أنا ضحية هذا الصراع.

أنت يا حضرة الوكيل لا تصر على أن تذل كبريائى، فأحكى لك، كيف خدعنى، ولا كيف خدرنى، ليستولى على مشاعرى، ويجعلنى أسير وفق هواه مخدرة، أو منومة. لا تريد أن أحكى لك هذه السلسة الطويلة من الأحداث، فأنت تعرفها، ولاشك عندى أنك سمعتها من بنات كثيرات قبلى.

المهم أن تعرف أنى صرت الضحية.

وعندما انتهى صراع الانسان والفنان.

.. وكان هذا الصراع بينى وبينه، هذا صراع!

وكان كذلك بينى وبين نفسى وهذا أيضا صراع!

عندما انتهى هذا الصراع، بدأ الفنان فى يستيقظ.

وعندما وجد أن الصراع الأول أسفر عن سقطة، هى عند المجتمع سقطة أخلاقية.

وعندما وجد أن الصراع الثانى أسفر عن نسيان كامل لنداء الفنان، ورغبته فى أن تظهر أعماله للناس.

عندئذ أدركت حضرة الوكيل أنى فى الحالين ضحية.

فى الصراع معه، ضحيت بنفسى.

وفى الصراع مع نفسى، ضحيت الفنان الكامن فى.

.. وثق يا حضرة الوكيل أنى حاولت بكل طاقتى أن أعالج الموقف، لأنجو من الصراعين معا.

وعندما تبين لى أنه يحاول أن يتملص من مسئوليته.

وعندما أدركت أن القانون لن يجدى فى تحميله المسئولية.

إذاً أخذ حقى بيدى.. أقتص لنفسى منه، حتى لا تذهب الضحية سدى! هكذا هدانى تفكيرى، إلى هذه الصيغة فى التعبير عن واقعى!!

●●●

أنت يا حضرة الوكيل تتصور الآن أن المسألة كانت انتقاما للنفس. عندك حق فليست كل القضايا كهذه القضية.

إضافة تفسيرية، كالمذكرة التفسيرية يا حضرة الوكيل، وأنت رجل قانون تموت فى المذكرات التفسيرية.

هذه الاضافة، تمثل فجيعة لم أكن أتصورها.

لقد اكتشفت أن كل هذا الإعجاب، قد كان زيفا!! وكلمات الاطراء، قد كانت غشا! وصيحات التغنى فيما أقوله له، قد كانت شركا منصوبا!! والناشر الكبير الذى يتولى مهمة تقديم الفكر للناس، قد كان جهولا، لا يعرف الفرق بين الشعر ومسألة الحساب!! ولو كنت قد تلوت عليه عدة تمرينات فى الهندسة، لصاح معجبا، بنفس الحماسة التى استقبل بها أبياتى! المسألة عنده لم تكن إلا تمثيلية، ليجر رجلى إليه!

وصعبت على نفسى، بعد أن اكتشفت هذه الحقيقة!

أنا التى كتبت له، ومن أجله، وشعرت أنه يستقبل أدبى بنفس شفافة، تكاد أن تكون كنفوس الأولياء!

وكان هذا كله تجارة!!

ولم يخجل!! لم يستح من أن يصارحنى بأنه بالفعل كان تجارة لتجارة وشطارة!!

..وما أسهل أن تضع هؤلاء السذج فى جيبك! وكل شئ بثمنه! وطالما أنه قادر على الدفع، فهو قادر على أن يشترى حتى الموهبة!

وهنا يا حضرة الوكيل، شعرت بمأساة أخرى أعمق من مأساة الانسان والفنان. تلك كانت كرامة الإنسان؟

وشعرت بمهانة بالغة، وأسى عميق!

وعدت أتصور نفسى، قد ثبت هذه القيم فى نفسه!

ولم أطق نفسى يا حضرة الوكيل.

شعرت أنى أغدر بالأدب، والأدباء. شعرت أنى أخون كل طاقة إبداع أودعها الله فى نفس موهوبة. شعرت أنى أهين كل أديب وكل كاتب. بل وشعرت أنى أمثل بالتاريخ وبالمستقبل.

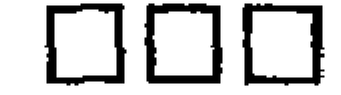
ولم يكن أمامى خيار. أبدا لم يكن أمامى إلا أن أقضى عليه.

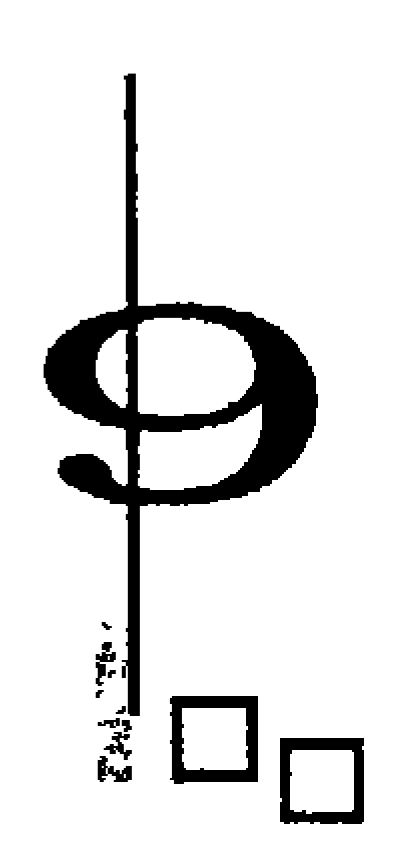
أنا التى تنظم شعرا، أمسكت بالمسدس لأقتل.

أنا التى تتغزل فى الطبيعة والجمال، وشفاه حيرى من لنشوة ، وأخرى ترتعد من الانفعال. أنا تلك التى تعيش فى مأساة الانسان، تحاول أن تقضى على الانسان.

لكن هل كان هذا إنسانا؟ أجب يا حضرة الوكيل.

.. بل قل لى. هل مات؟





قرأت؟

نعم.. قرأت

مسكينة!

لا.. ليست مسكينة.. أبدا!!

عندك حق.. بل نحن مساكين.

والعالم كله لن يفهمها.

يكفى أن نفهمها نحن.

ولسنا بقضاة.

وستسجن إن لم تعدم.

لكن السجن يحررها.

وظلام السجن سيلهمها الشعر.

وفى السجن خلاص!

النفس المحبوسة فى غدر الإنسان...

يحررها السجن!

والقلب المكظوم من الغيظ...

... يجد المتعة بين الجدران الصماء!

وحراس السجن بشر.

وظلام السجن ضياء.

وعذاب السجن سعادة!

يا للعار!..

ما أتعس أن تغدو الحرية شبحا.

يهرب منه الأحرار إلى السجن!

ما أقسى أن يتحول زهر الارض إلى شوك

فيعاف الأحرار الأرض!

ما أغرب أن يتحول نور الشمس إلى أسلاك.

تشوى أجساد الشعراء العزل!

حتى النسمات الرطبة تصبح هوجاء.

تعصف بهدوء الأنفس وتهددها.

وحشاشة إنسان العصر يبعثرها.

وحش لا يعرف معنى الرحمة.

يفتك.. يكذب.. يغدر.. ويخون.

ويمارس أحقر ما فى الغابة.

لا يصطنع النبل المعروف عن السبع

لكن يستهويه.. أكثر ما يستهويه

لؤم الثعلب! وتلون حرباء الأرض! وغدر العقرب.

●●●

وكان المندوب النشيط قد انتهى من بضع أوراق أخرى مبعثرة، فقدمها اليهما، ليقرآ بقية الحادثة المثيرة.

لكن مراد تذكر أنه لا يقرأ لنفسه، ولكنه يقرأ للجريدة التى يعمل فيها.

لا بأس أن يكون صحفيا مدركا لواجباته، فى بعض الأحيان!

وأمسك بسماعة التليفون ليطلب سكرتير التحرير.

●●●

حادثة مثيرة جدا...

تحتاج لمساحة كبيرة.

أعتقد أنها تستغرق ثلاثة أعمدة على الأقل.

صورة.. أظن ممكن، فقد حدث ذلك فى اجتماع الجمعية العمومية للشركة.ولابد أن تكون هناك صور، للاجتماع على الاقل.

عامودان لا يكفيان.سترى بعد أن تتم وتعد أنها مثيرة.

على العكس بل لابد من إشارة فى الصفحة الأولى.

أمم متحدة! يا عم!. والله هذه مساحات ضائعة! والله ضائعة.

على كل حال.. أنا نبهتك "بدرى" لتعمل حسابك.

●●●

وعادا ينثران أمامهما الأوراق المبعثرة، وزميلهما النشيط فى ركن من أركان الصالة يتمم كتابة كل ما لديه من معلومات عن الحادثة.

كان وكيل النيابة مشدوها أمام هذه الحالة الخاصة.

فتاة بسيطة، أطلقت الرصاص على رجل، فى اجتماع عام. ومع هذا تتكلم بهذه البساطة، وهذه الشجاعة.

لكن كيف استطاعت، وهى على ما هى عليه من الرقة أن تفعل. هذا؟

وعندما سألته الفتاة : هل مات؟ لم يسمع السؤال.

وكررت الفتاة الصغيرة سؤالها : مات؟

عندئذ قال وكيل النيابة : لا.. نجا. وإصاباته بسيطة..

قالت الفتاة فى أسى : خسارة!!

ومضت فى بساطتها تروى، وكأنما تتحدث إلى نفسها.

●●●

هذا يعيش... يتلقى رصاصة ويعيش!! وواحد من العلماء والفنانين يموت على أثر نزلة برد! وبالسكتة!!

هذا.. تخطئه الرصاصة، ليعيش! ويموت خليفة النبى وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، من عدوان غاشم!! العدوان الحق لا يقتل الشرير، والعداون الغاشم يقتل أمير المؤمنين!!

غاندى ذهب نتيجة عدوان آثم!! بينما هذا الصعلوك نجا!

كيندى مات من رصاصة غادرة!! لكن الرصاصة الصادقة، الشريفة، طاشت، ليعيش الشر!

هذه الدنيا غريبة يا حضرة الوكيل.

ناموس خاص، نشهده، وعلينا أن نخضع له!

... كلما تعرض الخير لعدوان، انتصر العدوان! بينما الشر يبقى! غريب! غريب أمر الشر! طويل العمر، لا ينفع معه عدوان!!

كل سفاحى التاريخ، لم يقتلوا!! ماتوا على أسرتهم، فى أمان!!

هولاكو سفاح المغول، حطم الحضارة، وعبث فى العواصم، ولم تمتد إليه رصاصة لتقضى عليه.

نابليون، أو الاسكندر، أو نلسون، أو هتلر، أو كتشنر، أو أى سفاح تخضبت يداه بدم القتلى، مات على سريره، بلا إصابة تسجل سخط الناس عليه.. يقتل أو يعدم الأنبياء والصالحون والأئمة والفلاسفة!

على بن أبى طالب قتل! الحسين بن على قتل! ومن قبله ومن بعده، قتل.. شرفاء وأبطال، بينما الأشرار يعزون على القتل!!

هذا غريب!!

وكأنما هناك حلف بين الشر والعدوان!!

أو كأنما الشر محصن ضد العدوان!!

الشر قادر على أن يحصن نفسه يا حضرة الوكيل، وقد سجلت صفحات التاريخ، فى حياة الحكام المستبدين والمتعسفين، أنهم تعرضوا للعدوان. أطلق عليهم الرصاص مرات. ونسفت بيوتهم، أو وضعت القنابل فى طريقهم، أو دبرت لهم مؤامرات وراء مؤامرات، لكنهم نجوا. الرصاص طاش. والقنابل فسدت، والمؤامرات كشفت، ليزداد المستبدون استبدادا، وليعيثوا فى الأرض فسادا.. يذلون ويعزون، وكأنهم آلهة!

ما تفسير هذا يا حضرة الوكيل؟ ماذا تظن؟

من يدرى!! ربما لا يستحقون حتى أن يُظلموا!! خلقوا فقط ليظلموا!! ليستبدوا ويظلموا! لتزداد نفوسهم سوادا من كثرة ما يظلمون! ولتزداد قلوبهم جفافا من فرط ما يفسدون!! ولكى يزدادوا غرورا، ينجون! ولكى تزداد صفحة ذنوبهم عتمة، يطفون على بحر السخط عليهم!! إنهم أتعس من أن يصبحوا شهداء، أو مضطهدين! أو يحسبوا مع الابرار!!

لابد أن هذا هو التفسير.. ولا تفسير سواه!

..وإلا فإن إيمان الناس بالعدل، لابد أن يهتز!

شئ محير يا حضرة الوكيل. أهذا يعيش!! لتجارة جديدة، وشطارة! ليخدع واحدة أخرى، وبعدها واحدة، ثم واحدة، ويشبع هو ويرضى غروره، بينما تذبل زهرة، ثم زهرة، ثم زهرة، من المحنة!

والشرير يغتصب ويلتهم كل ما تقدر عليه أمعاؤه من الشهوة!! باسم الفن، وباسم الأدب!

على كل حال، فأنا اعترف لك اعترافا صريحا وواضحا، ولا يحتاج إلى تفسير، أنى كنت أنوى بالفعل أن أقتله.. لم أكن هناك لزيارة، ولم أكن أهدد، ولا أتوعد، لكنى كنت أريد قتله بيدى وتخليص الناس من شره، فإن يكن قد نجا، فلأنى لم أصوب الرصاصة جيدا، أو لأن طبيعة الشر أن ينجو.

هو إذن شروع فى قتل مع سبق الاصرار!!

●●●

قال وكيل النيابة فى هدوء :

ومـا رأيك أنه أنكر أنك كنت تريدين قتله!؟ وأنك ربما كنت تجربين المسدس دون أن تدركى أنه محشو بالرصاص!؟

وأنه فسر ذلك بأن المسدس مسدسه هو، وأنه أعطاه لك لتحفظيه له حتى ينتهى الاجتماع، ونسى أن يقول لك أنه محشو ببضع رصاصات؟!

وما رأيك فى أنه قدم المسدس المستعمل، وكان مرخصا باسمه؟! وأن رصاصة واحدة قد انطلقت منه، ولا تزال رائحة البارود تفوح من فوهته الساخنة، من أثر اطلاق النار؟!

ومعنى هذا أن الحادثة ليست جريمة شروع فى قتل مع سبق الاصرار، ولكنها إصابة عن طريق الخطأ.

●●●

كذاب، هذا الناشر!

كذاب، وروايته كذابة!

كذاب، وهنالك سر يتخفى فى كذبه!

يقصد شيئا لا أدريه، بكذبه!

ويحاول درء الشبهات ليبدو إنسانا!

ولينفى عن نفسه بغض الشعراء!

هذا الناشر كذاب..كذاب.. كذاب!!

●●●

هذه الشاعرة ذات خيال واسع جدا.

إنها تتصور أشياء، لا وجود لها إلا فى خيالها.

ويلذ لها أن تتصور ما تتخيله حقيقة!

أنا أعرفها. وأعرف حقيقة شعورها.

إنها تحبنى.. إلى درجة العبادة، وعندما انطلقت منها رصاصة، على سبيل الخطأ، وشاهدتنى أسقط، ظنت أنى قتلت فاهتزت مشاعرها، واختلط أمامها كل شئ. لم تعد ترى شيئا أو تشعر بشئ. كانت تتصور نفسها قاتلة.. لكن الصورة بشعة والتصور قاس عليها، فكان عليها أن تغلفه فى ثوب لائق.

والشعراء ناس فيهم رقة، وفيهم كذلك خيال مسرف، فاختلط الخيال بالمأساة، بالفاجعة، فكان هذا الاضطراب كله.

المسدس ملكى، وهذا ترخيص به.

ومن فوهته تفوح رائحة الرصاصة التى أطلقتها خطأ.

●●●

هذا كذب وافتراء.

هذا مسدس استعرته من صديق.

من الصديق؟ من يكون هذا الصديق؟

وتسكت الشاعرة الشابة، لأنها تعلم أنه مسدس بلا ترخيص وأن الإفصاح عن صاحبه، سيضعه تحت طائلة القانون.

وتسأل نفسها :

لو أنه أدى ما عليه، لكان هناك ما يبرر التضحية بصاحب المسدس. أما والشيطان قد نجا، ففيم تكون التضحية إذاً؟

لكن من أين جاءوا بالترخيص؟

هذا المسدس لم يكن مرخصا...

اذاً أرونى المسدس. أراه، لأتعرف عليه.

وجاءها بالمسدس. فأخذت تصيح :

لا.. ليس هو؟ هذا ليس المسدس الذى استعملته. أبدا ليس هو. هذا دليل الكذب والافتراء.

ورائحة البارود؟

والسخونة التى لا تزال تشع منه؟

... ثم هو المسدس الوحيد الذى وجدوه فى مكان الحادث. على أثر وقوعه مباشرة.

وسيكون فحص البصمات عليه الرد العلمى الحاسم على هذا الكلام.

●●●

إنه لم ينكر أنه مسدسه، وأن بصماته عليه، وقد تركه معك حتى يفرغ من الاجتماع.

والبصمات التى فحصت كانت مشتركة. بصماته وبصماتك.

أما هو ، فلم يطلق الرصاص على نفسه. إذاً فهو أنت!!

لكن بصماتك عليه تبدو مترددة كأنما كنت تلعبين!

●●●

أبدا .. هذه بصمات متفرجة؟

لما طلبت المسدس لأتعرف عليه، أدرته فى يدى، فلم أجده هو نفس المسدس الذى استعملته، وتركت عليه بصماتى مع ذلك!

هذه بصمات متفرجة!

.. أما بصماتى الحقيقة، فكانت شيئا آخر. كانت قاتلة أخطأت هدفها!

●●●

قلت شاعرة، مسرفة فى الخيال.

لكنه مع هذا خيال لذيذ، يصلح قصة يتفنن فى كتابتها قصاص متخصص، وربما اتخذت هى نفسها هذا الموضوع مادة لقصة جيدة. ربما فعلت ذلك ذات يوم!!

●●●

ودارت رأس وكيل النيابة بين وجهتى نظر غريبتين.

كانت هذه أول مرة، يرى فيها واحدة، تصر على اتهام نفسها، وقد عاش حياته، يرى جناة يتفننون فى إنكار التهم التى تكون موجهة إليهم!

وكانت هذه أول مرة، يرى فيها متهمة فنانة، فيلسوفة، تناقش المسائل بالحكمة والفن، وتعترف!

كذلك كانت أول مرة يرى فيها مجنيا عليه ينكر أن أحدا جنى عليه.حتى المسدس المستعمل فى الحادث مسدسه، والطلقة التى كادت تمزق ضلوعه. اشتراها بماله، واليد التى

أطلقت الرصاصة، كانت تجرب دون أن تعرف أن فى المسدس رصاصا، ثم هى قد طاشت على كل حال!

وكان عليه أن يواجه المجنى عليه والمتهمة.

وكانت مفاجأة عمره!

●●●

أنا أريد أن أتزوجها يا حضرة النائب.

يتزوجنى.. هذا الجاهل؟

نحن متحابان حبا من طينة أخرى، يا حضرة الوكيل.

الحب لا يقوم على غش.

يا حضرة الوكيل.. لا شك أنك شاهدت ألوانا من الحب كثيرة، وأنك تعرف أن الحب والغيرة متلازمان.

هذه ليست غيرة يا سيدى.

كلهن يقلن هذا.. كلهن بغير استثناء.

قلت لا أريدك.. لا أقبلك زوجا.

نحن نضيع وقتك يا سيادة النائب، والأمر لا يعنيك.

بل أنت تضيع وقتك فى غير طائل.

لن أيأس من حبى. الحب لا يعرف اليأس.

هذا وهمك.

وهو حبى.

الحب لا يكون وهما.

لكن الوهم. قد يصبح حبا.

مستحيل. لا الوهم ولا الحب، بقادرين على التلاقى.

على كل حال الأيام بيننا.

●●●

وهز وكيل النيابة رأسه من المفاجأة!

لكنه أغلق ورقه، وأمام مختلف ظروف الحادث، كتب توصيته على الحادث، ليرفعه إلى رئيسه.

ولم تكن التوصية أكثر من.. الحفظ!!

وشعر مراد، وشعر مختار أن هذه نهاية غير طبيعية. طبعا والخبر على هذا النحو يصبح قتيلا.. جسم مفصول عنه الرأس!!

وصاح مراد فى زميله صاحب الخبر :

وتظن القصة تتم فصولا على هذا النحو المضحك؟

وصاح مختار يؤيد ما قاله مراد :

وتنسى أنك بهذا تسخر من الناس وتهزأ من عقلياتهم؟

ومضى مراد يعقب :

ولن يسامحك القراء على هذه السخرية...

قال المحرر :

وماذا تريدان لتتم القصة؟

قال مراد :

حكاية الشركة، والجمعية العمومية، والمجنى عليه، كل هذا هام جدا وخطير، ولابد للقراء من أن يقفوا عليه. أم تظن أنك تقدم شخصية الفاعل وتتجاهل المجنى عليه!!

قال المحرر :

أما المجنى عليه، فحكايته حكاية.. لكن أحذركما. لن ينشر شئ مما أكتبه عنه.

وصاح مراد :

كيف؟ ومن هو؟ ولماذا؟

قال المحرر :

يا أخ أنت شاعر.. أنت لا تعرف ما أعرفه.

قال مختار :

وأين حرية الصحافة؟ وأين حقوق الناس فى أن يعرفوا الحقيقة :

قال المحرر :

أنت أيضا شاعر مثله.. على كل حال، أنا مستعد للكتابة.. بالتفصيل.

قال مراد :

جميل ، وتكون قد أديت ما عليك.

وقال مختار :

وقد تكون متشائما أكثر من اللازم.

قال المحرر :

متشائم؟ طيب.. والله لأكتبن كل شئ، لترى من فينا المتشائم!

●●●

من الخير أن نبدأ الحكاية من أولها .

إن الحديث عن الماضى ليس عبثا دائما، ولا هو ضياع للوقت، إن فى مقررات المدارس والمعاهد والجامعات، علما عن الماضى، اسمه التاريخ ومن غير تاريخ، يتجرد الزمن من

جذوره الأولى، أو ينقطع عن أصله. المكان أيضا ينقطع عن رسمه، فتتوه معالمه.. الناس يضيعون فى متاهات لا أول لها ولا آخر.

إذاً نبدأ من الماضى، منذ كان المجد الكبير لأسرة المجنى عليه اليد اليمنى لبوليس مكافحة المخدرات، وكان فى الأصل من أشقياء الفلاحين، أولاد الليالى الساهرة، مظلمة أو مقمرة!!

كان طبيعيا أن تكون له مغامرات وسرقات ورقاصات وأنفاس تدخل الصدور بالمخدر، وتخرج منها بكل ما تبقى من عقل!

ومثل هؤلاء يعرفون رجال البوليس ويعرفهم رجال البوليس!

وليست العلاقة بينهما دائما علاقة عداء. القط والفأر أعداء، لكن الامر لا يخلو مع هذا من علاقات ود وصفاء! وفى أحيان يتعاونان! عند المحنة التى تهددهما معا يتعاونان.

كذلك البوليس والأشقياء. بينهما عداء وصفاء! بينهما حذر وإخاء!

ويقولون:

عندما يخيب اللص يصبح رجل بوليس!

وعندما يفتح الله على رجل البوليس يصبح لصاً!

وصاحبنا، جد المجنى عليه خاب.. تعب، وكبر وشاب وخاب فاشتغل فى آخر عمره رجل بوليس.

ولأنه كان شجاعا، وجسورًا، وغير هياب، صار هو الذراع اليمنى لبوليس مكافحة المخدرات.

كان يعرف التجار بالاسم، وكذلك المهربين، كان يعرف حيل التهريب وكان يعرف خطورة كل مهرب. يقولون أنه كان هو الذى ينصح بالهجوم على أوكار التهريب و"الصهينة" على أوكار أخرى!

وأنجب الرجل ثلاثة أبناء على شاكلته.

وأراد أن يكفل لهم حياة أحسن من حياته.

لم يكن يرضى لهم بحياة الليل، ومتاعبها، ومغامراتها.

كذلك لم يكن يرضى لهم بحياة البوليس المقفرة الشحيحة.

وتحدث مع الضابط والعساكر :

ماذا يفعل بالأولاد؟ مدارس؟ "مدارس إيه وبتاع إيه"؟! يكفى يفكون الخط! صبيان مع المهربين؟ حرام، وقد شهد بنفسه حياة الخطر التى يتعرض لها المهربون. فى الليل أو النهار، هم والخطر وجها لوجه. طيب يتركهم لحياة الليل، والمغامرة؟ يكفى واحد من الأسرة، وقد دفع هو الثمن عن جيلين أو ثلاثة من نسله.

وفى يوم من الأيام، كان الصول عبد الباسط الكبير فى بيته مع أولاده لا به ولا عليه، يتسلى مرة بضربهم، ويعفو مرة عنهم. ويضحك منهم من قلبه.. وإذا بهم ينادونه على عجل، لحضور ضبطية حشيش.

وذهب على الفور، يتقدمه كرشه، وكفه مبسوطة ليهوى بها على أى وجه يقابله، لكنه لم يجد وجه مهرب من المهربين، ولا وجه صبى من الصبيان. وإنما وجد وجها نحيفا، لا يتحمل الهواء.

وقال الصول عبد الباسط : وأين المهربون؟

قالوا له : هذا. هذا المسكين الضعيف.

ونظر الصول اليه طويلا، وهو غير مصدق عينيه.

●●●

أنت المهرب؟

أبدا والله.

أمال بيتبلوا عليك؟

والله ما ليه دعوة.

جابوك إزاى أمال؟

والله يا عم ما أعرف حاجة.

●●●

ودفعه من أمامه، ونادى أحد رجال القوة التى ضبطته ليعرف حكاية هذا المريض.

ماله ده؟

ضبطنا معاه حشيش.

فين؟

فى عربية.

وده له عربية؟

عربية كبيرة وبحمار.

عربية كارو؟

عربية زبالة.

آه.. والحشيش كان فى الزبالة.

أهو كده تمام.

طب ما هو جايز برضه ما يعرفش.

العربية عربيته.

تمام. عارف. لكن همه المهربين ما لهم ملاعيب كتير.

إحنا لنا الظاهر.

لأ لأ. دا واد غلبان باين عليه. مبقاش الصول عبد الباسط إن ما كانوش حطوها له.

●●●

وطلب عددا من المهربين..

القط طلب الفأر، فجاء الفأر، وكفه على قلبه.

فيه إيه؟

مين اللى عملها فى الواد ده؟

وإحنا إيش عرفنا؟

مش حعمل حاجة. بس أعرف.

ومفيش أى حاجة تحصل له؟

عيب. أنا خلاص متعهد مفيش حاجة تحصل له.

●●●

وقالوا له على المهرب الذى استعمل عربة القمامة لتهريب الحشيش. وتصرف الصول عبد الباسط بطريقته، وأخلى سبيل جامع القمامة المظلوم. المهم إن جامع القمامة، انحنى يقبل كفه.

الصول عبد الباسط شهم وإنسان، وله أحيانا مواقف طيبة. لكنه مع هذا لا يترك فرصة يستطيع أن يستفيد منها، ولا ينتهزها.

سأل الرجل عن صنعته، وأسرارها، وهل يكسب منها.

وأخذ يسمع كلاما عجبا.

دى دهب.

إزاى دهب؟

إنت فاكرها إيه؟ دا لها سوق كبير قوى.

سوق.. سوق للزبالة؟

الزبالة دى إيه؟ دى فيها شوك وسكاكين..

وتراب ووساخة، مالهاش لازمة.

ولا حاجة فيها، مالهاش لازمة. أبدا.

زبالة.هيه الزبالة إيه؟

أمال احنا بنعيش منين؟

من الحسنة اللى بتاخدها.

القرش والخمسة، وأكبر حاجة حتة بعشرة؟

أمال منين؟

من الزبالة.

يا خبر أنا مش مصدق.

دى لازم تتفرز يوماتى، ولها ولاد عارفين سر الصنعة، يطلعوا الصفيح لوحده، وعلب الكرتون لوحدها، والحاجات اللى تكون وقعت لوحدها، وورق اللف لوحده، وكل حاجة لها سوق مفيش حاجة أبدا تترمى.

ومين بقى اللى بياخدها؟

تجار.. تجار عارفين قيمتها.

يا خبـر يا أولاد. دا أنت أتاريك نايم على ودانك يا عبـد الباسط.

زى الشـحـاتين. همـه الشـحـاتين بيـرمـوا حـاجـة. دول بيفنطوا المحصول زى الزبالة تمام، ولكل حاجة تجار.

●●●

واتفق الصول عبـد البـاسط، مع صـاحبنا علـى أن يلحق أولاده الثلاثة فى هذه الصنعة.

وهوه الشغل فيه عيب؟

ما عيب إلا العيب.

والمهم إنهم يبقوا كسيبة..

يقولوا زبالة مش زبالة، المهم يكسبوا.

ومش أحسن من شقاوة الليل.

والا التهريب.

والا الصياعة على القهاوى.

همه يعنى حيبقوا إيه. أبوكاتية؟ يالا..

●●●

وصار الأولاد الثلاثة من جامعي القمامة. لكل منهم حمار وعربة، وحى يدور عليه، يجمع القمامة. ومن خلال صولة الصول عبد الباسط، لم يستطع جامعو القمامة الآخرون أن يفعلوا لهم شيئا. أبدا وإنما أخلوا لهم الاحياء الثلاثة، ورحبوا بهم خوفا من الصول عبد الباسط من ناحية، وتحية له على موقفه من زميلهم المظلوم من ناحية أخرى.

●●●

الأول والأكبر كان "يس"، وكان من نصيبه جزء من حى عابدين.

والثانى الذى يليه كان يدعى غالى، ورسا عليه جزء من العباسية.

أما الأخير، فكان شعبان، وهذا تركوا له ميدان العتبة الخضراء.

.. وبرغم أن الصول عبد الباسط، لم يكن يملك شيئا، ليشترى لكل واحد عربة وحمارا، إلا انه استطاع أن يدبر نفسه، باع حلقا لزوجته، واقترض الباقى، وحصل من التجار على أسعار رخيصة، حبا فى سواد عينيه!

وبدأ الاخوة يسرحون على هذه الاحياء.

وكان عملهم يبدأ مع الفجر يتأهبون، ويمضى كل إلى غايته ليكونوا فى أماكن عملهم قبل شروق الشمس، فما إن ترتفع أشعتها لتملأ كبد السماء حتى يكون كل شئ قد تم. جمعوا القمامة فى العربات، وساروا بها إلى طرف الصحراء، ليفرغوها هناك للمعلم، ويحصلوا على المعلوم، ويعودوا حول الظهر ، بما حصلوا عليه.

والمعلم عنده نظر، يعرف كم تساوى كل عربة، ويدفع عنها مبلغا إجماليا، ورزقه على الله. قد تحوى العربة أشياء قيمة، وقد لا تحوى شيئا له قيمة، لا أحد يدرى! "دا سمك فى ميه!" ، ورزق، وسر لا يعرفه إلا الله.

لكن السريحة، لم يكونوا يرضون دائما بما يدفعه المعلم، فكانوا يطالبونه بزيادة المعلوم، لكن لم تكن الزيادة ممكنة دائما.

ليه.. وهوه أنا حجيب منين؟

من اللى بتكسبه يا معلم.

بكسب إيه؟ دى زبالة. هيه فيها إيه؟

فيها الخير كله يا معلم.

والله انتو لكم أجرة كل شهر.

قرش يا معلم؟ قرشين؟ خمسة؟ ودى فلوس برضه؟!

مش تحمدوه؟

حامدينه يا معلم. بس أولادنا؟ نسوانا؟ نعيش منين؟

●●●

وكان المعلم يزيد المعلوم لبعض السريحة، أو يسكتهم بلقمة تسد أفواههم مرة، لكنه فى أول الأمر وآخره، كان يحسب كل شئ، على أساس ما يكسبه منهم، يكسب يدفع، وإلا فهو غير مسئول لا عن أولاد أو مصاريف أو خلافة.

ويمرض سريح بالسل، ويتمزق صدره من الداء، ولا يستطيع أن يستريح، والمعلم "لا هو هنا ولا هو هناك".!!

ويتزوج سريح آخر، ويحتاج لقرشين يشترى بها "حصيرة ولحاف وصندوق". لكن المعلم يقابله بأذن من طين والأخرى من عجين!!

عالم غريب هذا، وكل واحد بذراعه!!

وتعلم الأخوة الثلاثة أن المسألة هى نوع من انتزاع الرزق من نفايات الحياة، وأن اعتمادهم يجب أن يكون على أنفسهم ليعيشوا.

كانت أيامهم الاولى نوعا من المجاملة للصول عبد الباسط، لكن قبضة الصول عبد الباسط تضعف مع الزمن، حتى لم يعد يخاف منه الناس، كما كانوا يفعلون.

لكنهم كانوا أولاد حلال! أذكياء وأقوياء وأصحاب حيل.

وسألوا أنفسهم : ولماذا لا يكونون هم أنفسهم معلمين؟!

لكن يس كبيرهم طلب إليهم ألا يستعجلوا.

وبدأوا على كل حال يسيرون فى الطريق الذى يوصلهم ليصبحوا معلمين. استعانوا بصبيان معهم. أولاد صغار يساعدونهم، مقابل بضعة قروش كل شهر!!

ثم بدأوا يمدون نفوذهم إلى مناطق مجاورة، لكن بذكاء شديد واحد يموت، أو يمرض، أو يعجز يحلون محله، فإذا لم يستطيعوا أن يحلوا محل بعض هؤلاء، شاركوا أولادهم الصغار، أو أغروا أراملهم بالزواج!!

المهم أنهم استغنوا عن المعلم، وأخذوا يستعينون بصبية يفرزون لهم القمامة، ويتصلون مباشرة بالتجار، ليشتروا هذه الاصناف.

وأدركوا أن هذه القمامة بالفعل ذهب!!

●●●

وصارت لهم عمارات وأملاك، وعربيات حنطور، وكارتات.

والمال يلد مالا!! والقرش يطرح قرشا!

وكان الأخوة الثلاثة معلمين من أولاد البلد، مصاريفهم محدودة؛ وحياتهم محدودة. إنما الشئ غير المحدود فيهم، فكان جمع المال واستثماره فى كل شئ!

وشهد الصول عبد الباسط أولاده الثلاثة، فى بداية العز والثروة.

وضرب كفا بكف، وهو يقول لهم فى سخريته المشهورة :

كل ده من الزبالة؟! العز ده أصله زبالة؟! والفلوس دى كلها أصلها زبالة؟! العمارات والأطيان ، والحناطير، والكارتات.. كل دى زبالة؟ ياسلام لو الواحد عرف أصل الحاجة، كان قرف منها!! لو كانت الريحة بتطلع فى الحاجة اللى الواحد يشتريها بيها، كان زمان عماراتكم ريحتها فسيخ، وقشر لون، وطبيخ حامض، وجزم قديمة، وصفيح علب بولوبيف!! ومين كان يرضى يسكن فيها؟ لكن الفلوس يا أولاد بتضيع الريحة. الفلوس نفسها لها ريحة ثانية. شوفوا ازاى بقيتوا. أحسن الواحد ينسى الزبالة دى، عشان نفسه ما تقومش عليه!!

وكـان الصـول عـبـد البـاسط يحـاول أن ينصح أولاده أن يكسبوا رزقهم بالحـلال، وألا يغـريهم المكسب، فيلجاوأ إلى مـصادر الثـروة حـتى لو كـانت حـراما. لكنه كـان يعود ويقـول لهم.

وهوه أنا حعمل لكم خوجة ما انتو عـارفين. أنا يا أولاد اشـتغلت مع ضبـاط وحـرامية. مع مهربين وغشـاشين ونور. وكل دول سـمـعـوا نصـايح كـتـيـرة، واللى عـاوزينه عـملوه!! الأبهـات بيضيعوا وقتهم مع أولادهم فى كـلام فارغ. لكن مـا هى دى كمان وظيـفـة من وظائف الأبهات. لازم حيـعملوها، ولازم الأولاد يسـمـعـوها ويعـدين كل واحـد بيـعـمل اللى فى مخة! دنيا! هيه الدنيا كده!

الزبالة جرت أعمالا أخرى مختلفة للأخوة الثلاثة.

دكاكين بقالة؟ صارت لهم دكاكين بقالة.

تجارة العطارة؟ ما المانع؟ شاركوا على دكاكين عطارة.

تاكسيات؟ ما دامت التاكسيات مضمونة المكسب، فلم لا؟

محطات بنزين؟ المهم تحقق كسبا. اذاً لم لا؟

كل شئ جائز، وكل مكسب مطلوب.

●●●

وجاءهم ذات يوم يهودى محنك، فقال لهم :

أنا جاى لكم بكنوز سليمان .!!

كنوز سليمان! وإحنا مالنا ومال كنوز سليمان؟!

إذا كنتو عاوزين السعد بصحيح. اسمعوا كلامى.

نعمل ايه؟

تفتحوا بنك.

يا خبر زى بعضه، إحنا حنفتح بنك؟ حتة واحدة؟

بس طولوا بالكم. أنا حقول لكم تعملوا إيه؟

إحنا بتوع زبالة. بنك إيه يا عم؟

بنك رهونات.

رهونات إيه؟

نرهن أى حاجة.

ودا بنك ده؟

أهو ده البنك اللي يكسب.

ليه؟

لانه بيتاجر فى مصايب الناس ويستثمر متاعبهم.

ودى انسانية دى؟

وهوه إنتو حتكسبوا بالانسانية؟

أمال بايه؟

المكسب أصله إيه؟

المكسب مكسب وخلاص.

المكسب أصله خسارة واحد تانى.

إزاى؟

لما بتبيع حاجة لواحد، مش بتاخد فلوسه.

لكن باديله بضاعة.

بتديله بضاعة بأكتر من ثمنها، وإلا متكسبش.

بس ده حلال.

حلال حرام. المهم إنك بتاخد منه حاجة فوق ثمن الحاجة.

طيب وده معناه إيه؟

معناه إنك بتكسب من خسارته.

ودى خسارة؟

أمال الزيادة دى إيه؟ إذا كنت عاوز تعدل خد تكاليف البضاعة بس.

وأكسب إيه أنا؟ أعيش منين؟

شفت. من خسارته. لازم تخسره عشان تكسب.

يا ابن الإيه؟ وبعدين.

دى بقة فى كل حاجة. اللى بيغتنى، بيغتنى على قدر ما يفقر غيره.

لكن مفيش واحد يغتنى كده وخلاص؟

إزاى؟

يشتغل ويكسب ويغتنى.

شوفوا بقه. الدنيا دى فيها ثروة محدودة للناس اللى فيها. زى اللحاف، تشده عليك، تعرى واحد تانى.

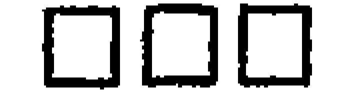
طب والبنك دا إيه؟

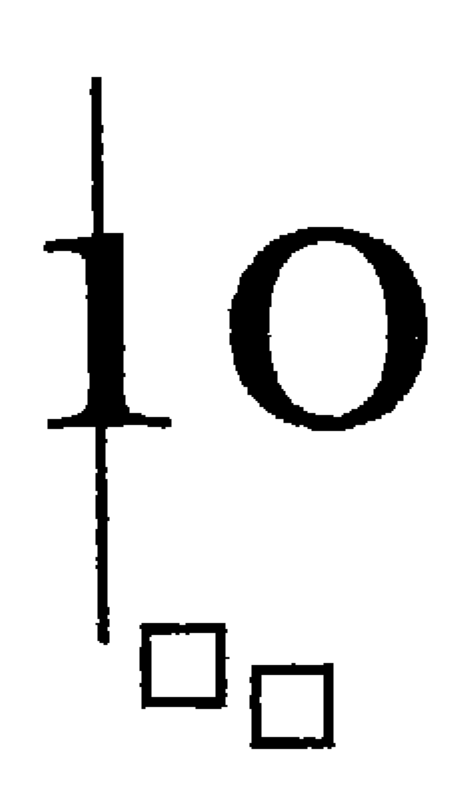
بنك رهونات.

نرهن فيه إيه؟

مصايب الناس. دموعهم. نكباتهم. تاخذ ثروة قصاد فلوس. تحل أزمتهم وتكسب معاهم. زى الحكماء. مش

بيعالجوا العيانين؟ طيب ليه بياخذوا فلوس؟ إحنا كمان فى البنك ده، حنبقى حكما، يجيلنا العيان نكشف عليه، ونديله دوا، والله إن خف خلاص، هو استفاد وإحنا إستفادنا. وإن مات يبقى عمره بقه!!





إذا كانت تجارة الضحكات من فضة،

.. فتجارة الدموع من ذهب!!

وكنوز الملك سليمان، وعظمة الإسكندر، وهيبة بونابرت، وملك فارس، وقوة الامبراطورية البريطانية فى عهد الملكة فيكتوريا، وقسوة الحجاج بن يوسف الثقفى..

كل ذلك وسواه من الرجال وأحداث التاريخ.. كله دون استثناء، غارق فى بحر من الدموع! الذين بنوا مجدهم، غمسوه فى الدموع ليقوم!

والضحكات لا تبنى مجدا! ولا السعادة، ولا البهجة! أما التجارة الرابحة، المحققة النتيجة، فهى تجارة الندم، والحسرة واللوعة، والمحنة، وكل تلك مواد معجونة بالدمع!

السوق السوداء، هى أكثر أسواق التجارة ربحا.

والسوق السوداء، معناها التهريب، والغش، والتجارة الحرام، وزبائن السوق السوداء، يرفلون من الحزن فى

السواد. يأخذون مضطرين، ويقترضون ليشتروا. خائفون مذعورون، لكن يشترون.

والأزمة هى وحدها القادرة على استخراج الأموال من حيث تكون. من مخابى الطوارئ، أو المجوهرات، أو من قرض أو ميراث. المهم إنه لولا أزمة تكون طاحنة أو ساخنة، فإن شيئا آخر، لا يستطيع أن يستخرج الأموال من بطن الزمن.

وعند المحنة، يحدث أى شئ.

بيع أو شراء أو رهن أو ما يكون، والمهم أن يحصل أصحاب المحنة على ما يواجهون به المحنة، ليفكوا الأزمة، بأى ثمن، وعن أى طريق!!

وتجارة السلاح هى أروج تجارة.

والسلاح يقتل، ويسيل الدم، ويسفك الأرواح، ييتم الأطفال، ويرمل النساء، ويروى الأرض، والحدود، بالدموع!

والمراثى هى أخلد الأشعار.. والحان التباكى، هى أعمق الألحان.. وأغاريد الفراق، وأغانى الشجن، هى ما يرددها الناس!

وقلما يخلد بيت من الشعر سعيد، يتحدث بالنشوة!

وقلما نجد شاعرا شق طريقه إلى الشهرة بالبسمات!

.. بل هى الدموع، الطريق إلى القلوب!

.. وثورات الحرية، هى أصلا دموع الأحرار تفجرت ثورة.
وزعماء الحرية، يتقنون صياغة هذه الدموع فى خطب وأعمال!

والذين يموتون يصبحون شهداء، توضع على مقابرهم الزهور.

والذين ينتصرون، تصدأ بطولاتهم، فى مكاتب الحكام!!

.. والأذكياء من الساسة، يتصدون للمحن، ليثبوا منها إلى ما يريدون. يبنون من حطام الضحايا، القصور!

وأذكى من هؤلاء، الذين يصنعون المحن، ليتصدوا لها ، يعومون عليها إلى تحقيق ما لهم من منى.. وأحلام!!

ما من واحد حقق أحلامه على تل من الابتسامات!

.. ولا السعد، أو الهناء، أو راحة البال، بقادرة على أن تحمل واحدا إلى الغنى أو الثراء، أو السلطة والنفوذ!!

السعداء يكتفون بأنهم سعداء.

والذين يضحكون، قد تموت من كثرة الضحك قلوبهم.

... ولو أن طريق العشاق كله مفروش بالورود، ما خلد لنا قاموس الحب، كلمات الهجر، أو شكاوى اللوعة، أو لهب المحرومين.

ولو عاش جميع الناس أصحاء، فى جميع الأوقات، ما ورثنا هذا التراث الهائل من صياح المأزومين، ممن لا يعرف النوم إلى جفونهم الطريق!

●●●

هذه دنيا.. الدموع!

أشهر مطربيها.. يبكون!

وأحب مطرباتها إلى الناس، أكثرهن قدرة على تصوير اللوعة!

وأروج البضائع.. الدواء.. أو المخدر، القادر على تخفيف الآلام!

... وساستها، أقدر الناس على مسح الدموع.. وأقدرهم كذلك على استدرار الدموع، ليمسحوها!

... وأشهر قادتها، هم أولئك الذين يأتون للناس بالوهم، يمسحون فيه الدموع على الضحايا!!

●●●

دنيا غريبة، وأغرب منها من فيها من الأحياء!

وكم يصفق الناس للذين يبكون على محنتهم!

وكم يثرى هؤلاء المتباكون، عندما يختزنون الدموع، لوقت حاجة!

.. أبطال ثورات التحرير كذلك، يحولون دموع الناس إلى صيحات، وأحيانا إلى طلقات!

●●●

التاريخ مكتوب بالدموع.

وصفحاته كلها دموع فى دموع!

ومن دمعه إلى دمعة، يتنقل التاريخ، من عصر إلى عصر، أو من مكان إلى مكان، لكنه فى كل تنقلاته، لا يعيش إلا فى برك الدمع الحزين!!

وأذكياء الناس يقيمون تجارتهم على الحاجة.

وعندما يجوع الناس، يدفعون أى ثمن للطعام!

.. وعندما يمرضون، يدفعون أى ثمن للعلاج!

.. وعندما يمرضون بالشهوة، قد يقتلون لتحقيق الشهوات!

والشهوة دمعة.

والنزوة أيضا دمعة.

والحقد الكامن فى النفس، دمعة.

والغل الأسود أيضا دمعة.

وحنين الناس إلى الحزن

والعشق الكامن فى اللحن.

وصدى مكتوم لكن فى القلب يطن.

.. بالفن.. للفن.. نعم للفن.

والدمعة فن

والفن دموع

يتدفق كالينبوع

وإذا الدمعة غنوة

تثمر ثمرة

تنبت ثمرة

وتفوح أريجا كالعنبر

ويكون لها طعم السكر

●●●

والدمعة قد تغدو.. ثورة

والثورة تلد الشهرة

والشهرة قد تصبح ثروة

ومن الثروة تثب النزوة

والنزوة أصل المحنة

وتعود المحنة دمعة

تندم أو تتحسر

.. أو تتكسر أو تتحدر!

فوق القلب المحزون.. دمعة.

وتعود الدمعة.. دمعة!

تنزف من قلب الأحزان.. دمعة!

تتهاتف وسط الأشجان.. دمعة!

تتنادى أو تتهادى.. دمعة!

تطلب رحمة جبار.. دمعة!

أو تتوارى فى المنديل.. دمعة!

أو تطلب عونا لتجف ،

أو تستجدى قرضا لتخف ،

والبنك يلبى

.. ويربى

لتزيد الدمعة.. دمعة!

والبنك يباركها.. دمعة!

●●●

وشهد بنك الرهونات الجديدة ألوانا من الدموع لا تحصى!

صار هو الآخر بنكا يعوم فى بركة من الدمع!

وعاش الأخوة الثلاثة يجمعون هذه الدموع، كما يجمعون القمامة!!

هذه مخلفات الانسان، وتلك مخلفات القدر!!

وكما كانوا يفرزون القمامة فى نوعيات، لعرضها على التجار، فكذلك كانوا يفعلون بالدموع.. إنها أيضا تحتاج إلى أن تفرز.. لتعرض فى الأسواق.. فى مزادات.. ربما.. فى السر، دون أن يعلم أحد.. ربما.. بفضيحة يتحدث عنها الناس، أو فى صفحة تحفظ على الناس الكرامة والكبرياء.. كل شئ مرهون بظروفه!!

وبنك الدموع كالمنشار، " طالع ياكل، نازل ياكل"!

الرحمة عنده بثمن.. والقسوة أيضا بثمن. المعاملة تختلف من حالة إلى حالة، وهى دائما مرتبطة بالمصلحة، محسوبة بالمليم.. تكسب بالذوق، اذاً تصبح المعاملة كلها ذوق ورقة وإنسانية. تكسب بقلة الذوق، يتجرد كل شئ من أى شئ فيه كياسة أو سياسة أو لين!

عندما تفيض الدموع، تمتلئ خزائن البنك بالذهب!

وعندما تنضب الدموع، يصاب أصحاب البنك بالهستيريا!

ويعود اليهودى البغيض من غيظه، ويذهب ويجئ لا يعرف كيف يهدأ ولا كيف يستقر.

"والمعلمين" الثلاثة يرون اليهودى، وقد فقد وعيه على هذا النحو البشع فتمتد إليهم العدوى، ويصابون بالسعار.

والويل للحالات التى يكون فيها البنك ينتظر فيها تسويات أو سداد بعض أقساط الأرباح، أو أرباح الأرباح. إن حالة جفاف الدموع فى المآقى تجعل هذه الحالات، هى الحالات الوحيدة التى أمام الذئب، ينهش لحمها فى شراهة وجشع.. ليس أمامه سواها، وليس يسد جوعه إلا أن ينهش لحمها فى وحشية ومرارة!!

●●●

ومن خلال بنك الدموع، تعرف "المعلمين" الثلاثة على ناس جدد، من أصحاب الأصل العريق، لكن الزمن عليهم جار.

ووجد "المعلمين" الثلاثة أنهم أمام نماذج انسانية فريدة.

وفى حالات، كادت قلوبهم أن تلين، لولا أن اليهودى الذى كان يدير البنك، كان يحذرهم من أن يديروا البنك بقلوبهم!

القلب والبنك شيئان متناقضان. لا رقة فى البنك، ولا عواطف... ألا تفهمون؟!

هكذا كان اليهودى يصيح، وما كان على "المعلمين" إلا أن يذعنوا لهذه الصيحات، ما دام فيها المكسب والثراء!!

●●●

هذه السيدة مسكينة، ترملت قبل الأوان.

زمن!! هكذا يقول المعلم الكبير يس.

أتت لبنك الرهونات، تودع مصوغها كله، لترهنه مقابل مبلغ كبير هى فى أشد الحاجة إليه. والمصوغ جميل ورائع! من صنع فرنسا وهولندا واستنبول، وبلاد من الشرق والغرب كثيرة ومتنوعة.

هذه أسورة، لو وضعت حول رسغها، إذاً لصار الرسغ قطعة من الجنة، هبطت إلى عالم المحرومين!

والحلق اللولى، رقيق ودقيق وبديع، وعندما يتدلى من أذنيها هاتين الشفافتين، فلا أحد يملك نفسه، من إرسال آهة عميقة تحمل الأسى واللوعة.

والكردان الماس، المحلى بأحجار نادرة.. هذا شئ لا يمكن تصوره حول هذا الجيد من المرمر، ينساب كقطعة من النور تتوه فيها النظرات.

والخواتم وفصوص من الأحجار الكريمة، ودبابيس شعر، ودبابيس صدر، ودبابيس ماذا؟ شفاه، جباه؟ دبابيس قلوب، تربطها فلا فكاك!!

وغيره وغيره، مما يلمع ويخطف الأبصار.

وسال لعاب اليهودى الحاذق.

ونظر إلى الأرملة الحلوة، الحزينة مع ذلك، يقول لها :

كل هذا؟.. هذه ثروة.. ثروة.

ولم ترد! الأرملة كانت حزينة إلى درجة أنها لم ترد!

قال لها اليهودىَ المأخوذ :

ومحتاجة إلى كم؟

قالت فى ألم :

عشرة آلاف.

قال اليهودى :

"بس؟".

قالت فى هدوء

وربنا يقدرنى أرجعها فى الموعد.

وكان المبلغ يزيد على أساس المدة، وعلى أساس قيمة الرهونات المودعة، وعلى أسس أخرى، يضعها اليهودى الخبيث.

قال اليهودى :

وعارفة حيرجعوا كام؟

قالت :

لأ .. قل لى أنت.

قال ونظراته تائهة فى جسمها الفاتن، لا تدرى أين تستقر. كل شئ جميل. الوجه ملئ بالسحر. كل جزء فيه ساحر. كل ركن. كل لفتة. والجسم أشد سحرا . الحركة والوقفة والسكون. كل ذلك فيه فتنة فوق المقاومة.

وكان المعلم يس أكثر التصاقا بها .

وشعر أن نظرات اليهودى تنافسه، فغار من هذا الصعلوك الذى يبيح لنفسه جسد أرملة حزينة .!!

وأخذ يتأمل المرأة التى أمامه، ويتأمل اليهودى!

حتى أنت أيها اليهودى التعس! حتى أنت يا عبد المال، كفرت من أجلها : بربك، المال؟! حتى أنت يا حجرا أصلب من حجر الصوان، لانت أطرافك لها؟!

وظل المعلم يس ينظر إليها وإليه، ويراقبها ويراقبه.

وبعد لحظات قال اليهودى :

إنت ناوية تسددى.. إمتى!

قالت فى أمانة :

ست أشهر.. كويس؟

قال اليهودى، وقد استعاد روح اليهودى فيه!

زى ما يعجبك. ما أنت عارفه.. كله بثمنه.

قالت فى هدوء :

ربنا يقدرنى أرجع الفلوس بعد ست أشهر.

قال اليهودى :

إن شاء الله تقدرى.

قالت هى :

وحيبقوا كام؟

قال فى صرامة وجد:

حداشر ونصف.

ولم تعقب عليه بشئ. هزت رأسها فى هدوء وسكتت. بينما اليهودى يكتب أوراقه، ويعد كل شئ، ويراجع

المستندات، التى قدمتها. وبينما المعلم يس جالس فى مواجهتها يتأملها..

●●●

هل كان هذا الهدوء الذى بدا عليها، نوعا من الضغط أو المرض؟!

هل كانت منصرفه عما تواجه من أزمة، بما تجمع فى نفسها من رواسب المأساة التى تعيشها؟ هل كان للترمل فى هذه السن الصغيرة أثره عليها، فلم تستطع أن تتكلم أو تعقب؟

على أنها فجأة شعرت بدوار، فأغلقت عينيها، وراحت تترنح.

وأسرع المعلم يس. وأسرع اليهودى. كل منهما أسرع نحوها يحاول أن ينقذها من هذا الدوار.

وكان سباقا مضحكا بين الرجلين.

هذا يضمها إليه، وذاك يربت على خدها!

هذا يتحسس شعرها الحرير، وذاك يمسك بيديها بين كفيه!

هذا يسألها فى حنان، وذاك يهمس لها فى وله!

هذا .. وذاك.. وهذا .. وذاك.. وهى، الحلوة الجميلة، بينهما تعانى الدوار، والسأم.. ولم تكن فى حالة تسمح لها بالرفض، أو التمنع. وشبع المعلم يس لمسا، وشبع اليهودى همسا!. ونال من خد يرتاح من أنفاس تتردد فوق شفتيه، ونال ذاك ما نال من خد يرتاح فوق يديه!

ولما أفاقت ، عاد كل منهما إلى مكانه.

وظلت هى، فى أريكة وثيرة، ذابلة العينين.

قال اليهودى بعد أن رتب كل شئ :

خلاص.. توقيعات بسيطة وتستلمى.

ومدت يدها لتتسلم قلما وقعت به ما شاء اليهودى من أوراق. ثم مدت يدها إلى حقيبة من البلاستيك تحوى المبلغ الذي تريده، ووقفت، وهذا يسندها من هنا، وذاك يسندها من هنا! وهذا يربت على ظهرها، وذاك يمسك بيديها، وهذا يحاول ضمها إليه، وذاك يحاول أن تكون أقرب اليه، حتى وصلت إلى سيارة تاكسى كانت فى انتظارها.

ولما ركبت ومضت السيارة، لم يجد المعلم يس أمامه إلا اليهودى، فزم فى وجهه شفتيه! ولم يجد اليهودى أمامه إلا

المعلم يس، فلوى وجهه عنه! وعاد كل منهما إلى مكانه من البنك، والنار تأكل جسده! كانا تائهين، شاردين، حائرين.

وكان كل منهما ينوى نية.

والنية كانت واحدة.

.. والغريب أنها تمت فى وقت واحد.

●●●

فى المساء، وبعد أن أقفلوا البنك، وعاد كل إلى داره، ارتدى المعلم يس أجمل ما عنده.. وكذلك فعل اليهودى.

وخرج كل منهما من داره، إلى العنوان، الذى كتبته الأرملة الحلوة فى أوراق الرهن.

وأمام بيتها، تقابل المعلم واليهودى.

تظاهرا أول الأمر أن أحدهما لم يرَ الآخر!

ثم لم يكن من الممكن أن يستمر تجاهل كل منهما للآخر، فتقابلا وجها لوجه. وبدأ يتحدثان حديثا عجبا.. باللا معقول؟

●●●

.. أتعرف.. هنا.. كان لابد.

أسنانى تعيسة جدا.. هناك.. ما رأيك أنت؟

شوف.. الحقيقة تريد شيئا غير هذا.

تمام تمام.. عندك حق.. وذاك الشئ هناك.

.. لا لا.. هذا كان صاحبى.

●●●

باللامعقول، جرى الحديث! ويظهر أن اللامعقول كان أول لغة ظهرت على الأرض! ثم تحدثا بالمعقول.. الملفوف! بالرمز، ولا بد أن الرمز تلا اللامعقول!

ثم تحدثا بالمعقول.. الواضح الصريح!! بالواقعية، وهى أرض الحقيقة!

وعرف كل من صاحبه أنه قادم لها. ولم لا؟ حلوة ولذيذة.. وأرملة! نعم ولم لا؟ واحدة مثلها محرومة، وعيب أن تظل محرومة!!

واتفقا على أن يذهبا بالدور.

ليه يا أخى؟

عشان عيب نروح كده إحنا الاثنين.

افرض بنزورها.

طب ليه ما بنجريش فرادى. أى واحد فينا يروح الاول.

طب أروح أنا.

لأ أنا.

لأ أنا.

طب بالقرعة.

وكانت القرعة من نصيب اليهودى، فصاح المعلم يس!

حتى فى دى بختك ضارب!

ومضى اليهودى إليها وحده هذه المرة، وأتفقا على أن يكون ذهابهما بنظام المناوبة!!

لكن قلب المعلم يس لم يطاوعه! يدعه يذهب هكذا وحده؟!

"طب ما خلاص. ينفرد هوه بيها، وتبقى باضت له فى القفص، لكن لأ".

ونوى المعلم يس على أن يفاجئه معها بعد قليل.

وأخذ المعلم ينتظر، لكنه فؤجئ باليهودى يعود إليه وهو مرتاع، وهو يصيح فيه. يهزه ويصيح :

مفيش حد هنا بالاسم ده. مفيش حد هنا بالإسم ده.

ولم يفهم المعلم شيئا. ظل صامتا يراه على قدر شديد من الانفعال ولا يفهم شيئا. وظل اليهودى يصيح :

إنت عارف ده معناه إيه؟ معناه إننا وقعنا. ضعنا. راحت فلوسنا. لازم الحكاية فيها نصب من الأول للآخر.

وشد المعلم من يده، وهرعا إلى البنك.

ولشد ما كانت دهشتهما عندما اكتشفا أن المجوهرات كلها "فالصو"!

لكن أنا فحصتها؟ ومتأكد أنها كانت مجوهرات نادرة.

فحصتها والا فحصت جسمها وتهت فى مفاتنها؟

من فضلك. هذه كارثة! وفضيحة أيضا.

وخسارة عشرة آلاف جنيه.

أحد عشر الفا ونصف.

لأ.. عشرة.

لأ حداشر ونصف.

كيف هذا؟

لا بد من حساب الأرباح التى كنا سنكسبها.. كاملة!

ضحكت علينا بنت الأبالسة.

وطبينا زى الجرادل.

.. ويا ريتنا طولنا حاجة..

إلا ما فيش..

أتارى التاكسى كان مستنى.

ونقول إيه بس لغالى وشعبان؟

قول لهم خيبة.

والله دى عين وصابت.

عين مين؟.. ما إحنا السبب.

●●●

واستمر المعلم يس والخواجة ينتظران.

يمكن!!

حيمكن إيه؟

يمكن تكون شريفة وتيجى!

●●●

لكنها لم تحضر، ومرت الشهور الستة، وبعدها ستة، ثم ستة، والمجوهرات القالصو فى الخزائن، واليهودى يتحسر، والمعلم يس يهز رأسه فى أسى، وزبائن البنك يدفعون الثمن، فقد رفع البنك سعر الرهن ليعوض هذه الخسارة!!

●●●

من يومها، واليهودى قد استعاد روح اليهودى فيه، فتولدت عنده مناعة ضد الجمال، والفتنة!!

وكذلك المعلم يس.. إلا إذا كان متأكدا من خطواته! عندئذ يكون الاستثناء!

ما بلاش استثناء يا معلم.

أصل الدنيا كده تبقى ثقيلة أوى.

وتعرف ده من ده إزاى؟

لا برضه بيبان.

كان ده كمان بان.

لأ.. دى كانت حاجة ثانية.

عشان سخسخت وعملت دايخة؟

لأ لأ. دى كانت دايخة بصحيح!

ولطشت الصيغة الحقيقية وحطت بدالها فالصو وهية دايخة!

لكن المعلم يس، مع هذا ظل زائغ النظرات. وكان يعلم أن بنك الرهونات زبائنة جميعا من الذين نزلت بهم محنة. فإن يكن نساء. فانهن يدخلن البنك، وهن يخفين فى مآقيهن الدموع. وهؤلاء يسرهن العزاء. كلمات العزاء تنفذ إلى قلوبهن الرقيقة، والتأسى يفعل بهن فعل المخدر!! وعندما تتخدر امرأة حزينة، فإن المعلم يس يصاب معها بدوار!

●●●

المعلم غالى كذلك كان ذواقة!

كرشه يدل على أنه أكول. يخطف الطعام من المطبخ، ليذوقه، قبل الوجبات!

وعيناه المسبلتان، كأنهما فى حالة نعاس دائم، وأحلام!

وأحلام المعلم غالى فى الطعام، والشراب، ولذائذ الحياة، من كل نوع! وهو لا يفتح عينيه، إلا عندما تصبح هذه الأحلام حقائق! عندئذ تتحول كل عين إلى فنجان، وله كذلك أذنان!

وهو يجلس فى البنك شاردا كالشعراء، فإذا دخل عجوز، يبحث عن قرض يسد به مصرفات أولاده فى كليات الجامعة، فإنه يزداد شرودا، وكذلك إذا دخلت سيدة تتوكأ على عكاز، أما إذا دخلت غزال.. تثب فى خطوها ، فانه يثب معها! يتحفز ثم يثب! ويتحول الشاعر فيه إلى فارس رشيق، عيناه مفتوحان، تتحركان بحديث كله ود وكله اعجاب. ويزول الوخم، ويصبح المعلم غالى أخف من العصفور.

●●●

وشاع عن المعلم غالى أنه زير نساء، وأن أية زبونة معقولة، لا تسلم من معاكساته، ومداعباته، ومحاولاته كذلك.

ودخلت البنك ذات يوم واحدة حلوة ولطيفة.

كانت تسبقها ابتسامة جميلة مشرقة.

وصحا المعلم غالى بطبيعة الحال، وأسرع نحوها يسأل ويستفسر. وصح ما توقعه منها. كانت طيعة جدا..

يضحك.. تضحك!

يتغزل.. تستجيب!

يتلطف.. تتدلل!

فلما أراد أن يصحبها، لم تمانع، إلا بما تزيده رغبة وإصرارا.

أنا زوجة. هل تعلم هذا؟

و"ماله؟ هوه عيب" أن تكون الواحدة زوجة؟

لأ.. لكن زوجى.

وأنا أيضا زوج. أقول "مراتى"؟

وعاوز منى إيه؟

ما أنا حقول لك.

فين.. تقول لى إيه؟.. وفين؟

فى الحتة اللى إنت عايزاها.

عيب. إزاى بس؟

●●●

وأدرك الرجل بخبرته، أن هذه دعوة، وهو لا يرفض دعوة أبدا. كيف يرفض، وهذا طعام بين يديه؟

وذهب معها. ركبا سيارة، وأخذا يدوران فى بعض الأحياء حتى انتهى الطواف إلى حى العباسية.

حى العباسية!!

حيث كان يجمع القمامة، فى فجر شبابه، حيث كان يدور على الأبواب، قبل طلوع الشمس، يجمع صفائح القمامة، ليضعها فى عربته، ثم يتجه إلى طرف الصحراء.

العباسية الآن تراه، مع واحدة ست فاتنة، فى سيارة!!

ووقفت السيارة أمام مسكن، فنزلت ونزل.

واتجهت إلى السلم، فصعدت وصعد.

وفتحت باب شقتها، فدخلت ودخل.

.. واستأذنت لحظة، لتعد ما يجب أن يعد فى مثل هذه المناسبة، وجلس ينتظر على نار.

لكنها لم تعد.. إنما التى عادت، كانت امرأته!!

العفريت الذى يخاف منه، ويعمل له ألف حساب، طلع له.. فى "البخت"!

وفزع، وصاح، وأخذ يولول، وهو يبرر ما كان فيه. وكان ما كان!

لكن المعلم غالى ظل مع هذا يقع فى مطب وراء مطب وراء مطب، ولا يتوب.

وظل يقول عن نفسه أنه يأكل من "طيبات ما رزقناكم"، كما كان يقول أن الأكل أنواع، وفى النهاية كله أكل. الطعام الجميل أكل، والفسحة الحلوة أكل، والرائحة الذكية أكل، والملبس الزاهى أكل. والمرأة الجميلة هى أعز الأكل.

المعلم غالى كان فنانا. أخواه أطلقا عليه هذا، لحبة للحياة الناعمة وللرفاهية. ومع الحديث عن فنونه العظيمة، كانا يحذرانه من الخراب الذى يمكن أن يصيب البنك؛ لو استمر يسرف فى الأكل والشراب والنساء.

كانا يرويان له أن شريكهم اليهودى لم يعد يحسب مصروفاته الكثيرة على البنك، وقال أنه سيخصمها عليه من أرباحه.

لكن المعلم غالى، كان يهز رأسه، وهو يتندر على اليهودى مرددا ما يقوله الأولاد عن بخله وشحه.

وعندما مرض المعلم غالى، وإشتد عليه المرض، ولازمه أخواه، وأخذ يبكيانه، والمرض ينهش فيه، كان هو الوحيد الذى يقدر على الضحك حتى من مرضه. وكان يقول لأخويه فى سخرية :

قولوا لليهودى بقه يبقى يخصم! يبقى يدور له على حد يخصم منه. آدينى سايبها له!

وبين نحيب الأهل مضى يقول :

أنا عشت بالطول والعرض. اللى حتعملوه إنتو فى مائة سنة، عملته أنا فى خمسين. عاوز إيه؟ أنا حعوز إيه؟ خلاص نبقى خالصين!

ومات المعلم غالى، بعد أن خلف ولدا سماه "سماح".

وقال المعلم يس لسماح، بعد أن وارى جثة أبيه التراب :

يا سماح يا ابنى أبوك ما ماتش. أبدا ما ماتش. أبوك حيعيش معانا على طول. أنا من دلوقتى أبوك. وسليم ده أخوك. هوه ابنى وابن أخويه إيه؟ سليم ابنى وانت ابنى وقمر الزمان كمان ابن أخويه شعبان ابنى. ربنا يخلى شعبان ويطول عمره، لكن شعبان أخويه نفسه ابنى. تبقوا كلكم أولادى.

واستمر البنك، واستمرت الشركة، ولم يتأثر العمل الواسع العريض الذى حققه الأخوة الثلاثة بشئ.

●●●

شعبان كان أصغر الاخوة الثلاثة.

كان ضامر البدن، كأنه شجرة سنط جفت. وكانت عيناه غائرتين، كأنهما ثقبان فى قطعة من الخشب القديم. لكنه كان ذكيا وخبيثا وقادرا على القيام بعدة أعمال فى وقت واحد.

ولم يكن اليهودى المكار، يخاف أحدا إلا شعبان.

وكانت للمعلم شعبان نوادر وقصص مع زبائن البنك. كانت لعبته المفضلة أن يصطاد الزبائن، ويأخذ منهم ويعطيهم، ويجرهم إلى أحاديث مختلفة، يعرف منها أسرارهم وأعمالهم ونواياهم.

●●●

جاءته مرة طالبة صغيرة ولطيفة، فانفرد بها، وأخذ يتحدث معها، ويسايرها ويداعبها، حتى عرف أنها ابنة وزير، وعرف حكاية الوزير، وقصته مع زوجته الجديدة، وكيف هجر أم الطالبة من أجل زوجته الجديدة، التى أخذ يغدق عليها باليمين وباليسار، حتى اضطر أمام الحاجة إلى الانحراف، واضطرت، هى وأمها، إلى أن يرهنا مصوغهما قطعة قطعة لتعيشا.

وحكت البنت للمعلم شعبان بعض نواحى هذا الانحراف، وعرف المعلم أسماء بعض الناس، من رجال الأعمال الذين تورط معهم الوزير، كما عرف أخبار بعض الصفقات، وكيف تمت.

وبعد أن وقف على كل هذه الأسرار، تقدم لعطاء كانت وزارة هذا الوزير قد أعلنت عنه، ولم يضع المعلم شعبان وقتا، فذهب إلى الوزير فى بيته، وبعد مقابلة قصيرة، خرج والعطاء فى جيبه.

المعلم يس كان يلاحظ هذا ويعجب ويسكت.

●●●

وفى مرة أخرى انفرد المعلم شعبان بخادمة ومعها أسورة من الماس، ولم يثر عليها، ولا خوفها، ولكنه أخذ يلاطفها، حتى علم أنها تقوم برهنها لحساب بنت الأسرة المراهقة، التى تريد أن تحصل على مبالغ مختلفة، لتسترضى بها صديقا لها، والبنت تلميذة فى مدرسة، والولد ابن ذوات عاطل، والعائلة كلها تراقب هذا الهوى وتضطهده، وتحاول أن تمنعه بكل وسيلة.

لكن هذه المعلومات لم تشف غليل المعلم شعبان.

كان يريد أن يعرف حكاية البنت والعائلة والولد العاطل.

وكان يقول لأخويه :

مفيش حكاية، ما وراهاش مصلحة. المسألة إزاى نحقق المصلحة. الناس مليانة حكايات، وفى كل حكاية حتة ممكن تعمل ثروة. ولو عرفنا الحتة دى. بقت كل حاجة سهلة وعال.

المعلم شعبان كان يتقن استغلال ظروف الآخرين، والضرب على آلامهم ومواجعهم. كان لديه أرشيف كامل عن خطايا الناس، ومن خلال الخطيئة والخطأ كان يحقق مطامعه، ويكنز الأموال حلالا أو حراما، أو من أى مصدر تكون!!

●●●

ونقط الضعف عند الناس كنقط القوة!

نقط القوة تملأهم عزة. ونقط الضعف تملأهم خزيا.

ومن القوة تكون القوة، ومن الخزى يكون الاستسلام.

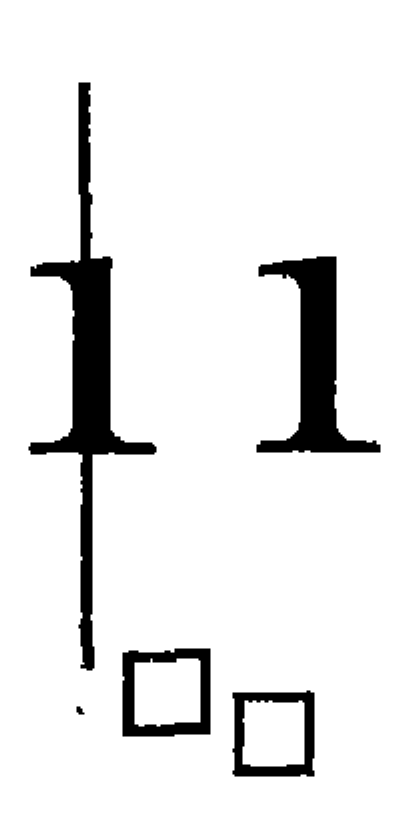
والمعلم شعبان يحب الاستسلام، لأنه وسيلته للتحكم فى الآخرين، ووضعهم فى جيبه، يستعملهم كما يشاء!

نماذج.. نماذج فريدة يشهدها البنك، "والمعلمين" الثلاثة والشريك اليهودى. ويتعامل كل منهم معها بطريقته الخاصة، ليحقق غرضه!

والناس مساكين، يقعون نهبا لهذه الأغراض جميعا، ويدفعون ضريبة الحاجة أرادوا أو لم يريدوا.

وأشد الضرائب ألما، ضريبة المظلوم، أو المقهور!

□□□



نموذج غريب من البشر، هذا الذى حكت الخادمة عنه، والمعلم شعبان يضحك ملء شدقيه، لكنه فى الوقت نفسه يفكر فيه، ويدور حوله بفكره، كما يدور الصياد حول الفريسة فى الغابة.

الولد صغير ووجيه. طوله ونحافته ووسامته، تجعل له جاذبية خاصة فى النوادى الرياضية.. والليلية أيضا.

يعرف كيف يرقص الرقص الكلاسيكى، والرقص الحديث، ورقص الغابات ورقص البحارة وكل الأنواع. وعندما يرقص يثير صالة الرقص كلها. الأولاد يغارون منه. والبنات يتهافتن عليه! وهو الفارس المغوار يترنح ذات يمين وذات يسار وكأن الأرض لم يعد عليها سواه!

أدخلوه المدرسة.. ولم تكن مجرد مدرسة، لكنها كانت مدرسة للذوات حيث لا يعرف الأولاد وسيلة مواصلات

إليهـا،إلا السـيـارات! المدرسـون فـقـط هـم الذين يعـرفـون خطوط الأتوبيس والتـرام التى تـوصل الـى المدرسـة! وفـى أوائل الشـهر، قـد يستعمل المدرسون سيارات التاكسى، لكن فى الثلث الأخير من الشـهـر، فكلهم دون استثناء، يتسلقـون سلالم الأتوبيس فى براعة لاعبى السيرك!

وفى المدرسـة، كـان عونى مـتـفـوقـا على كل الأولاد، فى العلوم، وفى اللغـات، وفـى الألعـاب كـذلك. كـان من تلامـيـذ الداخلية، الذين يدفعون مئات الجنيهات كل عام مصروفات، غـيـر مـصـروف الجـيـب، واللبس، واللعب، والتـسليـة فـى الكافتيريا بين الحين والحين. أما آخر الأسبوع فله مصروف خاص.

وكان والد عونى أحد كبـار ضبـاط الجيش، وكـان بدوره ينحدر من أصل عريق، ويقولون أن زوجته كانت أميرة تركية، من قـريبـات آل عثمـان، وكانت معـروفة بالبـر والإحسـان والتـقـوى، إلـى جوار مـا عـرف عنهـا من جـمـال رائع يفـوق التصور.

وعندما كان والد عونى يحضـر إلى المدرسة لمقـابلة مدير المدرسـة والاطمـئنـان على نجله، كـانت المدرسـة كلهـا؟؟؟.

والمدرسون يتبارون فى استعراض مواهبهم أمام الباشا. والسعاة يتبارون فى تقديم خدماتهم للباشا. حتى المدير يسيل رقة وهو يتحدث عن مواهب عونى، لوالده الباشا.

الباشا كان غنيا، وكان كذلك كريما. وكان هذا يكفى!

ومضى الطالب النجيب، يتنقل من سنة إلى سنة، حتى كاد أن يدخل إمتحان البكالوريا. وكانت كل الدلائل تشير إلى أنه سينجح، وسيكون من بين أوائل المتقدمين للامتحان.

وكان المدير والمدرسون يتوددون إلى عونى بالأحاديث التى تسبق الامتحان الأخير، فى المرحلة الثانوية.

طبعا ستصبح ضابطا كبيرا كسعادة الوالد.

أبدا.. يكفى الوالد. أما أنا فعندى اتجاهات أخرى.

طيب. تريد أن تصبح طبيبا؟

ولماذا؟. الأطباء كثيرون.

إذاً مهندس. تريد أن تصير مهندسا.

ولا هذا أيضا.

إذاً ماذا؟. ستلتحق بالسلك السياسى إذاً.

أبدا.. أبدا..

حيرتنا.. إذاً ماذا تريد أن تكون؟

معلما.. أقف مثلكم فى الفصل أعلم الصغار.

يا شيخ!! وتدرس ٢٦ حصة فى الأسبوع؟!

بل ٣٠ حصة إذا أرادوا.

وتمسك المسحة والطباشير، لتعمى عينيك؟!

وأصحح أربعمائة كراس فى الأسبوع.

وتتشعبط فى الترام مثلنا؟

وآتى على قدمى من آخر البلد أيضا.

لكن.. لماذا؟

لأحقق أمل أبى.

أمل أبيك أن تصبح معلما!

وأمل أمى أيضا.

هذا غير معقول يا عونى.

ولم لا يكون معقولا؟

من إذاً لوظائف الجامعة، وللمهن الراقية؟

هذه هى المهنة الوحيدة الضرورية الآن.

التدريس؟

نعم التدريس.

هذا كلام غير معقول.

والذى علمنى أن صورة مصر لن تتغير إلا إذا تغير الناس.

وهل بالتعليم تتغير صورة

نعم بالتعليم تتغير صورة مصر.

وبالطب أو الهندسة.. ألا تتغير؟

تتغير بأى نوع من العلم.

إذاً.. تستطيع أن تمارس أى نوع.

وكيف يتيسر العلم، بلا تعليم؟

لكن مهنة التعليم صعبة.

ولأنها صعبة، فسأمارسها.

درس فى الجامعة.

الجامعة نوع من التخصص، والتعليم فيها يخدم قلة.

إذاً تريد أن تعلم فى ثانوى.

وفى ابتدائى، وفى الروضة أيضا إذا استطعت.

شئ غريب .

أريد أن ابنى مـــصــــر. أريد أن أضع اللبنة الأولى فى أساس مصر.

لكن والدك ضابط.

ولهذا يعرف الحقيقة.

أية حقيقة؟

حقيقة الاحتلال، والحكم المستبد.

وماذا يقول؟

علمنى أن استعباد الجهلة سهل، لكن الأمر بالنسبة للمتعلمين يختلف.

هذا صحيح.

وقال لى أن الاحتلال دخل البلد من باب الجهل، وأن الحكم المستبد يعتمد على شئ واحد، وهو جهل الناس، وأن كل هذا الفساد أساسه، أن الناس لا يعرفون الفرق بين الحق والباطل.

صحيح تماما.

ولكى يتغير هذا الوضع، لابد من القضاء على الجهل.

وهل هذا ممكن؟

والذى يقول أنه شئ سهل، لو شعر كل متعلم بواجبه، واتجه إلى التعليم. لو فكر فى البلد، وفى مصيرها، وفى الظلام الحالك الذى يحيط بها وبأهلها.

ومن أجل هذا تريد أن تكون معلما؟

نعم.. وسأكون راضيا عن نفسى تماما، وحين أشعر أنى أنير شمعة، وأنا أعلم واحدا من تلاميذى، ومع كل واحد يتعلم، توقد شمعة، لتصبح مصر كلها شموعا تضئ حياتها ذات يوم.

نعم التربية يا عونى.

هذا هو الواجب الوطنى.

وهذا رأى الست الوالدة أيضا؟

والدتى أكثر تعصبا للتعليم من أبى.

هذا شئ هائل يا عونى. على بركة الله.

●●●

المدير والمعلمون كانوا يعجبون فيما بينهم وبين أنفسهم. كانوا يتصورون عونى هذا حالة شاذة لا مثيل لها فى المدرسة.

ولد غنى وذكى، ولوالده هذا النفوذ وهذا الثراء، ثم تنحصر آماله فى مهنة المحتاجين والمساكين؟!

يدخل المعلمين العليا مثلا؟ عونى هذا، وسيصبح من العشرة الأوائل فى البكالوريا، يدخل المعلمين؟ ويأخذ خمسة جنيهات إعانة مثل كل الطلاب؟!

كانت حالة غريبة فى المدرسة وشاذة.

وبرغم الخلاف الذى كان يدب بين المدرسين على أراء عونى، إلا أن الإجماع كان ينعقد على احترامها.

وجاء الباشا مرة ليطمئن على عونى.

وتجرأ المعلمون فناقشوه فى هذه الآراء، فأخذ يروى لهم حكايات واقعية عن الجيش المصرى وما يعانيه من تحكم الانجليز، وعن القصر الملكى وتدخله السافر فى شئون الجيش، وكيف يعانى الضباط المصريون من هذا التحكم، وكيف يعجزون عن تغييره.

وقال الباشا وهو يهز رأسه:

يخافون من شبح عرابى. لا يريدون "عرابى" آخر من بين صفوف الضباط. لا يريدون صيحة أخرى بالحق، يلتف حولها الضابط والجنود وأبناء الشعب جميعا: والفكرة يا أولادى أن تستمر مصر ضعيفة، تترنح من فقر الدم!

وجيش مصر هو الدرع، فاذا قوى، تحصنت مصر فى مكانها، من أعدائها! والمطلوب غير هذا. مطلوب أن تسير مصر وفق حسابات موضوعة لمدى طويل. تتطور فى إطار محسوب، وتتعلم بأسلوب مدروس، وتكون جيشا على نظام خاص، وتدار شئونها عن طريق فريق يتحكم ويعطى كل إمتياز ليضرب بقية الطبقات! شئ مذهل وغريب، والذين تضعهم أقدارهم فى مكان قريب من نواياهم وخططهم، ويرون العجب، فلا يجدون طريقة للقضاء على هذا كله، إلا أن يتعلم الناس، فإذا تعلموا، استحال على النظم المختلفة أن تستبد بهم واستحال عليهم هم أن يقبلوا الذل.

●●●

وكان المعلمون يسمعون، وهم يعجبون!

كانوا يشعرون باحترام نحو الباشا!

وكانوا يستغربون أن تصدر هذه الآراء عنه!

.. وعلى كل حال، فقد أخذوا هذه الآراء، على أنها كذلك تحية لمهنتهم هذه المتواضعة، فنسوا لفترة نكد العيش والحاجة، والشعبطة على سلالم الأوتوبيسات!

فلما بدأ تأثير هذه الجمل، يزول من آذانهم، فوجئوا مفاجأة غريبة، حملتهم جميعا على الصمت.

ذات صباح، والدنيا ربيع، وتلاميذ الداخلية قد فرغوا من رياضتهم فى ملاعب المدرسة، وأخذوا يتسابقون عائدين إلى حجراتهم ليستحموا قبل أن يرتدوا ملابسهم ويتناولوا فطورهم فى ذلك الوقت، وأشعة الشمس وليدة لا تزال.

اقتحم باب المدرسة عدد من رجال البوليس الحربى، المدججين بالسلاح، ثم التفوا حول الأبواب والأسوار فى شبه حصار.

وتقدم ضابط القوة يسأل عن حجرة الناظر.

ولم يكن الناظر قد أقبل بعد، لكن أحد المعلمين، وكان ينوب عنه، سأل عن حكاية هذه القوة.

وكاد المعلم ينهار لما علم أنهم يريدون الطالب عونى.

يريدون تفتيش حجرته، ودواليبه، ثم القبض عليه.

عونى؟!

نعم تلميذ عندكم اسمه عونى.

عونى هذا ولد مجتهد جدا ومتفوق.

لكنه شريك فى مؤامرة لقتل مولانا.

مولاكم... من؟

مولانا ومولاكم. جلالة الملك.

عونى شريك فى مؤامرة لقتل الملك؟

نعم وسيقدم للمحاكمة.

يا حضرة الضابط، أنت مخطئ.

لا أبدا بل أنتم المخطئون.

عونى الذى يريد أن يدخل المعلمين ليصبح معلما؟

لا أعرف هذا.

الذى يريد أن يعلم الناس لا يتآمر.

لماذا؟ ومن أين لك أن تعرف؟

لأن تغيير المجتمع بالتعليم، منهج مختلف كل الاختلاف عن تغييره بالتآمر.

غشكم المجرم.

غشنا؟. أنت لا تعرفه.

●●●

وقبضوا على عونى، وهو لا يزال بملابس رياضة الصباح، وفتشوا حجرته ودواليبه، وأخذوه.

كان يسير بينهم، والسلاح المدجج يحيط به، وهو يضحك! كان ينظر لزملائه، الذين تجمعوا والدموع فى مآقيهم، ويبتسم! كان أكبر من القوة المدججة بالسلاح! كان أقوى!

وعلمت المدرسة أن الباشا أباه، رفض تنفيذ الأوامر التى أصدرها له القائد الانجليزى، عندما طلب منه عدم تدريب الضباط الجدد على الأسلحة الثقيلة. وعندما رفض الباشا، توعده القائد الانجليزى، وأخذ يرسم خطة يتخلص بها من الباشا.

وكان أيسر السبل لتحقيق هذه الخطة، تزييف مؤامرة ضد الملك، وتجهيز وثائق تدين الباشا فيها، وتضعه على رأس مدبريها.

وعندما قبضوا على الباشا، وجدوا معه خطابا من ابنه يقول له فيه:

إنك يا أبى مثل أعلى لكل شباب مصر.

أنت ضابط كبير فى جيش مصر، لكن الرتبة الكبيرة لم تستعبدك، ولم تغير من روحك الوطنى الرائع. إنك مثل أعلى للضابط الذى لا يعرف معنى الذل، ولا الخضوع، ولا النفاق، أنت شجاع، وأنت جرئ، وأنت الذى سيحرر مصر.

وإنى لفخور بأن أكون ابنك.

سأحمل السلاح معك، بقلمى وعلمى، وسأحول كل طفل أمى إلى سلاح جديد، يحرر البلاد تحت قيادتك.

●●●

إذاً عونى شريك. لا بد أنه شريك.

.. وقبضوا عليه، بين دموع زملائه ومعلميه، ووضعوه فى السجن، ثم قدموه بعد أكثر من عام إلى المحاكمة.

●●●

لم يكن الطالب الفتى يدرى لماذا يحاكم؟ وأية تهمة منسوبة إليه؟

على أن الذى آلمه ومزقه بالفعل، أنه علم أن أباه مات فى سجنه.

كان بدوره قد قدموه لمحاكمة عسكرية، لكنه قضى فى سجنه. أما كيف قضى، وكيف مات، فتلك كانت قضية عونى!

عونى ما صدق أن موت أبيه قد كان طبيعيا. رفض أن يسمع أى كلام عن الموضوع، لكنه قابل كل كلام بالصمت والشرود.

وهو كذلك لا يدرى كيف انتهت محاكمته، ولا إلى أية نتيجة!

هو يعرف فقط أنها انتهت بصورة أو بأخرى، وأنهم تركوه يخرج من السجن، ليعود إلى بيته، ليسمع العجب.

أمه الجميلة الفاتنة، قد صارت حطاما.

والبيت الجميل المرتب، قد صار فوضى.

ومجموعات السجاجيد التى عنى أبوه بشرائها، قد صارت مطوية لا يهتم بها أحد.

حتى الحديقة قد صارت وحشية، لا ينتظم فيها نبات.

... وأدرك عونى الحقيقة، ولم ينبس ببنت شفة.

كفاه من أمه، دموع تتساقط كالمطر.. لا تقف أبدا.

وكفاه همس مكتوم أن وراء موت أبيه جريمة.. وهى جريمة كل يوم وكل ساعة، تحدث بصور مختلفة.. فى البيوت أو فى الطرقات، أو فى المكاتب أو فى السجون!

●●●

وهز رأسه، وهو يتذكر أباه، فى المرة الوحيدة التى قابله فيها فى سجنه، لم تكن مقابلة زائر، لكنها كانت مواجهة، بين اثنين من المتهمين. واحد باشا، من كبار الضباط، والثانى من تلاميذ البكالوريا. وكانت فى مكتب وكيل النيابة، وبحضور مدير السجن.

وعونى لا يستطيع أن ينسى هذه المقابلة أبدا.

لقد اندفع نحو أبيه، ليرتمى فى أحضانه، فمنعوه بالقوة.

كان عونى شديد التعلق بأبيه، شديد الحب له، شديد الاعجاب به، لكن ذلك كله لم يشفع له، فيتركوه يرتمى فى صدره، يشعر بعطفه عليه.

المهم أن المواجهة كانت زرية وعقيمة.

قالوا له:

هل تعرف أن أباك يتآمر على حياة الملك؟

وأجاب مذهولا:

أبى؟! متـآمـر؟! أبى سـيـد الدنيـا... أبى، هـو ربى... ومتآمر!!

وقالو له:

وإنك شريكه فى المؤامرة؟

قال فى حب واندفاع:

أنا شـريكه فى المؤامـرة.. أنا شـريكه فـى الدم. فى الحب فى هذه الرجولة التى لا تعرف الضعف أو اللين أو الانحناء.

وأسكتوه قبل أن يتم، وقالوا له:

هل تحبه؟

قال الفتى، وهو يكاد يثب إليه برغم كل القيود:

بودى لو أمـوت دونه.. ليـتـنـى أستطيع أن أفـتـديـه بدمى. ليتكم تقبلون روحى ثمنا لحرية الرجل الشجاع الحر.

وشـعـر عونى أن والـده، يكافح نفسه. يمسك بأعصابه حـتى لا ينـهار! كـان يعـرف أن أباه رجل عـاطفى، لكنه رجل

مبادئ مع هذا. وقد يقبل أن ينزل عن ثروته كلها، وعن لقمة عيشة، ولا يقبل أن ينزل عن مبادئه، أو آرائه.

ولكم رأى أباه، وعيناه تدمعان إشفاقا على حالات طرأت لناس من أقربائهم! ولكم رآه، وهو يتمزق ألما لكارثة أصابت أحد أصدقائه. أبوه رجل رقيق. شجاع. لكن رقيق. ولو كان أبوه فى حالته الطبيعية، ورأى ابنه على هذا الوضع، وسمعه يقول هذا الكلام، لانهار، لكنه لن يعطى خصومه هؤلاء فرصة شماتة فيه. إنه يعرفه، ويعرف هذا الطبع فيه.

المهم أن اللقاء انتهى باعادته إلى سجنه، ثم سمع بعدها نبأ وفاته.

الرجل الشجاع مات، لأنه شجاع!

الرجل الرقيق مات، لأنه رقيق!

الرجل الصحيح البدن القوى مات، لأنه صحيح البدن، وقوى!

●●●

هل يكونون قد قتلوك؟ دبروا لك على عادتهم طريقة تخلصوا بها منك؟ أم تكون قد انتهيت بعد أن التقيت بى؟

هل أكون أنا الذى قتلتك يا أبى؟

ولم يستطع عونى أن يمضى فى هذه التساؤلات.

●●●

خارج السجن، والدنيا نور، والشمس طالعة، وعونى لا زال يملك بعض الثروة، ومعه أمه الحزينة منطوية على نفسها تبكى ليل نهار.

●●●

وأقبل عليه زملاؤه لا يعرفون هل يواسونه لفقد أبيه الباشا، أم يهنئونه بالخروج من السجن.

مدرسوه كذلك زاروه، وهم يتلفتون حواليهم خوفا من أن يكونوا موضع رقابة البوليس.

وكان بينهم واحد قصير، وفقير، ولم يكن يملك إلا بدلة واحدة، يرتديها فى الصيف والشتاء، والخريف والربيع، فى المدرسة وخارج المدرسة، حتى لقد كان التلاميذ الأشقياء يذيعون أنه ينام بها كذلك!!

كان يدرس الطبيعة، ويهتم بالشرح والدروس والمعلم إهتمامًا بالغا، وقلما قبل درسا خصوصيا، بل كان فى حالات

ضعف تلميذ من التلاميذ، يرتب له وقتا إضافيا فى المدرسة، يشرح له فيه ما تعذر عليه أثناء الفصل. وحاول بعض الأولاد أن يقنعوه بإعطاء دروس، لكنه كان يرفض ذلك، برغم البدلة الواحدة التى لا تفارقه أبدا.

والناس قد تحكم بمظاهر الأشياء أول الأمر وقد يسخرون من بعض هذه المظاهر، فما يمر الوقت، وتتضح الحقيقة حتى يشعروا بإحترام شديد لما كانوا يسخرون منه.

وهكذا كان الأستاذ حامد، والتلاميذ.

بدأوا يسخرون من بدلته الواحدة.

لكنهم لما عرفوه، بدأوا يحترمون مبادئه وآراءه التى لا يحيد عنها أبدا. بل وبدأوا يشعرون بضآلة ما يملكون من الثروة أمام هذه البدلة الواحدة!

الأستاذ حامد هو الوحيد الذى كرر زيارته لعونى، وأبدى له ودا وحبا وعطفا، فاق ما كان ينتظره منه.

●●●

وفى مرة كانا وحيدين فى الصالون فدار بينهما حديث عجيب.

يا عونى لا تيأس من شئ.

أنا لست يائسا، لكنى حائر.

مم؟

من نفسى، ومن أمرى.

هذا كلام لا وضوح فيه.

أقول لك الحقيقة. أنا قتلت أبى.

أنت مخطئ، وأبوك ليس الوحيد الذى قتلوه.

من.. من يا أستاذ حامد؟ من هم الذين قتلوه؟

الذين قتلوا أباك، هم الذين قتلوا كل رأى، وكل عقيدة.

لكن. الرأى شئ، وأبى شئ آخر.

أبوك كان صاحب رأى. كان يريد إصلاح الجيش. كان يرفض تنفيذ التعليمات.

لأنها كانت تعليمات مشبوهة.

ومن أجل هذا كان عليهم أن يقتلوه.

والعمل؟

اصبر.

لا أستطيع.

وماذا تريد؟

أن أنتقم لأبى.

تنتقم لأبيك، هذا شأنك. أما ان كنت تريد أن تحمى كل أب قد يتعرض لما تعرض له أبوك. إن كنت تريد أن تحمى مصر، فهذا شئ آخر.

وما الفرق يا أستاذ حامد؟

الفرق بين وواضح.

فإن كنت أريد ما تقول عنه؟

فى هذه الحالة يتغير الموقف.

وأستطيع؟

إذا هيأت نفسك لذلك.

بماذا؟

بأسلحة الكفاح، وهى كثيرة ومتنوعة.

وهل تدلنى عليها؟

أدلك على من يدلك عليها، ويهيؤك لها.

أأنت.. أيضا؟

نعم أنا أيضا.

.. ونحن الذين كنا نسخر منك!

ومن البدلة الوحيدة التى عندى.

وأنت تعرف هذا أيضا؟

طبعا.

وضايقك؟

ولم أرتب نفسى للضيق بما يقوله تلاميذى.

لا بد أنك تدفع كل دخلك للانتقام.

لا.. هذا ليس انتقاما.

إنه ثأر.

قد تكون كلمة الثأر أخف، لكن المسألة ليست حتى ثأرا.

اذاً ماذا تكون؟

حماية التاريخ والأخلاق.

●●●

ويدأ عونى يتردد على شيئين فى وقت واحد.

نوادى الليل، وتنظيمات الفدائيين!!

فى نوادى الليل، يرقص حتى يكاد يفقد صوابه، وفى تنظيمات الفدائيين يقوم بأعمال باهرة ومذهلة معا.

وكلما حامت حوله شبهة وجدوه يرقص.

وكلما ضبطوا واقعة ضد الانجليز أو القصر، اشتبهوا فيه.

لقد كان يمارس شئونه الفدائية، وهو يرقص! كما كان يرقص، ليعمل أعمالا فدائية!!

عونى كان يصرف وقته كله فى حماية التاريخ والأخلاق، كما قال الأستاذ حامد.

والذين يعرفونه فى نوادى الليل، يتهمونه بالانحلال!

والذين يتصلون به فى تنظيمات الفداء، يحنون جباههم له! شئ محير هذا المخلوق من الناس!

●●●

لكن عونى كان بشرا. كان إنسانا. وكان له قلب.

وعندما أحب عونى كان خائفا على نفسه من حبه.

البنت التى أحبها صغيرة وحلوة وبريئة، تلميذة صغيرة، لكن وجهها كان فاتنا، كما كان جسمها رائعا.

وكانت تحبه إلى حد العبادة!

لكنها لم تعرفه الا فى النوادى الصاخبة وهو يرقص.

كانت تحب فيه عونى الماجن، كانت تتمنى أن يلف ذراعه حول خصرها، ويدور بها فى حلبة الرقص، لتحلم بالسعادة بين ذارعيه.

وفكر عونى فى حبه.

ماذا يفعل؟ هل يصارحها بحقيقته؟ هل يقول لها أنه ليس هذا الفتى الماجن المبتذل، وإنما هو شخص آخر؟

وماذا يضمن له نتيجة هذا التصريح الأحمق؟

ماذا تفعل الفتاة؟ ماذا تقول؟ ولمن ستقول؟

لكنه مع ذلك كان يشعر بأنه يهين نفسه بالاستمرار فى هذا التناقض. إنه يحبها من قلبه، ويشعر أن واجبه نحو قلبه يحتم عليه أن يصارحها بحقيقته. لكنه لا يستطيع أن يتبين ماذا قد يحدث؟

وهالة أن يقضى على حركة وطنية شريفة بتهوره!

وأخيرا استقر رأيه على أن يظل فى نظرها الفتى الماجن الذى لا يعرف إلا الرقص والشراب واللعب.

وكان يتمزق!

إنه ليس هذا من الداخل. ليس هذا فى الواقع. وحقيقته ليست هى هذه الحياة التعسة التى يظهر بها أمامها وأمام الناس.

●●●

ومرة ثانية هز عونى رأسه وهو يقول لنفسه:

هذا هو قدرك! وماذا تفعل؟!

آلاف مؤلفة من التلاميذ زملائك. تمضى بهم الحياة سهلة هينة. لا تعترضها. هذه السحابات الثقيلة المضنية.

وأنت نفسك، قد كان يمكن أن تكون واحدا من هذه الآلاف المؤلفة، بلا عقبة تصادفك، ولا أزمة تحطمك.

لكن قدرك وضعك هنا، تواجه الظروف الصعبة، وعليك أن تتحملها دون اعتراض.

أبوك قتلوه، وخرجت لتجد نفسك، مع أم ترملت وتحطمت، وبقية ثروة تتسرب من بين يديك.

ثم وانتك الفرصة للانقضاض، لتنتقم لأبيك ولكل فتى فقد أباه فى ظروف مشابهة.

لا تنتقم!! بل تنتقم!!

لا لا.. ليكن.. أحمى التاريخ والأخلاق، حتى لا يغضب الأستاذ حامد منى!!

●●●

وقرر عونى أن يمضى مع ثريا فى حياة الرقص والسهر والعبث.

لكنه بعد فترة وجيزة شعر أنه يخدعها. أنه يخدعها!

إنه يجرها إلى حياة العبث والمجون!

انه يحافظ عليها، لكنه لا يضمن أن تنزلق مع آخرين، يجرونها إلى الانحراف.

وقرر عونى يبعدها عن هذا الجو.

وحاول بالنصح، فتشبثت به.

وحاول بالعنف، فزادت حبا فيه.

إذاً يحاول بالخسة! وبدأ عونى يطالبها بنقود. لكن الفتاة الطيبة لم تكن تملك شيئا. كانت تلميذة صغيرة لا تزال!

وأمام شعورها الجارف نحو عونى، مدت يدها لمصوغ أمها، لترهنه فى بنك الرهونات.

ولم تكن تستطيع أن ترهنه باسمها الواضح الصريح، فاستعانت بخادمة صغيرة على ذلك.

●●●

والمعلم شعبان يسمع للخادمة الصغيرة، وهى تروى القصة، لكنه يود أن يعرف بقيتها.

وعلى الفور فكر فى أسلوب جديد مبتكر للمكسب.

مغامرة! ستكون هذه مغامرة يا معلم شعبان!

أنت عادة تكسب من ناس محتالين! منحرفين أو مدنسين أو انتهازيين! لكنك لم تكسب أبدا، من قوم شرفاء، أحرار، يعملون فى تنظيمات وطنية.

جرب! لماذا لا تجرب، فقد يكون وراء هؤلاء أيضا مكسب!

●●●

وعندما اتصل المعلم شعبان بعونى، وأطلعه على حكاية الأسورة المرهونة، شعر أنه قد ارتكب جريمة كبرى، كالخيانة!

وتصدعت رأسه، ولم يعد قادرا على أن يفكر فى ثريا، والمصير الحالك المظلم الذى ينتظرها.

كان يعلم أن أهلها ينظرون إليه على أنه ولد عاطل متسكع بلا مستقبل، وعندما كانت تصر أمامهم على أنها تحبه، وأنها ستتزوجه أرادوا أم لم يريدوا، كانوا يقابلون ذلك بالاستنكار، والاضطهاد، وكثيرا ما كانوا يمنعونها من الخروج إلا بصحبة أحد.

لكن عونى لم يطق صبرا على هذا الموقف.

لم يعد هناك مبرر لتركها تتحدر! وسيكون هو المسئول الأول والأخير عن هذا الانحدار!

واقتحم عونى إليها الأهوال، ليراها على الفور.

انتزعها من مدرستها، باسم عم من أعمامها، تنكر فى زيه وهيئته.

ولما أفصح لها عن شخصيته كادت تطير من فرحتها!!

لكنه صحبها إلى حيث أطلعها على الحقيقة!!

وذهلت هى لما علمت أنه فدائى، يسهر يرقص، ثم يختفى من رقصة، ليطلق طلقة.. ويعود يغنى ويرقص!!

قالت ثريا:

ومعنى هذا أنى أحبك أكثر.

وتاهت نظرات عونى فى عينيها، وهو لا يعرف ماذا يقول لها. لكنه تماسك وصارحها بالحقيقة.

وما مستقبل حبنا؟

نتزوج.

تتزوجين شخصا بلا مستقبل؟

أتزوج شخصا أحبه، وهذا حسبى.

هذا نوع من التفانى لذيذ، لكن الحقيقة شئ آخر.

لا يهمنى تأمين المستقبل.

بل يجب أن يهمك.

لا تهمنى إلا اللحظة التى أحياها.

لكن اللحظة تمضى وتمر.

وتليها لحظة.

وتمر اللحظة.

لكن الحب يزيد.

والناس يثورون علينا.

ونحن نعيش.. ننعم بالحب.

وننسى الناس؟

ننسى الدنيا. كل الدنيا.

هذا هو غير الممكن.

بل ممكن.

وكيف نعيش؟

فى عالمنا.

وعالمنا هو هذا العالم.

وما شأن الناس بنا.

هم جزء من هذا العالم.

تهرب يا عونى.

من مسئوليتنا؟!

من الناس.

والتاريخ.. هل يتركنا! وأحداث الأهل؟ وصيحات المظلومين؟ وثأر الأحرار؟

والحل؟

أن تنتظرى.

ماذا؟

يوما.. تصلح فيه الأحوال.

ونظلم؟

لسنا المظلومين بمفردنا.

ومن معنا؟

كل الناس.

حتى السعداء؟

السعداء! السعداء هم التعساء!

لكن كيف؟ كيف يكونون؟

عند الجهل يكون المسعد كالمنحوس!

وتختلط الأشياء؟!

وتضيع معالم كل الأشياء.

●●●

وقررت ثريا الانتظار، لكن على نار.

ومضى عونى فى الطريق، والمعلم شعبان يحاول أن يستفيد منه ما يستطيعه لبنك الرهونات.

وضحك عونى من قلبه، وهو يسمع له.

وعندما قال له أنه يعرف كل شئ، قال عونى:

تهدد؟ هل تهدد؟

وسارع المعلم شعبان يؤكد أن هذا ليس قصده. لكن قصده أن يفيد.. "ويا بخت من نفع واستنفع؟!!

وعونى والمعلم شعبان كلاهما، رأى كل منهما فى الآخر فرصة!

ألا تشترون أشياء؟

ألا تدبرون مسائل؟

ألا تحاولون التخفى؟

كل هذه مسائل بسيطة وسهلة، وكله بتمنه!

.. وضحك المعلم شعبان!

●●●

ومن الجانب الآخر، كان عونى يقابل الضحكة، بضحكة! من الأزمات، تطل المعلومات!

وليست كل الرهونات من المحنة!

هناك رهونات من الأزمة!

وقد يتورط شخص فى موضوع، فيرهن شيئا عزيزا عليه، وقد يكون وراء هذا سر، أو قصة.

وعونى يهمه أن يعرف هذه القصص والأسرار.

لكن ويهمك ده فى ايه؟

يهمنى خالص يا معلم.

لكن البنك ميصحش يذيع أسرار زباينه.

مش بتقول يا بخت من نفع واستنفع؟

آه.. صحيح.

طيب، ما كله بتمنه.

●●●

وتحالف عونى، والمعلم شعبان.

يشترى عوني حاجات التنظيم من المعلم شعبان، ليضمن سكوته على الأقل. وفى نظير هذا يعطيه كل أسرار الرهونات.

●●●

وكان لكل منهما طريقته فى الاستفادة من البضاعة التى يشتريها من الآخر.

وكان أهم بنود التحالف: الصمت!

لا يسأل أحدهما الآخر عما لا يريد الحديث عنه!

●●●

لكن هذا البند لم يتم، إلا بعد أن كان المعلم شعبان قد عرف القصة وتسلل إلى عونى، ليلتقط منه السر، ويستدرجه إلى ما يريد.

وعندما صار هذا السر تجارة، وذاق المعلم شعبان طعم المكسب، وانفتح عليه كنز من المال، تمنى لو صارت هذه البلد كلها فدائية.

نعم لماذا لا يتحول كل الناس إلى فدائيين، يشترون الرصاص والقنابل ويطبعون منشورات؛ ويستأجرون مخازن فى أحياء غير معروفة، يضعون فيها أشياء صغيرة وكبيرة؟

لماذا لا يصبح الأولاد الذين يرقصون فدائيين؟

يقتلون الانجليز.. ويدفعون!

ويطبعون المنشورات.. ويدفعون!

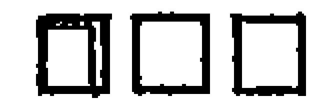
ويخفون أو يتخفون.. ويدفعون!

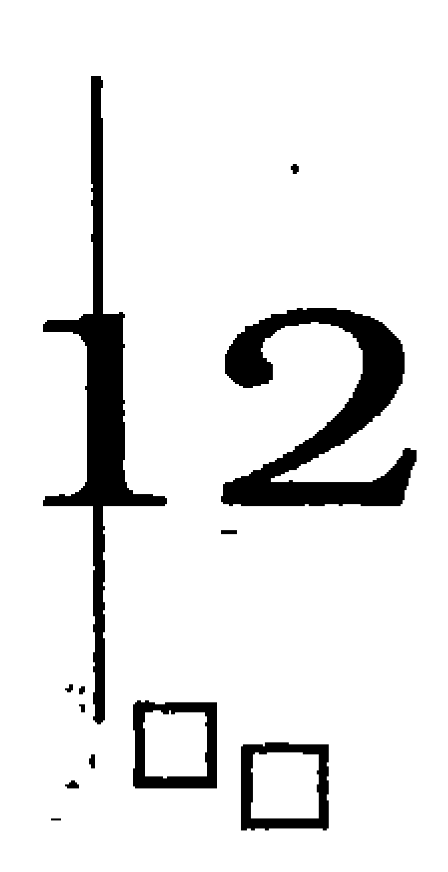
.. إيه؟ لماذا لا يفعلون؟

●●●

وانصرف المعلم شعبان عن المآسى الأخرى إلى هذه المأساة!! صارت لعبته مأساة الفداء.

وعندما تصبح المأساة هى اللعبة المفضلة، فصاحبها، إما أن يكون فنانا، أو سمسارا أو صاحب بنك رهونات!!





.. وما الفرق بين الفنان، وبنك الرهونات؟

الفنان أيضا يستثمر المحنة، ويستثمر الأزمة.

.. يلتقط المحنة والأزمة والدمعة، من مخلفات الانسان، ليجعل أتباعا ومريدين! ويحمل الأتباع والمريدين على التزاحم حول الضريح! ويحيط الضريح بسور من نحاس أو رصاص أو فضة! ويعلق أحلام المحتاجين البؤساء بهذا السور! وتمتلئ الأخيلة بأسرار وطلاسم وألغاز! ويحول الأسرار إلى قواعد، والطلاسم إلى مراسم، والألغاز إلى دعوات، وترتفع الصيحات تلو الصيحات، ومع كل صيحة آهة، وفى كل آهة رنة أسى وتبتل الخدود بالدموع!!

●●●

لكن مختار يصيح فيه..

أما كفاك؟ جعلت من الفنان إلهًا قادرا على إقامة كل هذا العالم الفسيح.

ويجيب مراد

ألا يكون الفنان بهذا قد تحول إلى بنك للرهونات؟

ويثور بين الصديقين نقاش طريف، يتخلل أحداث القصة الطويلة التى بدأت من الصول عبد الباسط، وامتدت الى أولاده الثلاثة الذين أخذوا يجمعون القمامة، ثم صاروا معلمين يبنون العمارات، وينشئون المتاجر، ويسيرون سيارات التاكسى، ثم يستثمرون المآسى والدموع، مع شريك يهودى، فى بنك الرهونات.

●●●

والفنان هو ابن المحنة.. يستثمرها.

لتصبح أغنية أو شعرا.

لتصبح ما تصبح.. هو كالبنك..

لكن البنك يكسب منها.

والفنان ألا يكسب؟

قد يكسب.. لكن ماذا؟

يكسب ما يكسب.

يكسب للإنسانية فنا.

ولنفسه؟

يكسب أن يقنع.

بماذا؟ بماذا يقنع؟

بالفن.

لذاته.. وبغير حدود؟

الفن لذاته، ربح الفنان.

والشهرة؟

من مقتضيات الفن.

وذيوع الصيت؟

حق الفنان.

وحقوق النشر؟

ليأكل.

ليأكل وليشرب وليلبس.. وليتنقل.

كإنسان...

وكبنك الرهونات.

بنك الرهونات يتاجر فى الحاجة.

والفنان يذيع السر.

ليملأ أخيلة الناس.

بماذا؟

بما فى الحاجة من قصص يروى.

وجروح المنكوبين.. تذاع؟

حين يكون الجرح هو المرهم.

وأنين البؤساء.. يباع؟

هذا خير من أن يهمل.

ليعيش الفنان ويرتع؟

بل ليعيش الفن ويبدع.

والدمعة تصبح بحرا.

يسبح فيه خيال الناس.

والهمسة تغدو جهرا.

تتناقلها الألسن.. حبا.

والسر الكامن يعلن.

ليبدد ظلمات النفس.

.. بحديث المحنة

بقواف تهمس أو تتنفس.

ومبالغة الفن؟

نوع من إبداع الفنان.

وفى الرسم يتلون حتى الدمع.

بمداد من قلب الفنان.

وفى القصة تتحرك أشباح تزحف.

من فكر الفنان وروحه.

تستثمر أحداث النكبة.

لتشف،

كالبنك.

لكن البنك يتاجر.

والفن يقامر.

يمسح بحديث المحنة.. محنة.

وتجر الدمعة، دمعة.

لتجف.

بنك الفن إذاً رحمة.

يصقل وجدان الأمة.

بماذا؟

بالكلمة.

والنغمة؟

وبالفنوة.

وباللحن الحى؟

وبالزفرة، تغدو بسمة.

●●●

هذا صديقنا المحرر، قد فرغ من بعض أوراقه الكثيرة المنثورة. إنه يستعيد التاريخ كله، ويلقيه على ورقه، كما يلقى الشاعر، قصيدته فى حفل تأبين!

وينتقل الشاعران من الحوار حول الفنان وبنك الرهونات إلى وثائق التاريخ هذه، التى يستعيدها زميلهم مندوب الحوادث النشيط الهمام.

●●●

ومضى الحاج شعبان يستثمر الأعمال الفدائية، ويحولها الى أرباح. وما كان يهمه أن يعرف فيم يريدون طلقات الرصاص هذه، ومن ستقتل كل طلقة، أو ماذا ستفعل!

والمفرقعات الكثيرة التى كانوا يطلبونها، كان يحضرها، وهو يحسب كم سيكون ربح هذه اللفة، وكم سيكون ربح تلك؟ أما ماذا ستؤدى لأعمال الفداء من خدمة، فتلك مسالة لم تكن تخطر له على بال!

عونى كذلك لم يكن يهمه ماذا يكسب المعلم شعبان. إنه يريد فقط أن يحصل على رصاص كثير، ومفرقعات، ومنشورات ومخابئ أمينة هنا وهناك، ومطابع سرية صالحة لجمع الحروف وتوضيب الصفحات، وطبع الكلمات، لتتحول إلى طعنات!

أما أن يربح المعلم شعبان ما يربح، فليربح كما يشاء، طالما أنه يقدم لهم ما يريدون.

حلف من نوع خاص، أساسه أن كلا منهما لا يرى، ولا يسمع، ولا يتكلم.

واحد يكسب! يكسب كثيرا جدا!

والثانى يعمل! يكافح وهو يرقص!

●●●

لكن المعلم شعبان ودون قصد بدأ يتعرف على طبيعة بعض الأعمال من واقع تقديمه للخدمات المأجورة.

بدأ يعرف مثلا أن الفدائى هذا واحد من الناس، باع نفسه! لم يعد صاحب نفسه أبدا! هو يحتل نفسه مؤقتا، كمستأجر شقة مفروشة، مستعد لإخلائها فور طلبها منه! كنزيل فندق بالليل!

أما نفسه، جسده وقلبه وعقله، فليس هو صاحبه. لم يعد يملك عقله. يملكه الذى اشترى. لم يعد يملك قلبه. يملكه الذى دفع الثمن. لم يعد يملك جسمه. يملكه الذى رسا عليه العطاء، وقام بما عليه من التزامات.

والمعلم شعبان، برغم ذكائه المالى والاستثمارى والبنكى برغم ذكائه هذا الفطرى، "غشيم" فى بعض الأمور.

لاحظ من الجيرة والعشرة أن الفدائى شخص باع نفسه عن طيب خاطر. لكن لمن؟ هذا هو الشئ الذى كان يحيره.

وكان يعجب لواحد يبيع نفسه!!

هل هناك من يبيع نفسه، كما كان العبيد يباعون قديما.

حتى العبيد، ما كانوا يبيعون أنفسهم. كانوا يخطفون ويجلدون، ويسجنون، ويعذبون، حتى يصبحوا كالخاتم فى اليد، يوضع حيث يريد صاحبه أن يضعه، ويرفع عندما يقرر صاحبه أن يرفعه. عجينة طيعة سهلة، تشكل كما يريد لها الخباز. عندما يصلون إلى هذا يصبحون سلعا مربحة، وعندئذ يعرضون فى أسواق النخاسة ليباعوا.

هذا وضع يفهمه المعلم شعبان. لكن واحد يبيع نفسه بإرادته ومتطوعا فهذا ما لم يكن يخطر للمعلم على بال!!

وصار المعلم حريصا على أن يعرف!

الخطر الذى يلاحظه، والشجاعة الفائقة فى مقابلته، وتحدى الحديد والنار، على الصورة التى كان يراها. كل ذلك ولد عنده رغبة فى أن يعرف. وكان السؤال الوحيد الذى يريد أن يجد إجابة عنه هو: من المشترى؟ من الذى اشترى هؤلاء الناس؟!

●●●

والحلف المعقود بين المعلم وعونى، قد بدأ يتعرض، برغم كل الحرص عليه، لبعض نوبات الخروج!!

وعندما كان عونى يجد نفسه فى مأزق، كان يفكر أحيانا فى المعلم شعبان، وكان يتوسم فيه شهامة أولاد البلد، فيلجأ إليه طالبا إخفاء واحد، أوإخفاء شئ، أو نقل بعض الموجودات من مخزن إلى مكان آخر آمن.

●●●

- حدث مرة مثلا، أن عونى وجد نفسه فى مأزق.

هرب زميل من الفدائيين من المعتقل، وكان الوقت متأخرا، وكان يعلم أن أجهزة الأمن لابد أن تجد فى البحث عنه.

ولو أرسله لزميل آخر مشبوه، فقد يكون فى هذا خطر.

اذن، عليه أن يتخير شخصا مأمونا، لا تتجه إليه الشبهة.

وظهر له وجه المعلم شعبان، من بين جميع الوجوه التى استعرضها، مبتسما ومرحبا، فذهب إليه، وأودع عنده المعتقل الهارب.

ولم يكن المعتقل يعرف شيئا عن المعلم، كما لم يكن يتوقع أن يكون خالى الذهن بالمرة عن أعمال الفدائيين.

وشعر المعلم أن "الزبون" قلق، وأنه خائف.

خايف من ايه؟

من البوليس.

إنت عملت حاجة؟

يوه.. متعديش.

إيه؟. قتلت؟

كتير!!

وعبس المعلم شعبان وهو يسمع هذه الاعترافات!

"قتل كثير!! ماذا يكون هذا الانسان؟ ولماذا يقتل؟

ونظر اليه نظرات خاصة، يحاول أن يتعرف على طبيعته، والدوافع التى يكون قد دفعته إلى القتل. وعجب الشاب منه، فسأله ببساطة:

وأنت. ما قتلتش؟

أنا. إنت بتسألنى؟

آ.. إنت ما قتلتش؟

كتير.

وهجم عليه الشاب، وهو يثب فوق كتفيه فى سذاجة، وصاح فى مرح:

طب ما الحال من بعضه يا أخ.

وسكت قليلا ثم قال:

كانوا إيه؟ استراليين؟

إيه؟ استراليين بتقول؟

آ.. دول صعب قوى وجامدين.

يا سلام!!

والانجليز بقه بين بين!

يعنى إيه؟

يعنى لا جامدين، ولا سهل.

يا سلام!!

تعرف بقه أيرلنديين؟ دول عال. ميطيقوش الانجليز.

هيه.. وبعدين؟

وإخوانا الهنود والا الأفريقيين دول كمان تمام.

وبالتدريج شعر المعلم شعبان أن الموضوع مختلف عما خطر له. وهذا الفتى الذى أمامه لا يقتل لمجرد سفك الدم، ولا يسرق، ولا ينهب. لكنه يقتل العساكر المحتلين. فقط هؤلاء هم الذين يقتلهم.

الله!! وليه؟

دول بيتاجروا معانا فى بطاطين وشاى وسجاير وحاجات كتيرة.

وعندهم معسكرات بيشتغل فيها عدد كبير من الصنايعية. ولم يستطع المعلم شعبان أن يدرك لماذا يقتلهم هذا الشقى.

عشان مصر.

ومصر بتقول لك اقتل.

مصر بتقول لى حرر أرضى من الاحتلال.

بقتل الناس برضه؟

إذا ما كانوش يخرجوا بالذوق، يبقى الحل إيه؟

نحاربهم.

ما هى دى حرب.

لا دا قتل.

قتل مين؟

عساكر. ودول غلابة.

مش جايين يحتلوا مصر.

مش همه.. بقول لك دول غلابة، بينفذوا أوامر.

أمال نحارب مين؟

إللى بيدوهم الأوامر.

إزاى؟

بجرب. بحرب. بحرب بحق وحقيق.

منقدرش عليهم.

خلاص. أما نقدر.

مش حيخلونا نقدر.

ليه هوه إحنا ح نستأذن؟

ليه؟ همه اللى بيحكموا؟

آ.. همه.

طيب مفيش سلاح. مفيش ذخيرة. مفيش حاجة أبدا.

ويعنى لازم تقتل الغلابة دول؟

مش نحاربهم؟

أنا بدى الحرب معاهم تبقى غير كده.

●●●

وشعر الفدائى أن المعلم شعبان صاحب نظرية فى حرب الاحتلال. نظرية فيها شهامة أولاد البلد، ممن يرفضون العمل السرى أو الاغتيال السياسى، ويفضلون المواجهة فى "المعركة"!!

لكن المواجهة لا تجدى مع محتل.

هو نفسه لا يواجهك.

هو نفسه يخدعك، ويضلك.

هو نفسه يستعين بك عليك.

يستأجر بعضا منك، ليقضى على البعض الآخر.

المخبرون الذين يضعهم. الجواسيس الذين يدفع لهم. الحكومة التى يعينها. الملك الذى يسند عرشه. السلطات غير الشرعية التى يقيمها.

هؤلاء بعض منك قليل، يحارب الكثير الباقى.

والقليل هذا مسلح، وعنده مال قارون، والكثير الباقى أعزل، وفقير ومحتاج.

هو يدخل عليك من الباب الخلفى، الآمن!

ويفاجئك بالخطر، فى عقر دارك!

لص.. هذا لص غدار، يحاول أن يقضى عليك. تتركه؟

أحاريه.. أواجهه وأحاربه.

يا معلم شعبان وهل سيسمح لك بحرب؟

وأنا ليه أستأذنه؟

عندك سلاح؟

أشترى السلاح.

منين.

من السوق.

السوق بتاعته هوه.

أعمله.

.. يوه.. حلنا. وحيسيبك تعمله؟

أعمله فى السر.

وأمتى توصل لسلاح زى اللى عنده.

●●●

وفى مرة من المرات، شاهد المعلم شعبان منظرا غريبا جدا.

فى مخزن من المخازن المظلمة، فى حى من الأحياء الشعبية، كان الفدائيون يخفون فيه كالعادة أشياء ملفوفة فى قماش أو ورق، أو منشورات مطبوعة.

ولم يكن مما يخرج على الحلف الذى بينه وبين عونى، أن يفتش المعلم شعبان على هذه الأماكن، ليتأكد أن ليس بها شئ خطر!!

كل هذه اللفة لم تكن فى نظره شيئا خطرا، ولا أكوام الرصاص، ولا المنشورات، ولا المفرقعات كانت شيئا خطرا.

الشئ الخطر عند المعلم شعبان كان رزمة ورق بنكنوت مسروقة أو مغشوشة، خطف صبى صغير من أمه. تهريب حشيش أو أفيون. أما هذه الأشياء، فلعب عيال!!

وكان عونى يعرف هذا فى المعلم شعبان ومن أجل هذا لم يهتم بأن يخفى عنه شيئا، ولم يعبأ بأن يسمح الحلف المعقود بينهما للمعلم شعبان بحق المرور على هذه المخازن حتى يطمئن الى أن الفدائيين أبرياء.. جدا!! وأنهم لا يسرقون، ولا يهربون، ولا يزيفون عملة، ولا يخطفون الأولاد من أهلهم، ثم يهددونهم لابتزاز مبالغ من المال، تتفق مع ثراء

الأسر وقدراتها على الدفع! أو على حالتها من حيث الخلف وإنجاب الاطفال. وكلما كانت الأسرة مقتصدة فى نسلهاء كلما ارتفعت تسعيرة الطفل المخطوف! كل هذه الأشياء، ليست من أعمال الفدائيين، ولا يفكرون فيها، بينما هى وحدها الشئ الخطر جدا فى نظر المعلم شعبان.

●●●

والشئ الذى شاهده المعلم شعبان، كان عجيبا.

واحدة ست، وحولها عدد من الشبان، يعاونونها على أن تضع مولودها!

واحدة ست حامل فى اللحظات الأخيرة قبل الولادة، تتألم فى صمت! وتتوجع لكنها تبتلع أوجاعها! تتقلب على الأرض من آلام المخاض، لكنها تتألم إلى الداخل!

ووقف الرجل مشدوها!

يرى المنظر، فيشعر أن دموع المرأة تغوص فى مآقيها، وأن العرق الذى يتصبب على جسمها، نصفه عرق، والنصف الثانى دموع.

والآهة تتلو الآهة، والزفرة خلف الزفرة تتعقبها، والدمعة تتحدر كالماء الآسن، لا موج يثير مواجعها أو تتحرك ريح

تعصف! والناس كالحامل، يبتلعون الصيحات، والكلمات، فى همسات كالآهات، كالزفرات، كالدقات، من جرس يدعو لصلاة الرحمة وسط كنيسة عذراء! أو كنداء يتردد بالآذان، يدعو لصلاة الفجر، ثم الدعوات، لتخف الأزمة، وتزول المحنة، ويسقط من بطن الحامل ما تحمل! لكن كيف يكون، والمولود فى العادة يجأر بصياح، يبكى مقدمه قبل الخطو المحظوظ أو المنحوس!. هو لا يدرى!! ولكى يتخذ الأمر الأحوط يبكى ويصيح!!

والمعلم شعبان ينظر، لكنه لا يتحمل!

ويرغم هذا يلاحظ أن المرأة جريحة! جريحة! الدم منها ينزف! من فوق الركبة دمها ينزف، وجراح أخرى فى الكتفين! يا هذى المرأة ما أشقاك! أى عذاب هذا؟. ماذا يحدث فى العالم؟ ألا يكفى همك أو حملك؟ ومن ضربك؟ ومن أطلق فوق الركبة طلقات النار؟ من ذا هذا المجرم؟

●●●

وبعد لحظات، نزل المولود.

ونسى الجميع آلام المخاض، حتى الوالدة أخذت تبتسم!

المولود يصيح، والأم على شفتيها بسمة، والرفقاء فتحوا الأفواه. وشعبان فى الركن يهز الاكتاف، ولا يدرى، من ذا، ومن هذى؟!

●●●

وبعد لحظات أخرى، تبدأ الأحاذيث تجلو بعض حقائق الموقف.

كنت على وشك أن أقتل. الحمد لله.

ماذا سيقولون الآن، بعد أن يكتشفوا الأمر؟

سيعجبون لواحدة حامل فى آخر أيام الحمل، تهرب منهم.

لم يكن يخطر هذا على بال أحد.

ولهذا لم يحتاطوا على الاطلاق.

ولم يكتشفوا الخطة إلا فى آخر مراحلها.

كانت ثانية واحدة مطلوبة، ليتم تنفيذ الخطة بغير طلقة واحدة.

لولا الكونستابل الانجليزى الذى كان يمر، لم يكن شئ قد حدث.

يا ستى، هذه مجرد جروح بسيطة.

لكنها كانت تعرضنى للخطر. كان ممكنا أن تكون الاصابة قاتلة أو يحدث لى نزيف أثناء الوضع.

ماذا نعمل؟ هذه حياتنا. قدرنا.

المهم الآن، "حتسمى المولود إيه"؟

وأهم من هذا أن نستخرج له شهادة ميلاد.

وإلا تبقى حكاية. يصبح بلا شهادة ميلاد.

كاللقطاء.

أو ساقطى القيد.

كم كان أبوه سيفرح به.

لا تفكرى فى هذا.

مسكين يا إبنى. ولدت يتيما بلا أب.

وبعد معك. من أجله لا تفكرى فى شئ.

أعلم هذا.. أعلم. كان قلبى يحدثنى أنه خارج، ولن يعود.

يا سلام.. متى؟

ليلتها. شئ كان مظلما يطبق على قلبى. كانت الدنيا فى وجهى سوداء. وكان هو كالنور فى وسط السواد. وشعرت أن هذا النور سينطفئ بمجرد خروجه، ولن يعود.

كنت تحلمين؟

أبدا. فى اليقظة رأيت هذا.

وماذا فعلت؟

أنا إنسانة. فدائية لكن إنسانة. حاولت أن أمنعه من الخروج، فلم يرد على، بأكثر من نظرة ذكرتنى بالقسم الذى أقسمناه معا عندما انضممنا الى المنظمة. وتذكرت أننا بعنا أنفسنا من لحظة أقسمنا على أن نكون لمصر لا لأنفسنا.

ثم ماذا حدث؟

قبلنى وخرج. لكنى لاحظت شيئا.

ماذا؟

أمسك ببطنى وربت عليها فى حنان شديد.

غريبة. كان يشعر.

كان يود لو قبل ابنه، من قبل أن يولد، لكن كيف يقبله.. على كل حال كانت يده على بطنى كالقبلة تماما. تماما.. تماما.

●●●

وانتابت الوالدة حالة عصبية، فأخذت تصيح.. نعم كانت كالقبلة على خده، من خارج بطنى. نعم كالقبلة.. آخر قبلة

منه لابنه، قبيل أن يذهب الى كوبرى الفردان، ويبيد طابورا كاملا من الانجليز ثم يدفع حياته ثمنا.. قبلتك يا زوجى العزيز لا تزال حارة فوق جلدى. قبلتك لا تزال فوق جبين إبنك أو خده أو شفتيه.. نعم لا تزال.. لا تزال.

وشعر المعلم شعبان حيث كان فى ركنه المظلم أن دموعه تتحدر على خديه، من التأثر.

حتى صاحب بنك الرهونات يستطيع أن يبكى أحيانا!!

●●●

وشعر المعلم أنه يستطيع أن يخفف عن هذه الوالدة التعسة المصابة بأكثر من جرح. بفقد زوجها، وإطلاق الرصاص عليها، ثم ولادتها فى ركن مظلم، فى مخزن مهجور، ثم عجزها عن استخراج شهادة ميلاد للطفل الوليد.

وفى ثانية كان يدور فى داخله حوار بينه وبين نفسه.

والله هذه بطولة، لا يستطيعها كل واحد.

ومن يستطيع أن يواجه الانجليز والحكومة بهذه الصورة؟

دا الواحد منا لما بيجيله محضر، بيعملوا له طاسة الخضة.

ودى واحـدة ست. جـوزها يمـوت طابور انجليـز، لكن يسيبها أرملة، ومع هذا تدخل المعتقل؟

لأ.. وإيه؟

حامل.. حامل فى بطنها ولد، وفى رأسها حاجات كثير..

والله تستاهل الواحد يعمل لها ايها حاجة.

●●●

المعلم شعبان، صاحب بنك الرهونات.. التاجر.. الذى لا يتعامل بالتنهدات، ولا بالشـهقات، ولكن بالجنيهات.. هو الذى استخرج شهادة الميلاد. ذهب إلى مكتب الصحة بالمعلومات، وتصرف على طريقته، وعاد لهم بشهادة ميلاد الطفل الوليد.

والمعلم شعبان، صاحب بنك الرهونات.. التاجر.. الذى لا يعرف العواطف ولا حساب عنده للحسنات إلا بالعملات.. هو الذى تعهد أن يرعى الوالدة حتى تشفى، فكان يحضر لها الطعام كل يوم، والأدوية التى يقررها بعض أفندية كانوا يزورونها بين الحين والحين، كما كان هو الذى يشرف على أمورها كلها، فى مختلف الأوقات، بالليل أو بالنهار.

والمعلم شعبان... إنسان!

له بين جنبيه قلب، كقلوب الناس. كقلب أخيه يس، وأخيه المرحوم غالى، وككل قلب، قادر على أن يحب.

وظروف النكبة، قد تكون أحيانا، هى أنسب الظروف للحب.

والمخزن المهجور، والظلام الضارب فى أركانه، وليس فيه إلا بسمة والدة، تتقلب ذات يمين وذات يسار، أو لفتة امرأة متهدلة الشعر. أو نظرة حانية مكسورة الأهداب. كل ذلك لا بد أن يشعل فى قلب الرجل المحروم، بعض النار.

وعندما تشتعل النار، فإنها تنير القلب، لكنها كذلك تذيب ما فيه من الشحم، فيغدو شفافا رقيقا، يتأثر بالنسمة.

والمعلم شعبان كان محتاجا إلى أن يحب.

مر عليه العمر، وهو مشغول بالقمامة، ثم بالعمارات، والمتاجر، وسيارات الأجرة والنقل، ثم ببنك الرهونات، دون أن يدخل قلبه الطيف الرقيق الحلو الذى يستولى عليه.

وفجأة، وبلا سابق إنذار، شعر الرجل أنه يريد أن يحب.

وتلفت الى وراء، فلما رأى حياته جافة جدا، تنبه إلى أنه قد ضيع هذا العمر، دون لحظة هيام، أو كلمة غرام، أو لمسة ناعمة.

وكانت هيام أمامه تمثل امرأة محرومة، مهيضة الجناح، وفى حجرها وليد، لم ير أباه.

وكانت حلوة. حتى وهى فى المخزن المظلم المهجور حلوة.

وديعة وطيعة وناعمة الشعور، ومتدفقة العواطف.

بسمتها نور، وحركتها همس، وفيها قدر كبير من الرشاقة والذكاء.

ثم هى محتاجة إليه، وهو كذلك محتاج إليها.

هى محتاجة لحماية، وهو محتاج لقلب رقيق حلو.

.. ومن غير ترتيب، وبلا اتخاذ اجراءات، امتدت إليها كفه. فتلقفتها فى حذر، ثم فى حذر..

ومن الكف، سرت النار إلى القلب، فشعت فى العيون.

وبدأت أحاديثهما هامسة، ناعسة، ثم صارت تعبر عن نفسها بكلام طويل حار.

ومرت أيام الولادة، وإستعادت هيام صحتها.

وشعرت أنها تنتظر المعلم شعبان، وتضيق عندما يتأخر عليها لسبب أو الآخر.

وهيام امرأة.. فدائية، لكن امرأة!

●●●

والمرأة قد تكون عالمة، وقد تكون فنانة.

المرأة أيضا قد تكون فدائية، أكثر حماسة من جان دارك.

لكن شيئا فيها، سيظل امرأة!! تحن للحب، وللرجل إلى جوارها، ولكلمة حنونة ترطب قلبها، وللمسة جافة تكسر أنوثتها.

ولشئ خفى تتوقع أن يفاجئها فى أية لحظة فيحيطها ويلتف حولها، ويقسو عليها، حتى ليحطم ضلوعها! شئ لا تدريه، لكن تتمناه! شئ يمنعها الحياء أن تسميه أو تسعى إليه، لكنها تعيش عمرها فى انتظاره!

فدائية، بدائية، راقية، سماوية، أرضية، جنية هذا كله لا يهم. المهم أن هذا الجزء فيها قاسم مشترك بين كل النساء.

وهيام كانت واحدة من النساء.

والمعلم شعبان، كان واحدا من الرجال.

والمخزن مهجور، ومظلم وبعيد عن العيون.

.. والذين يزورونها، يزورونها خلسة، ويحرصون على ألا يراهم أحد.

كل شئ إذاً ميسور.. الحب.

فأحبت.. وأحب!

وكانت بينهما لحظات هنية جدا ولذيذة، بعيدا عن حياة الخطر، وعن حسابات بنك الرهونات.

●●●

وشعر المعلم شعبان أنه فى الجنة.

وهاله أن الأيام تمر، وأنها ستفاجئه ذات يوم بجفاف، عندما يصبح على هيام أن تعود إلى حيث ينبغى أن تعود.

هى أيضا شعرت بسعادة غامرة، تملأ جنبات نفسها.

وكانت قد عرفت أسرارا كثيرة عن حياة المعلم شعبان، وحرص هو على أن يحكى لها قصته، دون أن يحاول إخفاء شئ منها.

الحب هكذا يفك عقد اللسان، والذين يحبون بصدق، لا يعرفون كيف يدارون! لا سر فى الحب، ولا عورة! حتى ثغرات النفس فى الحب تبين. حتى خطايا النفس، فى الحب تتكشف. لا سر عن معشوق. لا خطيئة، لا خطأ، لا عيب يتستر!

الذين يحبون يتكلمون لا يخفون.

ولقد تكلم المعلم شعبان. تكلم وتكلم، ولم يشبع بعد كلاما. كان يعيد قصة حياته، ويرويها فى إفاضة لذيذة، كأنما هو يحرص على أن يفتش كل أسراره؟ لا يعرف، إلا أنه يجب أن يكشف لهيام كل شئ. وكل شئ يجب أن يتعرى أمامها تماما.. تماما. لماذا؟ لا يدرى! وحسبه أن يتعرى. إن استبقاء جزء من نفسه مغطى أمامها خيانة!! نعم خيانة.. والاخلاص لها يقتضيه أن يكشف نفسه لها!!

هيام أيضا شعرت أنها تحب أن تتعرى أمامه. إن عرى النفس، كعرى الجسد.. لذيذ.. أحيانا! والرجل الذى يتقن صنعة الحب، يعرف أن عليه أن يتحسس أجزاء النفس فى حنان، كما يتحسس أجزاء الجسم. وكلما كانت هذه الأجزاء أشد حساسية، كلما كانت أشد تأثيرا على المرأة، فتسلم وتستسلم!!

وكانت أيام!! بلا بداية يستطيع أحدهما أن يحددها، وبلا نهاية يستطيع أحدهما أن يتنبأ بها!! أيام تبدأ من حيث لا يعرفان، وتنتهى حيث لا يتوقعان! أيام بدايتها عدم، ونهايتها غيب مستور!

●●●

لا يدرى المعلم شعبان، كيف بلغ به التأثر إلى هذا الحد!

وهيام كذلك لا تدرى، كيف صارت كلها للمعلم شعبان!

وبدأت أمور كل منهما تتغير. حياة المعلم شعبان صارت مختلفة تماما عما كانت. صار إنسانا رقيق المشاعر، حاد العواطف، حنونا، عطوفا على الناس حتى ألفاظه صارت حلوة. حتى لفتاته صارت طيبة.

وهيام كالمعلم صارت تنتظر أوبته إليها، لتسمع إليه، ولتحكى له، ولتقول ولتسمع، ولتغرق نفسها فى أمواج هادرة تتلاطم فى داخله، ثم يعود من رحلة النشوة، إلى أرض الواقع سعيدة، هانئة.

الله!! هذه دنيا واسعة وعريضة!!

أين كانت؟ ولماذا تأخرت؟ وكيف لا تمتد إلى آخر الزمان؟

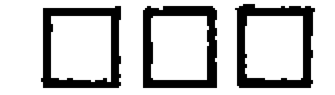
الله!! وعواطف البشر أفسح من حدود المكان والزمان جميعا. فلا هى تنحصر فى وجود محدود، ولا هى تبدأ وتنتهى بمكان معلوم، لكنها تبدأ فى الانسان حتى قبل أن يولد، وتمضى معه، حتى بعد أن يموت!!

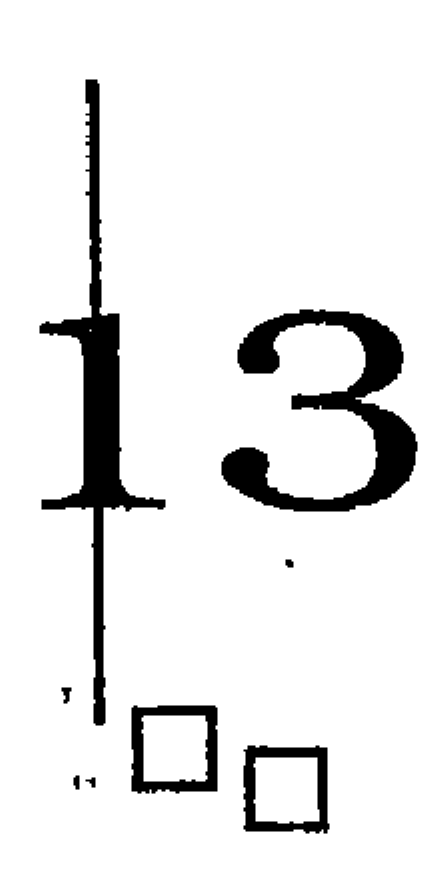
الله!! كانت تقولها، وكانت تقولها، عندما يعجزان عن أن

يجد كلمات أخرى تعكس ما يشعران به، وهما يعبران هذا الجسر المورق الجميل إلى دنيا المنى والاحلام.

المعلم شعبان صار عاشقا.

وهيام أججت النار فى قلب المعلم شعبان، لتحترق هى أيضا بالنار!





.. ونسى المعلم شعبان فى غمرة عواطفه، أنه كان يريد أن يستثمر المحنة! نسى السبب الذى حمله على هذا العناء، وأصبح أسير هواه. نسى البنك، ودكاكين البقالة، والعمارات، ولم تعد أمامه إلا صورة واحدة، هى صورة هيام، القابعة فى ركن مظلم من مخزن مهجور، وإلى جوارها رضيع يشد ثدييها مرة، ويصيح فى عناد مرة، ويناغى أمه فى براءة دائما.

وهيام كذلك نسيت فى هذا الطوفان الملتهب من العواطف نفسها! نسيت لماذا هى هنا، وكيف أتت إلى هنا! نسيت الجراح فى ركبتيها وفى كتفها. نسيت حتى ذكريات زوجها! وصار المعلم شعبان هو حياتها، بكل ما فيه من جهل وتخلف وتردد وتناقض! كان يكفيها منه أن يحبها. بجنون يحبها! وأنه عندما كان يراها، كان يفقد المقدرة على النطق،

ويكتفى بأن ينظر إليها فى صمت، لكنه كان صمتا أبلغ من الكلام!

●●●

ويقول مراد فى سخرية، وهو يقرأ الكلام:

يبدو أننا نتعب أنفسنا من غير طائل.

ويستفسر منه مختار!

فيم؟

ويقول مراد:

فى موضوع المرأة.. مع إنه أبسط كثيرا مما نظن.

ويدور بين الشاعرين حوار هادئ، وتختلف وجهات نظرهما مع هذا.

قالوا أنها لغز يحير عقول الرجال.

وهى ليست لغزا، ولا يحزنون.

وليست كذلك مسطحة تظهر لك، دون عناء.

لمن يعرفها، ويضع أصبعه على حقيقتها تصبح سهلة.

وحتى تعرفها، فهى حالة معقدة.

لأنك تدور حولها، ولا تحاول اقتحامها.

لأن اقتحامها ليس سهلا دائما.

ولن يكون سهلا طالما أنك تدور حولها.

فإن فرضت نفسك عليها؟

كسبت كل شئ.

قهرا.

وقد يكون القهر أجمل ما فى الحب.

كيف؟

لأنه هو السبيل إليه.

إلى الحب الذليل!

فلسفة!

بل حقيقة.

الاستعباد أيضا حقيقة.

وقد يسعى الناس للاستعباد، ليتحرروا!!

هذا منطق غريب!

ولماذا يبدو غريبا؟

لأن القط والفأر لا يجتمعان.

وأين القط وأين الفأر؟

الاستعباد والتحرر!

ليس هذان خصمين.. تماما!

يا صديقى التحرر والاستعباد!! ليسا خصمين؟!

الذين يتحررون من شئ! يستعبدهم شئ آخر.

مغالطة.

الذين تحرروا من الرق، استعبدتهم الآلة.

لكنه استعباد.. تقدمى! لأنه استعباد آلة، لا إنسان؟

صانع الآلة إنسان أيضا.

إذاً يخرج الانسان من فخ ليقع فى فخ آخر.

لكن فى الحب يختلف الأمر.

وفيم يكون الخلاف؟

طبيعة الحب تفرض الاندماج الكامل بين إثنين.

وعندما يندمجان؟

لا يعودان إثنين.

وإذاً؟

ينتفى بينهما الشعور بالاستبداد أو الاستعباد.

والذل فى الحب؟

جزء من مقومات الحب.

والضنى والدموع والآهات والسهاد؟

أعمدة البناء، بدونها ينهار.

لكن هيام.. كيف..؟

كيف.. ماذا؟ كيف تندمج فى المعلم شعبان؟

نعم.. كيف وهما مختلفان.

الخلاف بين الناس عنصر دخيل.

حتى العلم؟

وحتى الشعور!

كيف يكون موقفهما من هذا الخلاف؟

إنهما يندمجان بعناصرهما الأولى.

أما الاضافات فلا.

بشرط ألا تتعارض هذه الاضافات.

الفدائية المثقفة إذاً..

قد تقع فى جامع قمامة!

وجامع القمامة..؟

قد تهواه راقصة باليه!

هذا عجب! وليس هذا حبا! هذه بهيمية يا صديقى.

على كل حال.. لتؤجل مناقشاتنا إلى ما بعد.

عندك حق، فأوراق كثيرة تجمعت هنا.

ولابد أنها تحمل مزيدا من التفصيلات.

●●●

لكن مراد لم يستطع أن يتجاهل رنين التليفون إلى جواره. فاضطر إلى أن يرفع سماعة التليفون ليسمع صياحا قادما من بعيد.

البالونة فرقعت يا بابا.

البالونة فرقعت يا حسن!

وألم تكن تعرف أن هذا مصير أى بالونة؟

ودارت بين مراد وحسن مناقشة سريعة، حاول مراد فيها أن يهدئ من ثائرة الصغير وغضبه، وأن يعده بأن ينفخ له بالونة أخرى أكبر، عندما يعود الى المنزل.

وقال مختار وهو يضحك، تعليقا على المكالمة السريعة!

بالونات، بالونات.. وآخرتها؟!

وعاد كلاهما إلى أوراق القضية المثيرة.

●●●

لكن هذا الحب لم يكن سهلا، ولا كانت طريقه مفروشة بالورود.

هيام دخلت فى أزمة مع المنظمات الفدائية، التى اعتبرت هذا الحب انحرافا فى ذاته، لأنه هابط. ولم يجد دفاع هيام، بأن الرجل طيب وأن قلبه كبير، وأنه إنسان. وظل الموقف متوترا بينها وبين زملائها الفدائيين. والذين لم يهتموا بجانب الهبوط، اهتموا بشئ آخر خطير. من يضمن ألا يبيعنا المعلم شعبان؟ نعم ما الضمان؟ رجل تاجر، وسمسار، وصاحب عمارات ودكاكين، وتكسيات، وبنك رهونات. رجل يهمه المكسب، قبل أى اعتبار، ماذا يمنعه عن إعتبارنا صفقة رابحة، ويبيعنا لمن يدفع وينتهى؟! ما الضمان ألا يحدث هذا؟! ما المانع ألا يحدث؟!

قالت هيام فى ألم:

وما الدافع الذى يدفعه إلى هذا. اسألوا عن الدافع لا المانع؟

وقالوا لها:

المكسب. المكسب الكبير الذى لا يحلم به.

وكانت هيام تؤكد لهم أنه لن يفعل. إنه يحبها، ويخاف عليها، ويود لو استطاع أن يملأ هذه الدنيا أمنا من أجلها.

وظل الموقف مع هذا عسيرا.

●●●

المعلم شعبان كذلك واجه عاصفة من أخيه وشريكهم اليهودى، ومن بقية أفراد أسرته.

لاحظوا أنه بدأ يهمل تجارته وأعماله، وأنه يعمد إلى أن يختفى دون أن يشعر به احد.

وقال اليهودى الخبيث:

دا كمان بيحط ريحه!! دا أنا بشمه من ساعة ما يطلع من البيت!

ولفتت رقته وأناقته وشياكته نظر الذين يعرفونه. وبين أفراد أسرته، كان هناك صراع كبير وشديد!

أخوه يس وضع حوله الجواسيس، ليتبعوه إلى حيث يذهب يقتفوا أثره، ويعودوا بأخباره إليه. أين ذهب. ومن قابل، وماذا فعل! حتى النفس الذى يتنفسه كان موضع رقابة هذا النفر من المراقبين.

لكن كل هؤلاء كانوا يعودون إلى المعلم يس بخفى حنين!

إن المعلم شعبان يذهب إلى عمارة قديمة من عماراتهم، وهناك يختفى!

كيف، وأين؟ لم يكونوا يدرون عن ذلك شيئا!

وطلب المعلم يس بواب العمارة، فاكتشف أن المعلم شعبان رحل الى عمارة أخرى، وترك هذه العمارة بلا بواب.

والإيجار الشهرى من يجمعه؟

البواب يذهب لجمعه ثم يعود إلى حيث أمره المعلم شعبان!

وضرب المعلم يس كفا بكف، وهو يواجه هذه الالغاز!

●●●

المعلم غالى، ولم يكن قد مات بعد، كان كذلك شديد التنبه لما آل إليه مصير أخيه المعلم شعبان، لكنه لم يكن

شديد الضيق من ذلك! ولولا أن أخاه الاكبر يس، يبالغ كثيرا فى هذه المسائل، ما كان المعلم غالى سيتنبه إلى شئ من هذا الذى يقال!

على أنه على عادته كان من أنصار الحرية!

سيبوه حر.. يمتع نفسه، قبل ما يعجز.

ويضيع ويضيعنا معاه.. مش كده؟

هكذا كان أخوه الكبير يرد عليه فى حدة، فكان يسكت ولا يدرى كيف يساهم فى هذه الحملة التى يشنها أخوه الكبير، ويديرها فى حرص وذكاء.

●●●

اليهودى المكار، كان يود أن يتم كل شئ فى حرص شديد. كان يريد أن يعرف. ولم يكن يريد أن يتنبه المعلم شعبان إلى أنهم يشغلون به. كان يريد أن يضبطه متلبسا، لسبب فى نفسه، لم يفصح عنه لأحد.

ومن أجل هذا سخر المعلم يس، وسخر المعلم غالى، وسخر معهما عددا لا يحصى من الأقارب والأصهار، والمعارف والأنفار كذلك.

وعندما تجمعت لدى اليهودى معلومات كافية من العمارة التى يذهب إليها كل صباح، ولا يغادرها بالنهار، إلا ليعود إليها، ولا يفارقها إلا فى المساء، وفى بعض الليالى، يظل هناك فى هذه العمارة.

عندما تجمعت لدى اليهودى هذه المعلومات، ذهب بنفسه الى العمارة ليرى ماذا هناك.

وكان الخبيث يتصور أن المعلم شعبان عقد صداقة مع إحدى ساكنات العمارة.

وكان تقديره أن هذه الواحدة، التى تملك ظروفا على النحو الذى يجعل المعلم غالى أو شعبان قادرا على ما يشبه الاقامة معها. هذه الواحدة لا بد أن تكون أرملة مثلا، أو مطلقة، أو عانسا، أو شيئا كهذا.

لكن العمارة كانت كلها مسكونة بالعائلات المتوسطة، ولم تكن هناك شقة واحدة موضع ارتياب.

إذاً هناك سر آخر. ولم يخطر على باله شئ ينير طريق هذا السر.

وبينما هو يهم بأن يعود إلى مكانه من البنك، إذا هو يرى المعلم شعبان يصعد درجات السلم، خارجا من البدروم.

واختفى اليهودى حتى مضى المعلم بعيدا، ثم هبط هو مسرعا على السلم إلى البدروم. وطرق الباب فى رفق، ففتح فى رفق، لكن أحدا لم يظهر يرحب بمقدمه! وتسلل اليهودى الخبيث فى خفة، والتصق بالباب، حتى تعتاد عيناه على الظلام.

وسمع حيث كان صوتا رقيقا شاعريا، يقول:

إيه يا معلم؟ تعال أنا هنا بنيم الطفل.

واتجه نحو مصدر الصوت، فوجد بابا، مفتوحا نصفه، فوقف أمامه يتأمل منظرا رائعا.

هيام كانت فى قميص نوم شفاف. كان القميص أبيض، فبدت فيه كالملائكة. وكان شعرها يتهدل فى غير انتظام فوق كتفيها، وحول رقبتها، وتمد أطراف منه تلثم صدرها، وجنبيها، وخديها.

وكانت حافية. وكانت تهتز، ليهتز سرير الطفل معها، وهى تردد الأغانى التى تخدر أعصاب الأطفال ليناموا.

"ننه ونام، ننه ونام، وأدبحلك جوزين الحمام".

"ننه ونام، ننه ونام، أمك السيدة وأبوك الإمام".

وسكتت هيام برهة وهى تردد فيما يشبه الهمس:

"أبوك. أبوك مين" أبوك مات. لكن بعد ما موت طابور انجليزى.

وعادت تقول:

وأبوك الامام!!

وتسكت قليلا ثم تقول!

"صحيح إمام. والله كان إمام. أمال اللى يعمل كده يبقى إيه؟ مش إمام؟".

وتنبهت إلى أن أحدا لم يدخل فأخذت تصيح:

إنت فين يا معلم؟ تعال قلت لك، وإلا البتاعة دى مفتحتش! لازم مفتحتش! طيب أنا جايه لك أهو.

وتلفتت خلفها لتتجه نحو الباب، فوجدت شخصا غريبا واجهها.

وصرخت هيام، ثم استلقت على السرير جنب سرير ابنها، مغمى عليها.

وكان اليهودى رفيقا بها فأخذ يربت على خديها فى ود، لتفيق.

لكن المفاجأة كانت قاسية عليها، فأخذت وهى فى غيبوبة تردد كلمات وجملا مختلفة:

البوليس. ليه؟ أنا صحيح هربت من السجن، لكن إنتو السبب. هوه أنا عملت إيه؟

جوزى مات. موت طابور انجليز، لكن مات. حتاخدونى فى رجليه؟

مين دول اللى خدتوهم؟ دا كل المنظمة!! حرام دا فيهم ناس غلابة!

والتلاميذ جايبينهم ليه؟

إياك واحد يقرب من الولد ده. دا أنا أقتله! دا ابنى!

●●●

وعندما أفاقت وجدت نفسها مستندة إلى كتف الرجل الغريب الذى أثار فزعها.

قال لها فى ود:

متخافيش. أنا والمعلم شعبان واحد. دا إحنا أخوات.

وبدأ حديث طويل، أداره اليهودى الخبيث بذكاء وانتهى منه بأن أفهمها أنه أدرك كل شئ، وأنه على استعداد

لحمايتها، بل ومساعدتها. أما عن المعلم شعبان، فإنه يستطيع أن يسكت عنه كذلك، ليمضى حبهما إلى غايته، فانه يقدر العواطف البريئة هذه، ويتمنى لو استطاع أن يحقق السعادة لكل المحبين!

لكن له شرطا!

وانصتت هيام تريد أن تعرف الشرط.

قال اليهودى.

يتعرف على كل أفراد المنظمة.

وذعرت هى من هذا الاقتراح قائلة:

لماذا؟ وماذا بينك وبينهم؟

قال: هذا هو شرطى الوحيد منك، أما هم فسيكون لى معهم حديث طويل.

وندبت المنظمة ثلاثة من أفرادها لتقابل هذا اليهودى المكار، ولتتعرف عليه، وعلى طلباته.

وعندما حل موعد اللقاء، كانت هيام قد دبرت الأمر، فلم يكن المعلم شعبان موجودا. وأقبل أعضاء المنظمة ليقابلوا اليهودى التائه، وليسمعوا منه ماذا يريد.

وعندما تلاقوا قال اليهودى:

أنا أعـرف كل أسـراركم، وأحـتـرم كـفـاحـكم. هل تعـرفـون لماذا؟

ولم يجب أحد. كانوا يريدون أن يسمعوه.

قال اليهودى:

لأنكم تحاربون نفس العدو الذى نحاربه نحن أيضا.

إن عـدوكم هـو نفس عـدونا، وكل مـا بيننا مـن فـروق، هـو الوسـيلة التـى نحـاربـه بهـا. أنتم تحـاربونه مـواجـهـة، ونـحن نحـاربـه خلسـة. ربما لأنكم كـثـيـرون وأقـويـاء. وربما لأن عـددكم كبير ويتحـمل أن تواجهوه. أما نحن فـضـعـاف وقلة، ولهذا نحاربه خلسة.

تصوروا أننا نحاربه بزيه!

بل نحاربه كذلك بسلاحه!

وأخيرا نحاربه بوسائله!

الحـاجة أم الاختـراع، هذه وسائل قد تـبدو دنيئة، وغـيـر أخـلاقيـة لكننا مـضطرون إليـهـا، والغـاية على كـل حـال تبـرر الوسيلة.

نحن نريد انتزاع وطننا من مخالب الأسد البريطانى، المنتدب لإدارة فلسطين، وصاحب الجيوش التى تحتلها.

إذاً لا وسيلة، إلا أن نتخفى فى زى العساكر الانجليز، ونعمل فى المعسكرات الانجليزية، ونتدرب على أسلحته، وننقض عليه لنحمله على الرحيل.

نحن وأنتم سواء، أنتم تحاربونه ليرحل عن بلادكم. ونحن نحاربه ليرحل عن الوطن الذى نحلم به.

إذاً نحن شركاء، مبادئنا واحدة، وعدونا واحد.

ولعلكم تقرأون فى الصحف ما نفعله بالانجليز فى فلسطين. إننا نجرد جنودهم من الملابس، لنشويهم عرايا، ونتركهم مشوهين، ليراهم زملاؤهم فى الصباح! إننا نحاربهم بالفزع! وبالرعب! وبالخوف الذى يصل حد الهوس! بالسلاح يغلبوننا. بالذخيرة يقضون علينا. بالتكتيك ينهون جموعنا. لكن بالرعب نفعل بهم ما نريد. بالفزع، بالخوف، بأن يسيروا يتلفتون خلف ظهورهم، نكسب منهم ما نريد.

ولا بأس يا إخوانى من أن نتبادل الخبرات. نحن على استعداد لأن نتبادل الخبرات. نحن كذلك مستعدون لإعطائكم كل ما تطلبونه من أخبار، وأسرار، ومعلومات.

وسيكون المقابل بسيط جدا أيها الإخوان.

●●●

وبدأ اليهودى الخبيث يطلب منهم أن يعملوا معه، باسم العدو الواحد، والكفاح الواحد.

وكان كل ما يطلبه معلومات عن جهات عربية وشخصيات عربية.

هؤلاء الذين يعكرون ما بين عالمنا السامى من علاقات، ويعمدون إلى أن يحولوا أنظاركم من عدوكم الأصيل، وهم الانجليز، الى أولاد عمومتكم الساميين اليهود فى فلسطين!

هؤلاء عملاء الانجليز، والانجليز أعداؤكم.

هؤلاء مثيرو شغب، ولن تستقر الحياة هنا وهم فيها:

هؤلاء.. هؤلاء.. هؤلاء!

●●●

ولم يرد عليه أحد بشئ. كل الذى قالوه أنهم سيدرسون هذا الكلام مع زملائهم، ثم يعودون إليه بعد أن تتم الدراسة.

وعندما تمت الدارسة، ذهب اليهودى إلى البدروم، ليجد فى انتظاره أصبع مفرقعات انفجر عندما فتح الباب، ليشوه وجهه!!

نجا اليهودى من الموت! لكنه لم ينج من علامة دائمة تشير إليه فلما شفى، وعاد إلى بنك الرهونات، لم يكن يستطيع أن يقول لأحد ماذا حدث له! وآثر الصمت على الكلام!

وكذيل الكلب الأعوج، يعود أعوج مهما كانت محاولة حمله على الاستقامة، فكذلك اليهودى المشوه، عاد يتلصص على المعلم شعبان، ليرى إلام انتهت قصته.

ورآه غارقا فى الحب حتى أذنيه، فأصر على أن يتابع رحلته خلفه!

●●●

هيام واجهت سخط جماعتها، لكن دفاعها قد كان منطقيا.

وما ذنب المعلم شعبان؟ ماذا فعل الرجل؟ علام تعاقبونه! وعلام تعاقبوننى، ولم أخن عهدا؟

وأغمض أفراد الجماعة عيونهم عنها، غير مطمئنين!

أما هى فقد طلبت منه أن يغير لها هذا المكان، وبغير سؤال أو تحر أو تردد، أخذها إلى مكان آخر، شعرت أنها فيه أكثر أمنا.

ولم يكن يعرف المكان الجديد أحد.

وظل المعلم شعبان يتردد على هيام، بكل ما كان يستطيعه من أناقة وشياكة، وروائح تزكم أنف اليهودى المشوه!

ولم ييأس اليهودى، ولا تعلم من الدرس الذى شوه وجهه!

وظل يسعى ليعرف مكان المعلم شعبان حتى عرف.

وعندئذ، أبلغ البوليس عن مكان الفدائية الهاربة من المعتقل، وعن مكان "الوكر" الذى تجتمع فيه المنظمة الفدائية!

●●●

وقبض على المعلم شعبان، للتحقيق.

ومر يوم، واليهودى ينتظر مهاجمة "الوكر" الذى أرشد إليه، لكن أحدا لم يهتم به! وعاد اليهودى يرشد البوليس إليه. وبالبريد، وبالبرق، وبالتليفون أرشد!

وشعر أن هيام قد تسللت من الوكر تحت جنح الظلام، فأسرع يبلغ عن فرارها، بتدبير من المعلم شعبان.

وتحرك البوليس أخيرا، فحضر الى "الوكر" الذى أرشد إليه، لكنه لم يجد فيه أحدا، ولا شيئا.

ومضى رجال المباحث يسبون هؤلاء الذين تخصصوا فى تضليل رجال البوليس، وإرسال البلاغات الكاذبة!

وهز اليهودى الخبيث رأسه، وهو يراهم خارجين، ثم أخذ يتمتم بعبارات السخط على هذه البلاد كلها، وعلى شريكه المعلم شعبان.

"حتى البوليس بقى عصابة!! جايين بعد ما مشت!! ما كان بدرى!!"

لكن أحدا لم يتلفت إليه!

●●●

المعلم شعبان كان هو الضحية، فى كل هذه اللعبة التى لعبها اليهودى.

ظل محبوسا تحت التحقيق، تمارس معه ألوان غريبة من التصرفات. مرة يحبسونه حبسا انفراديا، لا يرى فيه النور، ولا يلتقى بأحد، ويرمى إليه الطعام ليلعقه كالكلاب! ومرة ثانية يحسنون معاملته، ويرتبون له طعاما مناسبا، وزيارات، وجوا مليئا بالراحة والابتهاج، لا بأس مثلا من أن يسمع الراديو! لا بأس كذلك من أن يحضروا له الصحف، وهم

يعرفون أنه لا يقرأها! والمعلم شعبان حائر لا يدرى ماذا يريدون منه.

هددوه بالنفى فى معتقل، تطير فيه الجنيات لتأكل أكباد الرجال، ويمتلئ بالعفاريت الحمر، وحول كل نزيل فيه باقة من الثعابين والحيات!

.. وهددوه بالويل، وعظائم الأمور، وخراب البيوت، وتيتيم الأولاد، وتشريد الأقارب والأصحاب.

وبعدها وعدوه!

وعدوه بالجنة التى وعد الله بها عبادة الصالحين!

وعدوه بالمال الكثير، والنفوذ والسلطة!

وعدوه بمساعدته ليكون مزيدا من الثروة، ويبنى عديدا من العمارات!

والمعلم شعبان بين التهديد والوعيد شارد، لا يدرى ماذا يفعل، ولا ماذا يقول!!

●●●

تعرف مطلوب منك إيه؟

أبدا ما أعرفش.

تساعد الحكومة. مش عاوز تساعد الحكومة؟

يا ريت أقدر. هوه فيه حد مش عاوز يساعد الحكومة؟

عال.. يبقى اتفقنا.. شوف بقه.

أفندم. تحت أمرك.

الست صاحبتك دى.. اسمها إيه؟

وسكت المعلم شعبان.. كان كثيرا عليه أن يرد.. إن حبه كان عظيما، ولقد كان له وحده، والحديث عنه، يجرح حياءه، كأنما يدخل على معشوقته واحدا غريبا، وهى عارية!! ولم يدر ماذا قال، لكنه وجد نفسه فجأة محبوسا حبسا انفراديا بعد العز الذى كان فيه، يلعق أطباق الطعام فى الظلام وحده!

●●●

تعرف الفدائيين دول عاوزين إيه؟

أبدا.. وانا أعرف منين؟

عاوزين يموتوا مولانا الملك. ترضى بكده.

أبدا.. أبدا. ليه؟

وعاوزين كمان يقتلوا رئيس الوزارة والوزراء، ترضى؟

أرضى ازاى، دى جرايم!

طيب. يبقى لما تعرف غرضهم مش تساعدنا نخلص منهم؟

ازاى.. هوه أنا أقدر أعمل ايه؟

يا معلم شعبان إنت تقدر تتعامل فى حاجة ما تعرفهاش؟

لأ.. أخسر.

طيب واذا كان فيها حاجة كويسة، وعاوزة حد يعرفها؟

أأجر اللى يعرفها.

ليه؟

عشان يدلنى على أسرارها، ويساعدنى.

أهو إحنا عاوزين اللى يدلنا على الفدائيين.

دا لازم يكون منهم.

أو يعرفهم.

جايز.

وإنت تعرفهم والا لأ.

وسكت المعلم شعبان. لم يكن يملك أن يرد. أدرك أنهم يريدون أن يجروا رجليه إلى أن يصبح جاسوسا عليهم، من

خلال هيام. وهيام عنده بالدنيا كلها. لا. لن يخونها. لن يخونها.

وصاح المعلم دون أن يدرى: لا.. لا.. لا.

واختلط بصياحه صياح آخر يقول فى أذنيه:

تبقى عاوز تموت الملك. تبقى عاوز تقتل رئيس الوزراء.

تبقى عاوز تخرب البلد. إنت راخر فدائى. إنت لازم فدائى.

●●●

ومرة ثانية وجد المعلم شعبان نفسه بين جدران أربعة مظلمة جافة غليظة، تحجب عنه النور، وتعزله عن الدنيا بكل ما فيها من حياة.

وفى وسط هذا الظلام، كان وجه هيام يطل عليه منيرا حلوا عذبا يبتسم له، ويحاوره، ويداوره، ويحذره، ويقول له كلاما عجيبا.

بيمتحنونا يا معلم شعبان، كل الناس غيرانه منك ومنى. ازاى فدائية. بتقرأ وتكتب، وتحارب الانجليز، تحب واحد معلم واحد معلم ميعرفش حتى يفك الخط، غايرين منى ومنك. مش عاجبهم نكون مع بعض. إياهم يوقعوك!

إياهم يا معلم!! إوعى تضعف أو تخاف.

●●●

وكان المعلم شعبان يمضى الليالى والأيام يناجيها ويناغيها. كان سعيدا بالظلام الذى كان فيه. سعيدا بالعزلة بين هذه الجدران، لأن هيام كانت معه!

●●●

لكن رجال المباحث ضاقوا ذرعا بالمعلم شعبان، فقرروا أن يتبعوا معه وسائل أخرى غير مجرد التهديد والوعيد.

وفى صباح يوم من الأيام، فتحوا عليه الباب ليجروه جرا إلى الفناء الواسع.

كان كالأعشى لا يرى. الظلام الذى عاش فيه أعشى بصره، فاستمر فترة طويلة لا يرى من هؤلاء الذين حوله تماما.

وأخيرا رأى أخاه المعلم عيسى، وأخاه المعلم غالى، واليهودى الشريك المكار، ينظر اليه من خلف منظار سميك.

ووجد كذلك بعض الأقارب ممن استقدموهم من البلد، ليعملوا معهم.

واحد اسمه ابراهيم، كان يرتعد من الخوف!

وواحد اسمه سليمان، كانت أسنانه تصطك من الرعب!

وواحد اسمه نظيم، كانت ركبه قد سابت من مفاصلها!

وواحد اسمه خليل، وواحد اسمه عدلى.. وواحد وواحد وواحد!

حتى ابنه قمر الزمان، الطفل، كان هناك، يلبس بدلة ضابط كبير جديدة، كأن اليوم يوم عيد؟

والنساء تصايحن كذلك بالعويل!

حتى الرجال سمعت لهم شهقات عميقة متصلة!

●●●

وفى مكتب مأمور السجن، كان المعلم شعبان جالسا يواجه صاحب هذا الصوت الجهورى، وعدد من المخبرين منثورين فى أركان المكتب.

ودار حديث من نوع جديد.

شوف يا معلم. إحنا مالناش غير راحتك.

الله يخليك ليه.. يا رب!

وأنا عارف إنك راجل طيب.

وأنا كمان عارف إنك بتحبنى.

جدا جدا. دا إنت ابن ناسن وأهلك حبايبى.

وإيه اللى أقدر أعمله؟

أهو كده، شوف يا سيدى. صاحبتك بقه اسمها إيه؟

ما أنا يا بيه بصراحة كده ليه أصحاب كتير. تقصد مين؟

حتتملعن تانى.. ما إنت عارف أقصد مين.

قصدك الرقاصة؟

والنبى إيه؟

أمال إيه التلميذة؟

لأ يا شيخ.. حنقرض!

طب قول مين؟

الفدائية. الهربانة من المعتقل. اللى ولدت عندك فى البدروم.

وعاد المعلم شعبان إلى صمته، وقد تاه عن دنياه، ولولا أن صاحب الصوت الجهورى مضى يناقشه لما أفاق:

خليك معاية.. فهمت والا لأ.

فهمت عاوز إيه؟

اسمها إيه؟

طب ما إنت لازم عارف. ما دام عارف إنها هربانة من المعتقل ووالده عندى فى البدروم. يبقى يعنى ناقص اسمها؟ لازم إنت تعرفه برضه.

وإفرض أعرفه، وإنت ما تقولش ليه.

معرفش. لسانى مش مطاوعنى أقول حاجة عنها.

بتحبها؟

قوى.. قوى.

وهيه؟

لازم بتحبنى، لازم.

طيب إيه رأيك اللى يجوزها لك.

ووقف المعلم شعبان من الفرحة. شب على قدميه ووقف، وهو لا يصدق أذنيه. هل صحيح يستطيع أن يزوجها له؟ وكيف يستطيع هذا؟ لقد حاول أن يقنعها بأن تتزوجه فلم تكن ترد على عرضه أبدا. كانت تنظر إليه فى شحوب، ثم تقبله لتسكته، فلا يمضى فى هذا الحديث. وكانت قبلة منها كافية لتدير رأسه وتفقده الذاكرة. هل جاء اليوم الذى تقبل

فيه أن يتزوجها؟ لو استطاع هذا الرجل أن يزوجه بها، فسيكون ذلك جميلا لا ينساه!

●●●

إمتى؟

إن شاء الله دلوقتى.

طب ما تيالا بينا. مستنى إيه؟

يا راجل صبرك.

هوه فيه صبر يا راجل؟ صبر مع دى؟!

أقعد واستهدى بالله.

قعدنا.. وبعدين؟

مش نتفق؟

على إيه؟

المهر مثلا.

ثروتى كلها عندك خدها وإديها لها.

والميعاد.

دلوقتى حالا.

والموانع الشرعية.

خلاص. دا فاتت بيجى سنة.

والمعتقل؟

ماله؟

إنت مش عارف إنها هربانة؟

عارف، لكن ما كفاها بقه.

طب مش نعالج مشكلتها الأول، والا بيجوا يأخذوها منك تانى؟

لا لا.. دى تبقى بلوى.

عشان كده تسمع كلامى.

سامع أهوه. عاوز إيه؟

عاوز أتفاهم معاها.

مين؟ إنت؟

آ.. أنا..

ليه؟

غاير؟

لأ. بس ليه؟

أرتب معاها حاجات وحاجات.

زى إيه؟

أأمنها عشان متروحش بعد كده السجن أو المعتقل أبدا.

وتقدر؟

إذا هيه ساعدتنى.

وتساعدك إزاى؟

ندبر مع بعض شغله كده وإلا كده. على كل حال هيه اللى تقدر تتفق معايه.

طب ما يلا بينا.

على فين؟

نروح لها.

على طول؟

آ.. ليه نضيع وقتنا؟

على رأيك.

●●●

ونظر صاحب الصوت الجهورى إلى جانب مأمور السجن، فغادر مكتبه على الفور، وعاد ببعض الأوراق اللازمة للإفراج عن السجين تحت التحقيق.

●●●

فى نفس الوقت تسلل أحد المخبرين إلى خارج حجرة المكتب، ومضى هادئا فى خطوات متزنة، حتى خرج من باب السجن، ثم اتجه إلى أقرب تاكسى فاستقله بسرعة قبل أن يتم الإفراج عن السجين.

وعندما خرج الرجل ذو الصوت الجهورى والمعلم شعبان، لم يكن معهما إلا مخبر واحد مسلح، احتياطا لأى طارئ.

هم أيضا استقلوا إحدى سيارات التاكسى ومضوا الى حيث قال المعمل شعبان وعلى أفواههم ابتسامات سعيدة جدا.

المعلم شعبان كان سعيدا لأنه سيلقى هيام بعد فترة عذاب طالت عليه، حتى صار يشعر بأنها ابتلعت عمره.

وصاحب الصوت الجهورى كان سعيدا لأنه سيحقق أملا كبيرا تسعى المباحث وأجهزة البوليس السياسى إلى تحقيقه

منذ سنوات وهو السيطرة على المنظمات الفدائية عن طريق أفرادها أنفسهم.

والمخبر المرافق لصاحب الصوت الجهورى كان سعيدا لأنه سيصرف اليوم مكافأة كبيرة، عندما يتحقق هذا الأمل.

وظل كل يغنى على ليلاه، والسيارة تذرع بهم الطريق إلى هيام.

●●●

لكنها لم تكن هناك.

لم تكن فى البدروم الذى وضعها المعلم شعبان فيه.

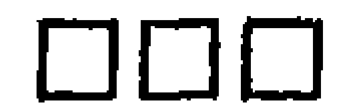
وعندما دخلوا، كانت كل الدلائل تدل على أن الست هيام غادرت المكان منذ لحظات، وابنها بين ذراعيها!

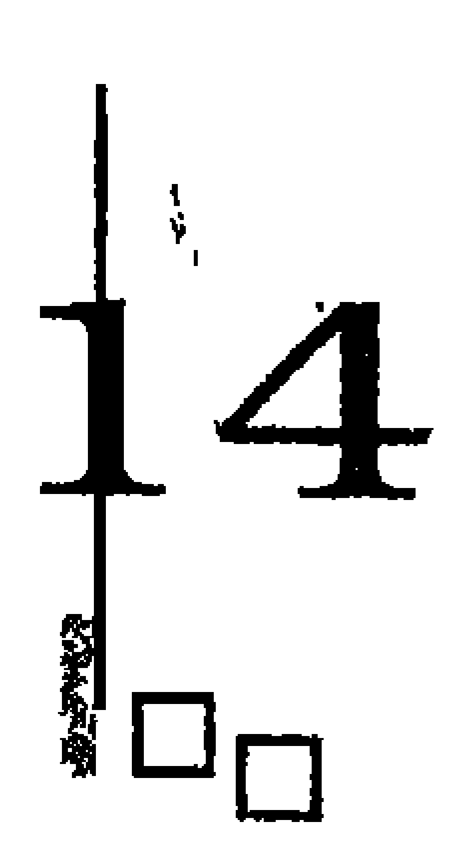
وكانت كل الدلائل تدل على أنها خرجت متسرعة ملهوفة، قبل أن تتمكن من ترتيب شئ.

بقايا ملابس كانت منثورة هنا وهناك!

بقايا طعام طازج كان متروكا دون أن يؤكل!

حتى لبن الطفل، فى وعاء متروك، كان لا يزال دافئا!





كانت المفاجأة مذهلة للرجل صاحب الصوت الجهورى، وللمعلم شعبان!

أما صاحب الصوت الجهورى، فقد ضاعت منه الصفقة!

وأما المعلم شعبان، فقد تبدد منه الحلم الرقيق الجميل!

ونظر كل منهما إلى الآخر فى استغراب، وهما أمام الحقيقة المذهلة. لكن ماذا كانا يستطيعان أن يفعلا؟

المعلم شعبان كان فى السجن، وكان بعيدا عن الأحداث، ولا يمكن إتهامه بأن له يدا فى هذه المفاجأة.

.. إذن من؟ صدفة؟ لا يمكن أن يكون الأمر قد تم صدفة!!

وبينما هما على هذه الحالة من الذهول، أقبل اليهودى المشوه الوجه، ليقول لصاحب الصوت الجهورى أنه رأى

شخصا يسرع إلى هذه الناحية منذ قليل، وأن هذا الشخص، دخل العمارة، ثم اختفى فيها، وبعد قليل أسرع خارجا، وهو يحمل بعض المتاع، وما هى إلا دقيقة أو دقيقتين، ثم خرجت على أثره الست التى تبحثون عنها، وعلى صدرها ابنها، وفى يديها بقية المتاع.

من كان هذا الشخص؟

لا أعرف.

هل تستطيع أن تصفه؟

وسط، لا طويل ولا قصير، وأسمر، ويرتدى جلبابا أبيض وطاقية، وعلى سحنته شئ غير عادى.

يعنى ايه؟

يعنى شكله شكل المخبرين، أو الغفر.

مخبرا! تعنى أنه قد يكون.

ولم لا؟ هذه عصابة ممتدة الأطراف يا بيه.

ويكون منها مخبرون فى البوليس.

وعساكر جيش، وضباط وموظفون صغار وكبار.

وكلهم مع الفدائيين.

فدائيون. هم فدائيون يا بيه. عاوزين يخربوا البلد.

ويستفيدوا إيه؟

همه دول بيفكروا فى كده؟ دول مجانين يا بيه.

طيب هيه راحت فين؟

معرفش.. ركبت عربية، ومشيت بيها الناحية التانية.

ومتعرفش نمرة العربية؟

فاتتنى دى.

●●●

وخلال هذه المناقشة العصبية، كان المعلم شعبان ينظر إلى اليهودى، وهو شارد عن الدنيا كلها، وحتى عن هيام!

وراودته أفكار شتى.

- ماذا أتى باليهودى الآن، وفى هذه اللحظة؟

وكيف يعرف أن هيام كانت تعيش هنا، وأنها فدائية؟

ولماذا حرص على أن يعرف هذه الأشياء، وهو رجل لا يهتم بغير المال، وجمعه، واستثماره، واستغلاله، ولا يعنيه بعد هذا شئ؟

ثم فيم مراقبته لها على هذا النحو، وسواء جاءها مخبر أو صديق أو من يكون، فلماذا الاهتمام بها على هذه الصورة؟

يحبها؟! هل هذا اليهودى المشوه المجنون يحبها؟

وغلى الدم فى عروق المعلم شعبان، وأظلمت الدنيا فى وجهه.

اليهودى يحبها!

ترى هل هى أيضا تحبه؟!

وتخوناني يا كلاب؟!

وتلعبان على من وراء ظهري؟!

إذاً كنت مخدوعا يا معلم شعبان؟! كنت مخدوعا؟!

وأمسك المعلم شعبان نفسه حتى لا يسقط مغشيا عليه، وأطبق على جفنيه، حتى لا تتساقط منهما الدموع!

وقال المعلم شعبان لليهودى، وهما يغادران المكان!

ما كانش العشم يا خواجة.

ولم يرد اليهودى بحرف. مضى، دون كلام، وصاحب الصوت الجهورى حائر لا يدري ماذا يفعل، والمعلم شعبان

ملئ القلب بالحقد على كل يهود الأرض، من أجل هذا الذى خانه!!

●●●

وبدأت رحلة طويلة من العذاب والمرارة.

المعلم شعبان لم يكن قادرا على أن يتصور الدنيا من غير هيام.

لم يكن للطعام طعم، ولا للشراب، ولا الأناقة صارت تجدى، ولا الثياب الحرير، ولا الأملاك، ولا البنك، ولا العائلة، ولا اليهودى المشوه!

كل هذا لم يعد يعنيه، ولم يعد كذلك يهمه!

هيام غابت، فغابت معها الدنيا كلها!

وسقط الرجل مريضا بالصمت! لا يتكلم عن شئ، ولا يتحدث ولكنه يعيش، لأنه لا يستطيع أن يموت!!

●●●

وكان المعلم خليل فى شبه غيبوبة، وعندما كان يفيق كان يؤثر أن يمثل دور النائم لينصت إلى الأحاديث التى تدور حوله.

امرأته وابنه قمر الزمان كانا يجلسان على حافة سريره، والأم تحكى والولد يسمع منها، لا يتدخل فى موضوع الحديث إلا قليلا.

لازم من الإهانة يا نضرى! الراجل ما استحملش. فاكر يوم ما كانوا عاوزين يضربوه قدامنا، ولمونا كلنا عشان نشوفه؟! هو ده شوية؟ ومين عارف عملوا فيه إيه كمان؟

يعملوا فيه إيه يا أمه؟

يمكن ضربوه. يمكن جوعوه. نيموه على الأسفلت وهوه مسكين وضعيف وميستحملش. طب المجرمين معلش. الصيع معلش. الغلابة والفقرا واللى واخدين على الأرصفة معلش. لكن واحد زى أبوك واخد على العز ومتربى وابن ناس يعملوا فيه كده؟!

●●●

وفى غيبوبة كان المعلم شعبان يهز رأسه ساخرا.

ابن عز! أنا صبرت ابن عز! وابن ناس! ومش واخد!

دنيا! هى دائما هكذا الدنيا! بلا ذاكرة! أو تغطى على ذاكرتها

دنيا!! حتى لا ترى الحقيقة الساخرة أمام عينيها!

الدنيا كثور الساقية معصوبة العينين حتى لا ترى ولو رأت ما رضيت لنفسها هذا المصير! ولا قبلت أن تدور على هذا النحو الممل المزعج، لا تتوقف إلا لتدور!!

والدنيا تعرف الحقيقة، لكن العصابة على عيْنيها تمنعها من أن ترى، حتى لا يكون ما تراه، صدمة تهز المشاعر الساكنة والقانعة معا!!

●●●

أخوه المعلم يس، والعلم غالى كانا يتقابلان حول سريره، وهو مغمض العينين، وتدور بينهما أحاديث.

الراجل جرى له إيه؟

سيبه فى حاله، وهو يفوق لوحده.

لكن دا لا هو نوم ولا صحيان.

يمكن بيحب.

يعنى إنت راخر ما وراكش إلا الكلام الفارغ.

وهوه ده فارغ؟

يا غالى يا خويا أنت ناسى إنت مين؟

أنا مايهمنيش أنا مين، ولا كنت إيه ولا حاجة. أنا بس عاوز أنبسط. هوه فيه حاجة دايمة؟

يا راجل!! عيب يا راجل!

لا الفقر بيدوم، ولا الغنى بيدوم. إنبسط أحسن!

إنت اللى خسرته.

أنا. ليه؟

علمته الحب والعشق والكلام الفارغ.

وهو بيحب؟

أمال دا يبقى إيه!!

مين قال؟

الخواجة.

اليهودى؟

آ ... اليهودى.

طب ويعرف منين؟

دى حكاية بقه طويلة.

الخواجة اليهودى!!

الخواجة اليهودى يعرف!! وكيف يعرف؟ وماذا يعرف؟!

وبدأ المعلم شعبان يفكر هنيهة فى هذا الذى يعرفه الخواجه اليهودى، وفى اليوم الذى خرج فيه هو من السجن، مع صاحب الصوت الجهورى، ووجده هناك، حيث كانت هيام تستقر!! هل كان اليهودى يعرف، حتى قصة خروجه من السجن، وذهابه إليها؟!

ولم يستطع المعلم شعبان أن يتحمل هذا التناقض، فأخذ يتململ من ضيقه وعجزه فى آن واحد.

وصب المعلم شعبان كل غضبه على الخواجه اليهودى.

إذاً هو أنت الذى ضيع حبى!

هو أنت الذى ضيع فرصتى فى الزواج منها!

كنت ذاهبا إليها، مع صاحب الصوت الجهورى، الذى وعدنى بأن يزوجنى منها، فحلت أنت بينى وبينها.

وتصور المعلم شعبان أنه كان على وشك أن يصبح عريسا. ولو أن هذا تم، لكان اليوم يرفل من حلل السعادة والبهجة والهناء، بدلا من هذه العزلة التى فرضها على

نفسـه، حـتى لا يرى الناس، ولا يسـمع الكلام الفـارغ، ولا يتقبل السؤال عنه، كالعزاء!!

وتمنى لو يستطيع أن يقضى على اليهودى. إنه شخص بغيض، بغيض، بغيض.

●●●

وكان اليهودى أيضا يزوره ليطمئن عليه.

.. لتطمئن يا أيها الأخ الشـريك، أم لتشمت؟! يا شريك النحس أنت!!

لكنه هذه المرة جاء بصحبة المعلم يس.

وكانت ثقة المعلم يس به كبيرة، وكان يعتبره مصدر الخير كله، لأنه هو الذى يفكر لهم، ويرسم، ويخطط. ولولاه ما كانوا استطاعوا أن يفتحوا البنك، ولا أن يديروه.

وجلس الشريكان حول سرير المريض يتحدثان، والمعلم شعبان قد تحول الى آذان تسمع دبيب النمل.

●●●

هوه اللى جابه لروحه..

معلش يا خواجة. برضه نشوف طريقة.

أما يخف بقه.

قبل ما يخف نشوف طريقة.

وأنا حعمل إيه؟

إنت دماغك كبير وتعرف كل حاجة.

لكن فى دى يا معلم.. لا.

لأ والله ما فيه حاجة بعيدة عليك.

هوه أنا كنت قلت له روح حب لك واحدة فدائية؟

يعنى هوه كان عارف؟!

لا والله كان مغمض زى القطط! فدائية!! تعرف لو رقاصة كان جائز. بياعة خردوات. زى بعضه. معلمة فى الحسنية، معلش إنما فدائية.

هيه الفدائية أوحش من دول كلهم؟

فدائية يا معلم يس. يعنى بتقتل وتموت وقلبها حجر.

يا سلام.. لازم ما كانش يعرف.

أهم عاوزين يقبضوا عليه ويرحلوه على الجبل.

لأ والنبى بلاش. دا صاحب عيال. دا أخويه وأنا عارفه!

تبقى تنفعه بقة الفدائية.

النافع ربنا. بس إنت اللى البركة فيك.

أى نعم أنا ليه طرقى ومعارفى، وأقدر أنفذ على الجن، لكن أنا كمان أخاف أضمن واحد مع الفدائية. مين عارف؟ يمكن عملوه فدائى هوه كمان.

شعبان. أخويا شعبان!!

آه.. ماله.. مش راجل.

شعبان فدائى!!

ليه لأ؟

يا خواجة دا ميعرفش، وحيقعد طول عمره ميعرفش؟!

يتعلم.

يتعلم إيه يا راجل؟ متقولش كده.

المهم أما كمان لازم أتأكد.. لما يخف نشوف.

وتتصل بيهم؟

حاضر يا معلم يس. عشان خاطرك أنت بس.

ويسيبوه بقه.. لا ياخدوه ولا حاجة.

يبطل بقه.

طبعا لازم يبطل.

خلى فى بالك أنا حنعرف إن كان يبطل والا لأ.. مش كلام!

منين.. تعرف منين؟

يو.. هو.. إنت ما عندكش فكرة.

●●●

إذاً هو أنت أيها اليهودى الذى أرشد عنى، فدخلت السجن! وهو أنت الذى قضى على أحلامى! أنت الذى تعقبتها حتى فزت! ولولاك لكنت اليوم أحيا أجمل حياة يتصورها إنسان!

وأخذ المعلم شعبان يدبر الأمر بينه وبين نفسه، لكنه لم يستطع أن ينتهى إلى شئ! وفى النهاية استعاد صورة عونى بين عينيه، فصاح لنفسه: هذه هو الانسان: هذا هو الانسان الوحيد القادر على اليهودى المكار.

وأفاق المعلم شعبان، متعجلا، ثم أخذ يبحث عن عونى حتى عثر عليه.

●●●

إنت إزاى أخدوك؟

مش عارف.

متعرفش لغاية دلوقتى مين اللى وقعك؟

أبدا .. وانت تعرف؟

طبعا. ومن الأول عارف.

طيب مين؟

اليهودى شريكك.

مش معقول؟ إنت متأكد؟

طب اسمع. إزاى هيام مشيت من البدروم قبل ما يجى البوليس؟

مش عارف.

كان عندنا خبر إن الندل ده بلغ عنها وعنك.

طب ما قلتليش ليه؟

إمتى كنت أقول لك؟

طب يا خواجة.. أنا وأنت والزمن طويل.

بس بهداوة أحسن.

طبعا بهداوة. أمال أنا حروح أقول له على طول. وهيام فين؟

هيام سافرت.

هيه كانت فين قبل ما تسافر؟

ما إنت اللى موديها فى مخبأ كان عال وماحدش يقدر.

أمال سابته ليه؟

جالنا خبر أنك حتشرف ومعاك أكبر عدو للفدائيين.

هربتوها؟

لا والله نقعد لما يمسكنا زى الفراخ.

وراحت فين؟

دا بقة ما أقدرش أتكلم عنه.

وإذا كنت أترجاك.

مش ممكن.

دا أنا حموت عليها.

برضه مش ممكن؟

أمال إمتى يبقى ممكن؟

لما تتغير الظروف.

وإزاى تتغير؟

أمال إحنا بنعمل ايه. ما إحنا بنحاول نغير الظروف. تفتكر إحنا سفاحين؟! نصابين؟! حرامية؟! ما هيه دى وظيفتنا.

يا سلام.

طب إيدى فى إيدكو.

إنت يا معلم؟

آ... أنا.

لأ.. لسه بدرى عليك.

إزاى بس؟ دا أنا أعجبك.

معلش.

ما هو لازم أعمل حاجة.

●●●

وأخذ المعلم شعبان يفكر فى طريقه ما يكشف بها اليهودى.

لكن ماذا يكشفه منه؟

فى عمله، الرجل يعمل ليل نهار.

فى ذكائه، الرجل متوقد الذكاء إلى حد لا يجارى.

.. أما فى غير ذلك من أمور، فكيف يتأتى له أن يكشفه؟ كيف يكشف حيله، واتصاله برجال البوليس، وإرشاده عن الفدائية؟

وعاد المعلم شعبان يسأل نفسه:

طب وإنت يهمك فى ده إيه؟

لكنه عاد يفكر فى هيام، وفى تغيير الظروف، وفى أنه لن يلقاها أو يعاود حياته معها، الا إذا تغيرت الظروف.

وتصور أن هذا الخواجة عقبة تحول دون تغير الظروف.

وأراد أن يتربص بالخواجة، ليكشف حيله.. أو ليقتله قتلا؟ وخطر له خاطر:

لماذا لا يستعين بعونى عليه؟

واستقر رأى المعلم شعبان، على أن يوظف عونى معهم فى بنك الرهونات.

●●●

وعندما قرر المعلم شعبان أن يطلب من أخيه المعلم يس أن يوافق على توظيف عونى فى بنك الرهونات، كان يتوقع أن يقابل القرار بالرفض، من اليهودى المشوه أولا، ثم من أخويه.

لكنه فوجئ باليهودى يرحب بالاقتراح!!

وماله؟ المهم يكون شاطر.

دا شاطر خالص وشغال.

خلاص، هوه إحنا حنخلد؟ ما هو لازم حد يتعلم عشان يمسك الشغل لما نكبر.

وأولادنا لسه صغيرين.

لأ لأ. دول لسه كتاكيت. يا ريت الواد ده يكون كويس.

دا كويس قوى.

تعرفه منين؟

من أشغال كتير عملتها معاه.

فى سهراتك الحمرة؟

يا شيخ!

من صديقاتك الجميلات.

يا راجل عيب!

خلاص. ما دام ابن ليل، يبقى كويس.

حتى لو ابن ليل يا معلم إيه المانع، إذا كان ولد شاطر ومفتح.

●●●

كان هذا هو رأى اليهودى المشوه. المهم أن يكون ولدا مفتح العينين. أما أن يكون ابن ليل، أو صاحب مزاج، أو زير نساء، أو ما يكون، فإن ذلك لا يهم، بل قد يكون فيه من التجربة، ما يجعله أكثر فهما للناس، ولطبائع الاشياء، ولاستغلال المحنة فى حياة الأفراد والأسر!

آ.. هو احنا بنعمل إيه. دى تجارتنا هيه هموم الناس.

على رأيك.

ولو كنا بين ناس من غير هموم ومشاكل، ما كناش نشتغل.

حقه. كنا نفلس.

أو نشوف لنا حاجة تانية.

زى إيه؟

نتاجر فى سعادتهم.

أما أنت غريب يا خواجة.

شوف.. كل حاجة، ولها باب الواحد يدخل منه.

يا سلام!

بس يعرف سكة الباب دا منين!

إنت راجل دماغك كبيرة.. كبيرة قوى.

الضحك بضاعة، والدمع بضاعة، والشاطر اللى يعرف يتاجر فى دى ودى إمتى! إنما يفتح محل ضحك، فى ميتم لأ.. يخسر!! يفتح محل نواح، فى سهرة سكارى.. برضه لأ.. يخسر!! التجارة تنجح، لما تعرف تختار الصنف المضبوط، فى الوقت المضبوط، وبين الزباين المضبوطين.

وإحنا كنا نعرف الحاجات دى منين.. الله يخليك يا خواجة.

شوف بقه. مصر دلوقتى، بلد هم وأحزان. الضحكة فيها عملة غريبة، إنما العملة الرايجة هيه الدموع. الهم. المصايب. المشاكل. عشان كده ينفع فيها بنك الرهونات. زى ما المحامى بيكسب، عشان صنعته المشاكل والمحاكم. وزى ما الجرايد بتروج، كل ما تكتب عن الفقر والمرض والحاجة. كل

حاجة بتروج بضاعة العذاب رايجة النهاردة.. إحنا كمان فى بنك الرهونات رايجين ومبسوطين عشان الناس تعبانة..

وانشاء الله يبقوا كده على طول.

ياه.. يا راجل حد يتمنى النحس ده على طول.

عشان نعيش إحنا.

يعنى لازم نعيش من السوق السودة؟

الله.. مش إنت اللى بتقول كده؟

آه.. بس أنا عارف كمان إزاى أشتغل فى السوق البيضة..

الناس تفرفش، فيه بضاعة تانية. فيه كازينوهات، ونوادى. فيه بيوت فرفشة، تجيب دهب. فيه ناس حيبقى عندهم وقت وفلوس، وفاضل لهم حاجات بسيطة خالص عشان تكمل سعادتهم. سهرة. بدلة حلوة. حتى ذهب. موبيليا أنيقة رقاصة متساهلة. زوجة هريانة من جوزها. تلميذة محرومة!!

يعنى منشار.

طالع واكل، نازل واكل.

●●●

وكان المعلم شعبان يسمع هذا الحوار بين أخيه الكبير المعلم يس، واليهودى المشوه، وهو لا يدرى: هل يعجب بهذا الشريك أم يكرهه؟! هل يكبر فيه هذا العقل الراجح والمقدرة على التلون حسب الظروف، أم يحتقره؟!

والمهم عنده أنه كسب من اليهودى الخطير المكار موافقة على تعيين عونى فى بنك الزهونات!!

●●●

وكانت المناقشة بين عونى وبقية أفراد التنظيم عنيفة للغاية.

وكانت ثريا، صديقته الصغيرة الحلوة، قد انضمت إلى التنظيم الفدائى وصارت عضوا فيه. وكان عونى يحاول أن يتفادى مثل هذه المواقف أمام صديقته الصغيرة، خوفا عليها من هذا الجو الصاخب، ورحمة بأعصابها المرهفة. لكن ذلك لم يكن ممكنا دائما.

هذه مقدمة لاستدراجك.

استدراجى إلى أى شئ؟

إلى الخيانة.

هل يمكن أن أصبح خائنا يا ناس؟

دون أن تدرى!

وهل أنا على هذا القدر من الغفلة؟

قد تتصور الخيانة على أنها خدمة وطنية.. فدائية!

أنا؟ ليه؟

أكبر منك وقع من قبلك فى الفخ.

وآخرون تنبهوا فلم يقعوا.

ولماذا تجرى للفخ بقدميك.

لأعرف ماذا يعمل هذا اليهودى؟

وألم تعرف بعد؟

لا.. لم أعرف بالقدر الكافى.

ومحاولاته السابقة التى أراد من خلالها أن يستعملنا لأغراضه الصهيونية؟ ألم يكن يريد أن يضللنا عن واقعنا الوطنى، لنحقق له ما يسعى إليه من الوقيعة والدس وكسر صفوف الأحرار؟

هذا صحيح. لكننا لقناه درسا.

وهو يريد أن يرد الصاع صاعين.

وهل ينجح؟

هو يتصور أنه سينجح.

وأنا أتصور أنه لن ينجح.

وتدخل فى تجربة غير مأمونة.. لماذا!

لأكشفه.

ووسائله؟!

أية وسائل؟

البوليس والمباحث ومن يدرى!

وماذا أيضا؟

والدهاء، والأموال وجواسيس صهيون!

إذاً نيأس.. ونسكت؟

أبدا.. لكن لا نذهب لهم بأقدامنا.

ونترك لهم الساحة يعبثون.

لا.. وإنما..

وإنما ماذا؟ إذا انسحبنا أمامهم على هذه الصورة البشعة، فمعنى هذا أننا نترك لهم كل شئ. وماذا يريدون أكثر من هذا؟

●●●

وأخذ عونى يفكر، وهو فى الطريق إلى البنك ليقابل اليهودى، فى الموقف كله. هذا اليهودى المكار ماذا يريد؟ أتراه لا يعرفه، بينما التقيا وجها لوجه عند هيام، وكان معهما عدد آخر من أفراد التنظيم، وكان اليهودى يحاول استدراجهم إلى أعمال قتل لشخصيات عربية مناضلة، وتخريب لمنشآت عربية، إلى جوار ما يفعلونه من أعمال ضد قوات الاحتلال؟

أتراه يريد أن يتأكد، من أفراد التنظيم؟

ماذا يدور بذهن هذا الصهيونى المشوه المتخفى فى بنك رهونات؟

كيف وافق؟ كيف رحب؟

.. ومع هذا فلم يكن أمام عونى خيار. لقد قرر قبول الوظيفة، ولم يعد هناك سبيل إلى التراجع أبدا.

وفى البنك كان اليهودى جالسا وسط الشقيقين، المعلم يس والمعلم شعبان.

وتصور عونى أن ظهوره أمامه سيكون مفاجأة، وأنه سيهب واقفا وهو يصيح فى وجهه: أهو أنت؟ لا.. لا يمكن.. لا يمكن.

وقد يتراجع عن موافقته، وقد يكشفه للشريكين.

وسيصبح المعلم شعبان فى حرج شديد أمام أخيه الكبير يس، وأمام هذا المكار المشوه.

كل تلك أفكار راودت عونى، وهو يدخل.

وكان متأهبا للرد، وللصراع، وللفرار، قبل أن يقبض عليه البوليس.

لكنه فوجئ بأن كل ما كان يدور بذهنه لم يكن إلا وهما!!

اليهودى كان متجاهلا تماما أنه يعرفه، أو أنه سبق أن رآه!!

اليهودى كان كالسطح الأملس لا شئ يبدو عليه أبدا!!

وعندما تولى المعلم شعبان مهمة التقديم، كان عونى مضطربا غاية الاضطراب، بينما كان اليهودى هادئا غاية الهدوء!

وبدأ الأخوان ينصرفان، ليتركا لليهودى الخبير المدرب، مهمة الاتفاق مع الموظف الجديد، على العمل الذى يناسبه.

وظن عونى أن الرجل ينتظر فرصة أول خلوة بينهما ليقول له فى تشف:

وقعت!! ها أنت ذا بين يدى! شوهت وجهى، لكنى لا أزال حيا يا عونى!!

●●●

لكن تمت الخلوة بينهما، ولم يفتح اليهودى فمه بشئ؛ ولا ظهرت عليه أية بادرة تشير إلى أنه قابله، أو تعرف به، أو تحدث معه.

يا ساتر!! كيف هذا؟

وبدأ عونى يشك فى ذاكرة الرجل! ربما نسى! ربما إهتز نتيجة التفجير الذى واجهه وشوه وجهه، فلم يعد يذكر من قابل، ولا ماذا قال؟!

لكنه لم ينس أنه شريك لهؤلاء الاخوة الثلاثة، وأنه يعمل فى بنك رهونات، فسعى إلى عمله يستأنفه، ولم يقل لأحد فيه شيئا عن السبب الحقيقى الذى شوه وجهه!

انفجر وابور غاز فى وجهى، وأنا أعمل الشاى! كانت امرأتى فى السوق لبعض أمورها، وكنت فى حاجة إلى بعض الشاى، ولم أصبر حتى تعود، فانفجر الوابور فى وجهى.

والسذج البسطاء الجهلة من الشركاء صدقوه. بل كان من الواجب أن يصدقوه، فإنهم لم يتعودوا على الشك فيه أبدا.

إذاً لم يفقد الذاكرة. اليهودى المشوه لم يفقد الذاكرة. الذى يجد مبررا كهذا، يقنع به قوما كهؤلاء، لا يكون قد فقد الذاكرة.

●●●

فقد الذاكرة، وقد أرشد عن هيام، وعن المعلم شعبان؟

فقد الذاكرة، وهو الذى أدخل المعلم شعبان السجن، ليعذب؟!

فقد الذاكرة، وهو الذى ظل يبحث طيلة غياب المعلم شعبان عن هيام، حتى اهتدى إلى مكانها الجديد، فلم يسكت عنها، وإنما أرشد إليها؟!

فقد الذاكرة، وهو الذى أراد أن يوقع بكل التنظيم عن طريق التعرف على أفراده من هيام، لولا أن أحد أفراد التنظيم يعمل فى البوليس السياسى فسبقه اليها، لتضيع منه الفرصة، هذا الغادر المكار؟!

كل هذا، ويكون قد فقد الذاكرة؟

لا يا عونى، ليس هذا فقدانا للذاكرة!!

إذاً.. ماذا يكون؟

●●●

خطة جديدة، من يهودى مكار.

وحار عونى فى هذه الخطة ماذا تكون؟

هل هو كمين جديد، أو فخ منصوب، ليقع فيه؟

وأخذ يلاحظ الرجل، ويحاول أن يكشف عما فى نفسه.. نظراته هذه، ماذا تقول؟ حركاته أيضا، ماذا تعنى؟صمته المطبق، ما مرماه؟ براءته!؛ سذاجته!. طيبته!. كل ذلك، هل هو لوجه الله، أم وراءه ما وراءه؟!

●●●

تعرف حسابات؟

لأ.. لا أزعم أنى أجيد الحسابات.

طيب. تعرف مستخدمين؟

ولا هذا أيضا يا سيدى.

تعرف إدارة أعمال؟

أنى أخجل أن أقول أيضا لا.

مخازن؟

هذا جائز.

إذاً تتولى المخازن.

على أن أتلقى تدريبا عنها.

يعنى!! تدريب عن التخزين فى بنك الرهونات. لكن..

لكنى تعتبرنى مختصا بها، ودارسا لها.. لأ.

حاضر.. أعلمك.

من الأول.

من الاول. ولى طلب واحد.

أفندم. تحت أمرك.

السرية المطلقة.

بس؟ من عينى.

المخازن هى مستودع الأسرار فى أى عمل.

وسيكون السر فى بئر.

وبنك الرهونات كعيادات الأطباء.

مليئة بالأسرار..

وأى سر يذاع يمكن أن يسفر عن فضيحة.

يا ساتر يا رب.

طبعا. عندنا ناس يرهنون مصاغ زوجاتهم، دون أن تعرف الزوجات مثلا. ولو أذيع سر كهذا، فقد يؤدى إلى كارثة.

أقلها الطلاق؟

يا ريت.. وإنما قد تحدث وقيعة بين أسرتين.

لأ.. لأ.. وإحنا مالنا؟

وعندنا ناس يستبدلون ما فى حوزتهم من سبائك، بسبائك أخرى مزيفة، ليرهنوا الأصلية.

يا نهار أسود؟

آه.. ولو انكشفوا تبقى مصيبة!

لأ لأ.. وإحنا مالنا؟

وعندنا ما هو أخطر، عندنا ناس يرهنون مستندات!

إيه؟ مستندات؟

آ.. ألا تسمع عن رهن مستندات؟

أبدا.. عمرى.

لأ لأ.. ستتعلم هذا كله مع الوقت.

مثل عقود تمليك؟

لأ.. هذا سهل.

مثل كمبيالات؟

لا لأ .. هذا معروف.

مثل بوالص تأمين؟

يا شيخ!! وهل هذا جديد؟

أمال إيه؟

خطابات.. مثلا.

خطابات؟!

آه.. خطابات غرام؟

يرهنون خطابات غرام؟

واسطوانات!

واسطوانات.. موسيقى؟

لأ .. اسطوانات كلام.

ما هذا؟

وأشرطة تسجيل!

وأشرطة تسجيل.. ماذا!

وأشرطة تسجيل مكالمات، وغراميات، وآهات!

وهذه مواد للرهونات؟!

أمتع أنواع الرهونات!!

يا خبر!

هذا هو الشئ الذى تمسك به الواحد من قفاه.

فضائح! هذه فضائح!

لأ والله.. وفهمتها لوحدك؟

إيه ده؟

بنك رهونات.

رهونات إيه؟

آلام؟!

ترهنون الآلام؟

طبعا.. أمال نرهن إيه؟

مصاغ مثلا.

ألا ترهنه صاحبته للتخلص من ألم!

آ.. هذا فى ذاته شئ له قيمة.

وخطاب غرام من زوجة سياسى كبير.. لواحد صعلوك شئ بلا قيمة؟!

هذه سوق سوداء.

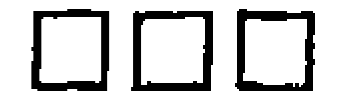
قلت لك بنك رهونات،يرهن أى شئ.

حتى الدموع؟

والابتسامات، والآهات، وأشواق العشاق، ونزق الشباب ونزوات الشيوخ.

وسأكون أنا ...

خازن هذه الأسرار!





قط وفأر، وشئ معلق أمام عيونهما، له بريق، وله صليل، وله كذلك رائحة!! لكن لا القط يعرف ماذا يكون، ولا الفأر!! شئ فيه إغراء، ويسيل اللعاب، لكن ما هو بالتحديد؟ لا أحد منهما يدرى!!

قد يكون قطعة جبن جفت من طول ما تعرضت للهواء!

قد يكون ربع "طماطماية" ذبلت من طول ما تعرضت للهواء!

وقد يكون قطعة لحم مشوية، تخترق رائحتها الهواء إلى خياشيم القط والفأر!

المهم أن القط والفأر، يقفان فى حالة تحفز وانتظار، وسيكون الغالب هو الذى يثب إلى هذا الشئ المعلق، أسرع مما يثب إليه الآخر. ولكل منهما أنياب مدربة على التقاط هذه الأشياء، ولكل منهما قدرة على الفرار بها إلى حيث

يزدردها فى أمان!!

●●●

قط وفأر.. يتربصان.

ولكل عينان وأذنان.

وفى كل قدرة فنان.

وفى حرص يتسمعان.

وفي حذر يتحركان.

يسمعان ما لا يصدقان.

... ويبتسمان!!

كأنهما أخوان.

وفى القلب لهب ونيران!

●●●

عونى، وابن صهيون.

فدائى يطلب الحرية،

وإرهابى يحاول أن يفرض الرعب!

●●●

لكنهما كالقط والفأر، والشئ المعلق فى الهواء.

يتربصان، ويتحفزان، ويتسمعان.. لكن يبتسمان!!

وكل يحسب لنفسه أدق حساب. الحركة بحساب، والوقفة بحساب.. حتى البسمة بحساب. وهما يعلمان أن خطأ واحدا، فى ثانية واحدة، سيكون كخطأ الطيار فى الصعود أو الهبوط. ثانية واحدة تقديم أو تأخير، يدفع ثمنها حياته، وحياة عدد كبير من الركاب!!

ويعلمان أنهما يخادعان. كل منهما يخدع الآخر ويحاول أن يجره إلى حتفه.. أو يغير جلده!! ولا وسط.

إذا وقع الفدائى فى شرك الارهابى ضاع!

.. فإن حاول إنقاذ نفسه بتغيير جلده، فذلك أيضا ضياع، أقسى من الضياع!!

إن الفدائى، إذا قلب جلده، صار عميلا!!

والارهابى إذا جرته الحيلة الى المصيدة انتهى.

يقلب جلده!!

ليصبح ماذا؟

... سفاحا!!!

وباسم القانون.. ربما!!

●●●

ولم يكن اليهودى يريد أن يقلب جلده على كل حال، ولا عونى كان يريد هذا أيضا. بل إنهما اكلاهما كانا يقعان تحت هذا الضغط الشديد، ويخضعان لعمليات حساب رهيبة مع النفس. وفى تعامل كل منهما للآخر، حتى لا يفقد أحدهما لونه، أو يتعرض جلده، ولو لبقع منثورة هنا أو هناك.

ولم يكونا وحدهما على كل حال.

اليهودى كان ينتمى لتنظيم إرهابى، نظمته الصهيونية العالمية. وكان هذا التنظيم هو قاضيه! له أن يحكم بعقابه إذا أخطأ، وبإعدامه إذا خان! لهذا فقد كان يواجه عونى، ويتعامل معه، وهو يرتعد! وكان يعرف أن انتصار عونى عليه معناه ضياعه!

عونى كذلك كان مسئولا أمام الفدائيين. كانت الحرية شاغلهم وهدفهم، وهواءهم، وطعامهم، وشرابهم.. وعواطفهم. وكان للفدائيين كذلك تنظيم. ولم يكن هذا التنظيم غافلا عما يدور، وكانت فيه كذلك قسوة. الأحرار

أيضا قادرون على أن يكونوا قساه. والذين يحرسون الحرية، يجدون أنفسهم مضطرين على أن يطلقوا النار، اذا تعرضت الحرية لخطر! وكان عونى بدوره يرتعد، فى تعامله مع اليهودى المشوه. كان يخاف منه، وكان يخاف على نفسه، وكان يخاف على زملائه.

لكنهما مع هذا ظلا يتعاملان.. فى بنك الرهونات.

اليهودى يفكر ويدبر، ويرسم ويخطط، وعونى يخزن المجوهرات والسبائك، وعقود الأراضى والكمبيالات، وتنهدات العشاق، وآلام المعذبين فى الأرض! يخزن ذلك كله ويختزنه.. وبين الحين والحين، كان يجتره، ولعابه يسيل من الانفعال ويجف من السخط والفزع!

●●●

أنت حياتى، ولا حياة لى سواك. أنت عمرى كله.

أنت تبالغ يا حبيبى. أنا لا أستحق منك هذا.

بل تستحقين ما هو أمتع، وأجمل، وألذ.

وزوجتك؟

زوجتى!! ألا بد أن تفسدى هذا الجو الحالم؟

أفسده! بماذا؟

بالكابوس!!

●●●

ويمضى الشريط يسجل غزلا هائلا، وحبا وهياما، وغراما. كلام كالعسل، أو كالشهد، أو كما الورد، أو كعصير الفاكهة.. أو ماذا؟ ماذا تحكى عنه الحواديت أو النوادر؟ ماذا تقوله قصص ألف ليلة وليلة؟ ماذا كانت ترويه أمهاتنا ونحن صغار، عن أشياء جميلة لذيذة، كنا نتصورها ونحن أطفال ألذ من "الجرانيته" وأمتع من ليالى العرس!! ماذا. أيضا يمكن أن يشبه به هذا الحديث؟

●●●

لكن عونى استدار حول نفسه، وهو يتساءل:

الله!! لكن أى صنف من الأصناف يدخل تحته هذا النوع من البضائع؟ أية سلعة هذه وأى وصف يمكن أن تحمل؟!

ثم.. كيف قومها هذا اليهودى المشوه، وعلى أى أساس؟ ما قيمة سلعة كهذه، ليمكن تقدير قيمة ما يدفع لها من رهن؟!

وبعد هذا كله.. ملك من هذه السلعة؟

إنها كلام فى الهواء، سجل على شريط.. ملك من؟ الكلام ملك من؟

هل هو ملك صاحبه؟ أو ملك سامعه؟ أو ملك من؟

فإن يكن لهذا الكلام صاحب، فهو إذاً الذى يملك أن يرهنه.

●●●

ونظر عونى فى المعلومات التى أمامه، فوجد الراهن شخصا آخر لا شأن له بالكلام. شخص بسيط جدا، لا يملك من دنياه شيئا، إلا هذا الشريط.. ربما!

وعندما طلب سلفة على خلخال تملكه امرأته، رفض اليهودى المشوه!

وعندما طلب أن يرهنوا نحاس بيته، هز الخواجه رأسه أسفا!

وعندما عرض عفش البيت، وجدوه لا يساوى شيئا!

لكن كان فى العفش الذى عاينه الخواجه لفة فيها هذا الشريط.

ولما سمعه الخواجة، انفعل به، وزاد انفعاله لما علم من صاحب الصوت. وصاح فى الرجل: هذا يساوى كثيرا.

وفى سذاجة ساعى محدود الذكاء، قال الرجل: يا عم بلاش تريقة.

قال الخواجة: تريقة!! هذا ثروة! أنت جاهل لا تعرف شيئا.

قال الرجل: طيب ترهنه؟

قال الخواجة: بكم؟ عشرة ينفع؟

ووافق الرجل على الفور، ودفع الخواجة مبلغ سبعة جنيهات ليحصل على عشرة جنيهات بعد شهرين.

ومضى شهران، فاستدعى الخواجة المدين.

أين الدين؟

يا عم وأدفع منين؟

من المدير يا مغفل.

يا خبر!! أنت عاوز ترفدنى؟!

أرفدك؟ دا أنا عاوزك تترقى.

إزاى؟

شوف بقة اسمعنى كويس.

●●●

وأخذ اليهودى المشوه يغرى الرجل بأن يأخذ الشريط إلى المدير صاحب الغزل الرقيق الرائع، ويديره له، ويطلب منه الدين.

ويدفع؟

يدفع بالثلث..

ويأخذ الشريط؟

إنت حر.. اذا كنت عاوز تفقد هذه الثروة، إديهوله.

طب أمال أعمل إيه؟

انا لو منك، آخذ المبلغ، وأخلى الشريط.

إزاى؟

أنا أعمل لك نسخة ثانية.

وينفع؟

إلا ينفع! طبعا.

وبعدين؟

كل ما تحتاج فلوس، تدور على الشريط.

والرهن؟

يستمر.. تحت أمرك.

●●●

وصارت حكاية.

الساعى يدير الشريط للمدير، فيترنح المدير من الرعب، ويدفع! ويسدد الساعى الدين لليهودى، ويجدد الرهن! واليهودى يقلل ما يدفعه إلى ستة جنيهات ثم الى خمسة، فيضطر الساعى إلى رفع المبلغ إلى عشرين ليأخذه عشرة، ثم تصبح العشرة ثمانية، ثم سبعة، فيدفع المبلغ، ويرفع اليهودى النسبة!

والشريط دائر حول نفسه، يصنع كلما دار فضيحة، ويغطى المدير الفضيحة بالدفع.. ويكسب اليهودى مع كل دورة شريط مبلغا، ويكسب الساعى مبلغا آخر.

وهيبة المدير؟!

ضاعت وانتهى الأمر.

وولاء الساعى للمدير الذى يقف على بابه؟

انغمست فى وحل الحاجة.

وهذه المصلحة التى يشرف عليها صاحب السعادة؟

صارت فى جيب اليهودى المشوه.

وأسرار المصلحة، وأعمالها، وملفاتها؟

صارت عند اليهودى، ينقل منها ما يشاء!!

●●●

وهز عونى رأسه من الأسى، وتحركت شفتاه دون أن يدرى، كأنما كانتا تبحثان عن أذنين، تسمعان منهما ما طفح من صدر الفدائى من ضيق.

●●●

يا إبليس يا ابن الأبالسة..

.. وتسمى هذا بنك رهونات!!

وتتحدث عما يقدمه البنك من خدمات!!

.. خدمات يا خواجة الفضائح والرهونات؟! خدمات أم سرقات وخيانات، وأسرار تكشف عنها الملفات، وانهيار فى الأخلاقيات!! وتحريض للساعى على المدير العام، وإذلال المدير العام أمام الساعى، وعين مكسورة من الخوف، وعين مكسورة من الحاجة، ووراء هذه العين وتلك العين، نفس منهارة، وقلب ذليل!!

يا صهيون، يا ابن صهيون، يا عدو البشر والأخلاق..

بنك رهونات!! أهذا بنك رهونات أم وكالة مخابرات، تفضح الأسرار، وتكشف الأستار؟! وتدفع الصغير، ليتبجح فى وجه الكبير، فلا الكبير يحتفظ بهيبته، ولا الصغير يكبر ليتسلم منه ما يحمل!

وأنت يا إرهابى التاريخ سعيد.

تسرق الأخلاق وتحتال.

وتفسد الذمة والضمير.

وتحت يدك مع هذا الأسرار تقلبها كما تشاء، لتحصل منها عما تشاء، وتبيع وتشترى فى الحاضر، لتلوث المستقبل بالسم الزعاف!

يا ابن صهيون، يا ربيب الفساد والقسوة والجبروت.

لكن عونى عاد يضرب على صدره فى رعونة، وشفتاه مع هذا تتحركان.

●●●

ماذا تقول يا أيها الفدائى العبيط؟

ومن تلوم؟ الارهابى؟ تلومه على أمانته لوظيفته؟

.. تلوم اللص، لأنه يسرق؟

هذه وظيفته.

أو تلوم المسروق على تفريطه فيما يملك؟

لو أغلق كل منكم بابه يا أيها المسروقون، لعجز اللص عن السرقة؟!

لو حرص كل منكم على أسراره، لعجز اللص أيها الضحايا، عن العبث بما تملكون!

لكنكم مغفلون!!

واللص عندما يجد أمامه مغفلا، فإنه يتصور نفسه قد تحول إلى مغفل، إذا لم يسرقه! واللص إذا صار مغفلا، فإن على المغفل أن يصبح لصا!!

●●●

وعاد عونى الى مخزنه، يقلب فيه، وأخذ يسمع عينة أخرى من التسجيلات ومع كل جملة، كان أحد حاجبيه يرتفع فى عجب!!

وكان التسجيل مع ذلك مثيرا، ومغريا، وجذابا..

وقال فى نفسه وهو يسمعه!

الإنسان بطبعه منافق، والله منافق!! وما كل الأحاديث عن الفضائل، واستنكار العيوب، واستبشاع الرذيلة، إلا نفاق! الذين يشهرون بالعرى مثلا، يسترقون النظر إلى صور العرايا فى المجلات! والذين يهاجمون شقاوة الصبيان والبنات، يلذ لهم أن يقرأوا أخبار هذه الشقاوة، وهم يتمنون أن يكونوا صانعيها!! أو فى القليل طرفا فيها!! وأنت أيها الفدائى بكل ما فيك من استنكار لوسائل الارهاب المدمرة، يغريك أن تتابع هذه الوسائل بلذة وشغف!!

وقبل أن يمضى عونى فى هذا التعنيف لنفسه، عاد يلوى شفته السفلى، وهو يقول: أحيانا يحارب الانسان ما يحبه!! وأحيانا تكون وسيلة محاربته، فى تجديده، أو تهذيبه، أو تنظيمه!

ومضى يسمغ.. ولم يعد يشعر بأن انفعاله بما فى الشريط إدانه له.

●●●

صباح الخير يا حلوة..

صباح الخير.. صباح القشطة.

يظهر إنك رايقة النهاردة.

قوى.. قوى.

طيب عال.

رينا يروق بالك على طول.

البركة فيك إنت.

العفو يا روحى.

مش عارفة من غيرك كنت أعمل إيه؟

يا شيخة بلاش مبالغة.

والله أبدا. أنا مش كنت مدفونة بالحيا؟

الله الله وبعدين؟ حنعيده سيرة؟!

نعيده ونزيده. مش حقيقة؟

خلاص بقة.

خلاص إيه. ما هو قدامى وورايا. دا غلب ومكتوب ومش عارفة أخلص منه ازاى؟

وتخلصى ليه؟ ما هو كده كويس.

وأنا أموت عشان بابا ميترفدش من الوزارة؟

وعشان ترثى لك ميراث سقع.

وحينفع بإيه لما أبقى كركوبة أجرجر رجليه.

وهوه حيعيش لغاية ما تبقى كركوبة؟

ويمكن أسبقه أنا، قبل ما يسبقنى.

يا شيخة حرام عليك.

والله، دول صنف عضمة جامدة ورجليه متبتة فى الأرض.

برضه كل حاجة ولها نهاية.

مين عارف نهاية مين تيجى الأول؟

آدى إنت هايصة وخلاص. مش مقضيك اللى إنت فيه؟

سرقة. دا سرقة.

سرقة ما سرقاش. أهو بقه تعويض.

دا أنا بموت فى كل مرة.

ليه بقه؟

من المخبرين اللى ورايا وقدامى. من البك اللى مابيسبنيش.

ياه.. دا لازم بيحبك قوى.

قوى.. بيموت فيه.

بتقولى فيها. والله يمكن.

يمكن إيه يا شيخ انت كمان. بيحب نفسه.

وبيحبك كمان.

لأ.. بيحبنى عشان دولته بس. عشان يحس أنه لسه شباب.

عشان يتصور إن عنده كل حاجة. الوزارة، والعزبة، والفلوس، وبنت حلوة وصغيرة.

خلاص خليه يحس باللى هو عاوزه، وإعملى اللى إنت عاوزاه.

ما أنا بعمل اللى أنا عاوزاه، بس بطلوع الروح.

ما هو ده لذيذ كمان.

السرقة.

آ.. السرقة. مالها السرقة؟

وروحك لما تطلع فى الثانية عشرين مرة؟

ليه؟

ما قلت لك. من المخابرات، والبوليس السياسى، والمخبرين الخصوصيين اللى ورايا فى كل حتة.

وعملوا إيه؟

بيجننونى.

عشان تحلو.

تحلو إيه وبتاع إيه. غلبت من النزول على سلم الخدامين.

وتغيير الماكياج؟

والنضارات السودة.

وساعات ستات، وساعات إيه تانى؟

على رأيك ياما بلبس بنطلونات، وأحط شنبات.

والثعلب فات فات.

قول إنت اللى يعجبك ما إنت رايق.

أنا رايق برضه. دا أنا اللى فى وش المدفع.

معلش.. عشان خاطرى.

والله إنت يوم ما تطبى حتعيطيلك شوية ويرق لك قلبه.

يرق لى قلبه؟!

طبعا وحيخاف من الفضيحة، ويدارى على نفسه.

أبدا .. مستحيل.

بيتهيأ لك. إنما أنا بقه اللى حيعمل فيه عمايل.

متخافش.

ما خافش؟! لا سمعتى تهمه، ولا حد حيصدقنى، ولا حد يقدر يحوشه عنى.

أنا أقدر.

أنت حتبقى مصلحتك تتكرى. ولازم تتكرى.

مستحيل. وأسيبك؟

طبعا تسيبينى.

لأ لأ.. ابدا.

كان غيرك أشطر.

الله.. الله. إنت خايف والا إيه؟

ماتهتميش. أنا برضه فى خدمتك.

●●●

وعاد عونى يهز رأسه من الأسى!

وعادت شفتاه تتحركان دون أن يدرى!

وعادت أذناه تتصتان، لما تنطق به شفتاه!

●●●

وأنت أيها الشريط التعس، من صاحب المصلحة فيك؟

.. بل قبل هذا، من سجلك؟ من نقلك من الهواء الطلق الفسيح إلى شريط، تحمل الفضيحة والعار؟

وتلك البضاعة التى تحملها، من صاحبها؟

فضيحة!! هذه فضيحة!! من يملكها؟

من يملكها ليرهنها؟ من يملك الفضيحة؟

الفاضح أو المفضوح؟!

وكادت رأسه تنفجر فوق كتفيه!

●●●

وأخذ عونى يقلب فى ملف الرهن.

رهن بدأ منذ عشر سنوات، على خمسمائة جنيه، تدفع كل ثلاثة أشهر ثلاثمائة. يعنى يكسب اليهودى من وراء هذا الرهن مائتى جنيه كل ثلاثة أشهر، ويكسب ثمانمائة جنيه كل سنة، فى عشر سنوات، يصبح مجموع ما كسبه ثمانية آلاف من الجنيهات بالتمام والكمال، ولا يزال الشريط ينطق بالفضيحة ولا يزال دولة الباشا حيا، رغم السنين، ولا يزال الفاضح والمفضوح محتاجا إلى ستر، ولا يزال الستر

الوحيد، هو الجنيه، ولا يزال اليهودى المشوه حيا يرزق، ولا تزال شهيتـه إلى المال بلا حد، ولا يزال التنظيم الارهابى محتاجا إلى معلومات، ولا تزال المعلومات فى الملفات، ولا تزال الملفات فى أدراج موظفين كبار أو صغار ولا يزال هؤلاء يأتمرون بأمر أصحاب المقام الرفيع والدولة والمعالى، ولا يزال جبل صهيون متعطشا لمزيد من الفضائح، كما هو متعطش لمزيد من دماء الضحايا. ولا تزال يا عونى فى بنك الرهونات، تقرأ وتسمع وترى، وعليك مع هذا أن تسكت. تبتلع كلماتك فى بطنك، وتسكت.. إلى متى يا عونى تسكت؟ وإلى متى يظل الإرهاب يعبث؟ وإلى متى؟ وإلى متى؟

وأخذ عونى من فرط انفعاله يصرخ ويصيح!!

●●●

.. أحيانا ترتد الصيحات.. أصداء!

وفى أحيان تتحول الأصداء إلى أنواء.

والأنواء هى فى الأصل.. دموع.

غسلت عين الزمن المثقل بالهم

... ثم الدمع اصطبغ بلون الدم

وتساقط يذوى

وتهافت يعوى

يتقلص.. أو يتمدد...

أو يتساقط أو يتنهد،

وإذا دمع العين.. شموع

والشمعة قد تصبح جذوة

والجذوة توقد جمرة

والدمع على الجمرة يتبخر

لا يتأخر

تقابله الريح فيتبدد

وتقابله الآثام فيتجدد

ويئن من الآلام

ويفر ويعدو كالأيام

كالزمن الخائف من عمله

أو اليائس من ماله

كضمير أثقله قدره

.. يدرك أين وأنى

بل كيف وماذا يثمر غدره

ويهب الدمع يعصف

لا يتردد أو يتأفف، أو يتخفف.

وإذا الدمع هو الأنواء

وإذا الأنواء هى الدمع

والدمع.. دعاء.

والأنواء، نداء

وأصداء النفس، كالنفس قضاء

●●●

نعم قضاء يا عونى.

لكنه قضاء من الكبرياء، لا يعنى التسليم أو الاستسلام.

●●●

حتى هذا الشريط لا يعنى اليأس، أيها الفدائى المشاغب؟

ومع كل ما فيه، فإنه لا يعدوا أنه كسواه بضاعة مزيفة، فى سوق اليهودى المشوه، وهى سوق سوداء. والسوق

السـوداء، لا تكون فى الزمن الأبيض، ويوم تنجلى غـمـامـة النحس، فإن السوق السوداء، ستبيض مع كل الوجوه المشرقة البيضاء!

لكنها مع هذا بضاعة تغرى بالسماع، كموسيقى الجنس سواء بسواء!

●●●

وما هى الأخبار يا باشا؟

مطمئنة للغاية.

كيف؟ من فضلك احك لى.

قابلت صاحبك.

أين؟

فى السفارة.

وماذا قال؟

طمأننى الى أنه سيتدخل خلال أيام.

بأية حجة؟

الأمن...

وينجح؟

طبعا.. ومن يناقشه عندما يثار موضوع الأمن؟

الحكومة القائمة.

الحكومة لم تعد موضع ثقته أبدا.

لماذا؟

لأنها بدأت تتملق تصفيق الجماهير وتصدر قوانين سيئة.

صحيح. تهريج!

ولن يسمح صاحبك لها بأن تستمر على هذا المنوال.

طيب.. وصاحبك الكبير؟

يعمل إيه؟

يمكن يعارض؟

ويعارض ليه؟ مصلحته فى المعارضة إيه؟

من باب العناد.

عناد!! ويصرف العناد من أى بنك؟

من بنك مصر!

لأ لأ! لا بنك مصر، ولا بنك باركليز.

والبرلمان؟

ينحل.

والصحف؟

تغلق.

والطلبة؟

فى أجازة الصيف.

والعمال؟

ينتظرون عودة الطلبة.

ياه!! يعنى رتبتها؟

تمام.. تمام.

وصاحبك وافق على المفاوضات.

وسلم بالجلاء.

والسودان؟

والسودان.

الله الله. دا شئ هائل.

طلب واحد بسيط جدا.

خير؟

الدفاع المشترك.

طبعا. وهوه إحنا نستغنى عنه؟ إزاى؟

إذاً مبروك يا دولة الباشا.

ومبروك لك انت كمان يا معالى الوزير.

●●●

ودارت رأس عونى، وهو يسأل نفسه، عمن يكون صاحب المصلحة فى هذا الشريط.

لكن كثرة الاشرطة كانت قد هيأته لتلقى الضربات، ضربة بعد ضربة.

وعندما رجع إلى ملف الرهن، وجد أن هذا الشريط مرهون على ألف جنيه، تدفع كل ثلاثة أشهر خمسمائة، وأن عمر الرهن قد صار قرابة خمس سنوات، فكأن أرباح رهن هذا الشريط، وصلت الى عشرة آلاف جنيه.

●●●

"ولسه"!!

طبعا "ولسه"!!

الخواجه لا يزال يحتفظ بالشريط، ولا يزال يحمل رائحة الخيانة، والخيانة لا تزال تمثل أمام الرأى العام إدانه، والادانه تحتاج إلى كوم من أوراق البنكنوت ليغطيها، وكوم البنكوت محتاج إلى طرق كسب مشروعة وغير مشروعة. وطرق الكسب فى أيدى أصحاب السلطان. وأصحاب السلطان لهم عيوب، ولكى يداروا هذه العيوب يدفعون، وعندما يدفعون يستدينون، ويحتاجون إلى أن يسددوا هذه الديون بأرباح أخرى كثيرة، ولكى يحصلوا على أرباح عليهم بأصحاب نفوذ آخرين، ولأصحاب النفوذ الآخرين أهواء، ولكى يسهلوا عمليات الربح، ينتظرون أن يسهل لهم الآخرون هذه الأهواء، والذين يسهلون الأهواء محتاجون إلى تصريحات تموين، وتصريحات التموين تباع فى السوق السوداء، والسوق السوداء عمل معيب، والعمل المعيب لا يعنى ألا يقوم، ولكى يقوم يحتاج لجهاز، والجهاز الذى يرتب السوق السوداء، يحتاج لامتيازات، والامتيازات تترجم إلى رتب ونياشين، وللرتب أثمان، وللنياشين سوق، وهناك نواد مقاه متخصصة فى جمع أصحاب الرتب والنياشين، وعندما يتجمع هؤلاء تدور بينهم أكثر من عدوى، والعدوى مظهر

للبطالة، والبطالة تدفع للبحث عن متعة، والمتعة منها ما هو حرام، وما هو حلال، والحلال بين والحرام بين.

ومرة أخرى عاد عونى يصرخ ويصيح.

●●●

ثم عاد يقول لنفسه: يظهر أنك جننت. والله يا عونى يظهر أنك جننت.

وارتمى عونى على مقعدة مرهقا محطم الأعصاب.

وعندما أفاق، وجد اليهودى المشوه جالسا أمامه، ينظر إليه فى إشفاق. وعزت عليه نفسه.

هذا إرهابى قذر.

لكنك أنت أيها الفدائى مجنون.

وقبل أن يهم بأن يصفعه على وجهه، تذكر مسئوليته أمام إخوانه الفدائيين، وقاس ما يمكن أن يصيبهم من جراء تصرف ما، يسبق وقته.

وابتلع عونى مشاعره فى بطنه، وابتسم! .

ولا بد أن الارهابي المشوه ابتلع هو الآخر مشاعره، لأنه بدوره ابتسم!

قال اليهودى:

لا بد أنك مرهق.. جدا.

قال عونى:

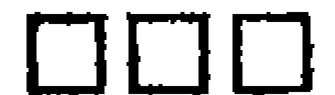
جدا.. أنا فعلا مرهق جدا.

قال اليهودى:

ولماذا لا تختار شخصا يعاونك؟

وسكت قليلا ثم أضاف:

اختر أى شخص، وليس ضروريا أن يكون رجلا!!



١٤

ومرت لحظات.

لحظات سريعة كالومض، لكنها كانت فى عمقها..

كالنبض!

●●●

الومض والنبض!!

هذه تمر فى سرعة الصاروخ!

وتلك تدق فى منابع الزمن!

وكلاهما كالبرق خاطف.. لا يتمهل، بل يتدفق.

وكلاهما كالريح عاصف.. لا يتهاون، أو يترفق!

والومض، مرور اللحظة.

والنبض، مرور العمر.

والعمر مجموعة لحظات تتعاقب وتتواصل فى خيط يطول أو يقصر، واللحظة جزء من العمر قد تكون له قداسة التعبد، أو تكون له شراسة المتعمد!

وعند الومض، يكون النبض.

وبعض الومض، هو كالنبض!

والومضة هزة عين تطرف،

والنبضة هزة عمر ترجف!

●●●

.. وهكذا كانت تلك اللحظات!

عونى وقف عندها يتأمل، واليهودى المشوه وقف عندها ينتظر..

وفى وقفة عونى، مرت صور عديدة، تحمل أكثر من علامة تعجب واستفهام؟

وماذا يقصد هذا الإرهابى البغيض؟! وماذا يريد؟

هل صحيح يعنى إنى متعب؟ وهل صحيح يريدنى أن أستريح؟ وهل بلغت به الرحمة حد التفكير فى الحل الموفق السعيد؟

ومنذ متى كان لك قلب يا أيها الارهابى العنيد؟

منذ متى صرت تفكر فى البشر، وتحمل عذاب الناس؟

منذ متى صارت لك فكرة عن متاعب البشر، لتعمل على تخفيفها؟

أنت يا أيها المشوه الكريه؟ أنت تريدنى أن أستريح، ومن أجل أن أستريح، أستطيع أن أستعين بأحد؟ وليس من الضرورى أن يكون هذا الأحد رجلا؟!

يا سلام!! أنت؟ أهذا أنت؟

ثم بمن تريدنى أن أستعين، إذا لم أستعن برجل؟

هل ترانى أستعين بحيوان؟ إذا لم أستعن برجل؟

هل ترانى أستعين بحيوان؟ هل هذا قصدك أم أنك تدفعنى دفعا إلى الاستعانة بامرأة أو فتاة؟

تدفعنى إلى المصيدة؟ تريدنى أن أقع فى فخ؟

من المرأة تظن؟ من تريدها أن تكون؟

أيه امرأة، وأنت تعلم أنى من قوة فدائية، لا تعرف بين صفوفها إلا فدائيا أو فدائية؟

هيام؟! تريد أن آتى لك بهيام؟

يا فاجر! يا عربيد الأرض أنت يا فاجر!

ولا يهم ما تعرفه عن هيام والمعلم شعبان؟! المهم أن تجرها إلى هنا.

المهم أن تقع!! أليس هذا قصدك؟

فإن تكن فتاة، فلابد أنك يا صاحب التحريات تدرك من ستكون؟!

ثريا؟! صديقتى ثريا!؟ تريدنى أن أستعين بصديقتى ثريا!؟

وأنت تعلم، أو لابد أنك تعلم، أنها صارت كهيام فدائية؟

المقصود إذا أن توقع بفدائى وفدائية. تأتى بهم إلى هذه الشباك، لتقع فيها فلا تستطيع أن تتحرك إلا بمقدار، وفى حدود تضعها أنت.

وكما كانت وقفة عونى على هذا القدر من الاضطراب، فكذلك كانت وقفة الارهابى المكار، على قدر مثله، من الخوف والحذر!!

●●●

هل تراه قد فهم قصدك يا خواجة كما يطلقون عليك؟

هذا الفتى برئ، وكل الفدائيين أبرياء. طبعا أبرياء، وإلا ما التحقوا بتنظيم لا يجر عليهم إلا الخسارة والبوار. لو كانوا خبثاء لبحثوا لأنفسهم عن باب آخر يطرقونه، ويستثمرونه فى أغراضهم ومنافعهم. أما الفداء، فهو الخطر، والموت!

لكن مع البراءة جسارة تتحدى الموت. ومع الجسارة ذكاء، وعندهم كذلك تجارب تاريخ طويل، تعلموه ورددوه.

.. إذاً يفهم ماذا تريد؟ فهم أن ذلك فخ منصوب؟

أتراه فهم أنك تحاول أن تحفر له قبرا من أوراق البنكنوت؟

.. والقبر إذا فتح، اتسع لاخرين!! لينتهى أمره وأمر زملائه إلى تاريخ البطولة والاستشهاد!

وهذه النظرات التى تدور حول وجهك.. نظراته هذه.. ماذا تعنى؟

وعيناه وهما تدوران بسرعة البرق حول صدغيك، ثم تحيطان بجبهتك وذقنك فى محاولة سريعة للالتفاف. عيناه

كعينى صقر متمر.. ماذا فيهما من رؤى؟ وإلام تقودانه هاتان العينان؟ إلى الشك فيك يا خواجة النحس؟ أم تراهما تقودانه إلى الثقة العمياء؟

وكاد الخواجة الإرهابى المشوه أن يصيح: يا رب!! حافظ على ما منحته لشعبك المختار من خبث النية، وخسة الهدف، وانحطاط المسعى! يارب، أنت خلقت الظلمة كما خلقت النور، فاجعل الظلمة أشد، لتدارى الأسرار فلا تظهر أو تبين!! يا رب: يا منصف كل عبد من عبيدك انصفنى، واستر نيتى أمام هاتين العينين!

وعاد عونى يتذكر لعبة القط والفأر، وخطر له ما يمكن أن تقوده إليه قدماه، لو اختلت حساباته ثانية واحدة، أو اندفع بكلمة لا معنى لها.

وفجأة استعاد هدوء نفسه، فابتسم.

●●●

وكانت فرصة الإرهابى المشوه فابتسم.

وتلاقت ابتسامة الفدائى والإرهابى، لتفتح بينهما الحديث.

●●●

أنت قلبك طيب جدا يا خواجة.

أنت تستحق كل خير يا عونى.

أنا صحيح متعب ومرهق، لكنى تعودت على ألا أشكو.

لكن للتحمل حدود يا عونى.. هات حد يساعدك.

حاضر. حدور.

وزى ما قلت لك، مش لازم يكون راجل.

وهمه الرجالة يعرفوا يشتغلوا، والا عندهم صبر؟

يا سلام!!

الرجالة خلاص مابقوش عاوزين يقعدوا على مكاتب ويتعبوا عينيهم فى الدوسيهات والأوراق.

أمال عاوزين ايه؟

عاوزين يلعبوا قمار. يسهروا سهرة حلوة.

ويعيشوا منين؟

من الفهلوة.

يا سلام. دا انت خبير أهو.

أمال. كل حتة بقت فهلوة.

كل حتة..

حتى الهندسة والطب بقت فهلوة.

يا ساتر.. دول يقلبوا الدنيا ويموتوا الناس.

شوف إنت اكثر مهندس رابح، تلقاه أكثرهم فهلوة.

ويرسم إزاى؟

يشتغل مقاول مهندسين.

يعنى إيه؟

يجيب اثنين ثلاثة يسخرهم، وهو يمضى، ويقبض.

دا إنت عجيب.

والحكيم الكويس، اللى بيموت نفسه مذاكرة وشغل.

ماله؟

شحات!

والحكما الكبار.

مقاولين حكماء برضه زى المهندسين.

دا شئ غريب.

أمال يا خواجه. الفهلوة هى سمة العصر، السياسة فهلوة والحكمة فهلوة، وكله كله فهلوة. آدى الرجالة.

خلاص إعمل اللى إنت عاوزه. هات اللى يعجبك. ست «بنت». زى ما انت عاوز.

حجيب يا خواجة. بس أنا خايف من حاجة.

إيه.. خير يا عونى؟!

خايف على نفسى.

من إيه؟

أبقى أنا كمان فهلوى ومقاول موظفين أو موظفات.

الله يحظلك يا شيخ.

وخايف على الشغل.

من إيه؟

يتحول من بنك رهونات إلى بنك فهلوة.. وفتوات!

●●●

وجاءت ثريا إلى بنك الرهونات. التحقت بالعمل مع عونى.

ولم يكن هذا سهلا، ولا هينا. لقد دخلت فى صراع مع أهلها حسمته هى بأن قررت أن تترك منزل الأسرة، إذا لم توافقها على أن تكون لها حرية التصرف.

واستبشعت الأسرة كلها هذا الموقف، وتجمعت تهدد أول الامر، ثم تتوعد، ثم تقنع بالحسنى، ثم تستسلم آخر الأمر، لإرادة الصغيرة الحسناء، برجاء أن تراعى سمعة البيت العريق الذى تنتسب إليه.

كانت المشكلة هى عونى.

العاطل المشرد التافه عونى.

الولد الذى لا يجيد إلا الرقص، ولا يحسن إلا التثنى أمام الفتيات. يطلق شعره، ليصبح كأهل الفن غير مقيد بنظام!

ويطلق مع شعره أظافره لتطول؛ ولا ينقصه إلا أن يلونها كما تفعل الفتيات الأنيقات!

وطلبت ثريا من أسرتها أن توافق على أن يخطبها.. هذا الرقيع.

وكانت وصية عونى لها ألا تفصح لهم عن سر العمل الفدائى أبدا. يتهمونه كما يشاءون، ويسبونه كما يريدون، ويجرحونه كما يحلو لهم، لكن أن يؤدى هذا إلى كشف أسرار الفدائيين، فهذا ما لا يسمح به على الإطلاق.

وحافظت ثريا على الوصية، فلم تفصح عن شئ.

وتركت أهلها يهاجمون عونى كما يشاءون، واكتفت بأن قالت لهم فى وضوح:

إذاً أترك البيت، وحياة الأسرة، لتصبح عندى حرية التصرف كما أشاء.

.. وكانت صدمة قاسية وعنيفة، هزت أوصال جميع أفراد الأسرة دون استثناء. إن هذا حدث تتعرض له الأسرة لأول مرة. ولأول مرة تواجه هذا التحدى السافر، من بنت صغيرة، لم تشب عن الطوق بعد!

وقامت القيامة، وتحركت أسلاك البرق، واستدعى الأقارب والأصهار، من جيمع النواحى والأنحاء. وثريا كالجبل لا تتزحزح.

إما عونى، أو أخرج الى عرض الطريق.

لكن إلى أين؟

لم أعد قاصرة بعد.

تتزوجينه قسرا؟

ربما.

وشرف الأسرة وسمعتها؟

وسعادتى أنا وهنائى؟

تضحين بأهلك؟

طالما أن أهلى يضحون بى!

وتذهبين إليه رغما عنا؟

بأيديكم أن أذهب إليه، بعد موافقتكم.

من حرضك؟

لا أحد.

من أغراك؟

لا أحد.

من أفسد أخلاقك؟

لا أحد.

●●●

... وظلت ثريا مصرة على هذا الموقف برغم كل شئ.

وحمل الإصرار الأسرة كلها على التراجع، والنزول على حكم الواقع. وصار عونى خطيب ثريا، وصارت ثريا مسئولية

عونى. ومن يومها وهى تخرج معه، أو إليه. لا يسألها أحد عن شئ. ولا يراجع أهلها تصرفا من التصرفات.

ولم تستغل ثريا الموقف أكثر من هذا. عونى كذلك لم يطلب منها أن تذهب إلى أبعد من هذا. كل ما هنالك أن ثريا صارت فدائية فى التنظيم الذى يضم خطيبها عونى، وعددا آخر من الفدائيين.

وعندما جاءها عونى بوظيفة فى بنك الرهونات، طرحت الموضوع على زملائها فى الكفاح. وكانت ثورة.

- هذا اليهودى يريد أن يحتوى التنظيم كله.

- وقد يستطيع التنظيم أن يحتويه.

- هو أقوى.

- بماذا هو أقوى!

- بالمال والنفوذ والتجربة.

- بل نحن أقوى بشبابنا وبحريتنا.

- بل هو الأقوى.

- نحن نحارب إمبراطورية لا تغرب عنها الشمس، ومع هذا يكون أقوى؟

ـ وهو إرهابى خطير، لا يتردد عن استعمال أى سلاح.

ـ ليكن بيننا صراع.

ـ سيكون صراعا بين قوتين غير متكافئتين.

ـ لأننا لا نؤمن بقدراتنا .

ـ بل لأن أسلحة الشر أكثر تنوعا، وأشد فتكا .

ـ لكن النصر فى النهاية للخير.

ـ بعد إيه؟

ـ أيا كان الأمر، فهذه نتيجة حتمية، تمثل طبائع الأشياء.

ـ على أن هذا ليس سهلا.. دائما .

ـ ليكن.

ـ وليس قريبا على كل حال.

ـ ليكن.

ـ وقد لا نصل إليه فى جيلنا هذا .

ـ لكن أجيالا أخرى ستحققه.

ـ وقد تنسى الصراع تحت خداع الأحداث.

ـ وقد يشتد بها الصراع بحكم رواسب الحقد.

ـ ومع هذا فالشر خطير...

ـ وهم!

ـ الشر لا يتورع عن الكذب.. عن الغش، عن التزييف.

ـ صحيح. كل هذا صحيح.

ـ وبهذا تتنوع أسلحته، بينما سلاح الخير واحد.

ـ لكن قاتل.

ـ إذا أصاب.

ـ ولابد أن يصيب.

ـ لا تكن متفائلا أكثر من اللازم. إن هذا الخواجة خطير.

ـ أعرف أنه خطير.

ـ ولا شك أنه يعمل وفقا لخطة.

ـ أعرف. وليست الخطة منه وحده.

ـ من منظمة صهيونية إرهابية.

ـ صحيح، وقد يكون لها فروع فى الخارج.

ـ إذاً.. علينا أن نحتاط.

ـ بأن نلعب عليه.

ـ فإن لعب هو أبرع؟

ـ يكسب.

ـ وهذا هو الاحتمال الأرجح.

ـ أبدا . بل الأرجح أن نكسبه نحن.

ـ على أى أساس؟

ـ هى لعبة ذكاء على كل حال.

ـ وتجربة ودهاء.

ـ ولن يكون الهروب حلا .

ـ أعرف.. تأجيل.

ـ قد يكون ذلك أكثر ضررا .

ـ بمن؟

ـ بنا أو بسوانا .

ـ وترى أن نسرع باللعبة؟

ـ خير البر عاجله.

ـ على بركة الله.

●●●

وذهبت ثريا إلى البنك، وعندمـــا رآها المعلم يس، نظر اليهـا نظرات مسـروقـة، ثم طوى نظراته فى حجـره، وهو يمتص ريقه الجارى من فرط الإعجاب.

أما المعلم غالى وكان فى أخريات أيامه فقد فحص البنية من قـمـة رأسـهـا إلى أخمص قدميهـا، وقـاس كل أجـزاء جسمها بعين خبير، ثم تأوه!

والمعلم شعبان هو الذى رحب بها وهو يتمنى لها التوفيق، وغافل عونى ثم ملأ مقلتيه من حسنها الباهر الأخاذ!

.. حتى اليهودى المشوه، تنهد وهو يتمنى أن يقطف ثمرة! أو وردة! أو يغـتـرف رشـفـة! شئ والسـلام! صـارت عـيناه الغـائرتان فى حجم ثقب الابرة، تتطلعان فى صمت المخدر!! الحسن، والشباب، والضحكة المرحه، والحب الواله.. ووقفة لا تعرف لنفسها أولا ولا آخر. كأنما قد خلقت لتستقر هنا، لا تتحرك أبدا!!

ـ ثريا.. إسمك ثريا.

قال اليهودى، وهو يفرك عينيه، كل منهما فى الأخرى:

ـ ثريا هذه.. أليس اسم نجفة كبيرة كريستال؟

وضحكت الصغيرة، فاهتزت أعطافها جميعا...

وكاد اليهودى يقف ليسندها حتى لا تتناثر بعض أجزائها من قوة الاهتزاز!!

ـ آه.. والله صحيح. أنا أيضا أعرف العربيه جيدا.

وظلت ثريا مع هذا تضحك فى مرح وسعادة!

●●●

وبدأت ثريا تعمل مع عونى، فى مكتب واحد، وفى قسم واحد. فى المخازن. هو أمين المخزن، وهى تساعده، فى المحافظة على المجوهرات، والعقود، وأشرطة التسجيل والإسطوانات.

ـ خازن غرام.. أنا!

هكذا كان عونى يقول، وكانت ثريا تضحك من أعماقها وهى تردد معه.

ـ وأنا أساعدك، يا خازن السوق السوداء؟

وأخذا، بين الحين والحين، يديران أشرطة التسجيل، ليسمعا آخر ما وصل إليه الإرهابى من تجديد، فى فلسفة الرهونات.

وفجأة أصدر الارهابى العجوز أمرا إلى ثريا، بأن تتولى مهمة جديدة، من أهم عمليات البنك، ومن أكثر مصادر دخله، ولو تمت فستكون لها عمولة كبيرة، فوق مرتبها.

●●●

وبدأ اليهودى الارهابى يشرح لها المهمة.

قال لها فى دعابة سمجة:

- اسمعى يا حلوة. اضحكى الأول!!

ومضى يسأل:

- لما الواحد منا يذهب لشراء بضاعة، مش بيلاقى البياع يغريه بشرائها، ويصف له مزاياها وفوائدها؟

قالت ثريا:

- طبعا. هذه وظيفته.

قال اليهودى:

- يا سلام. ذكاء. من أول نظرة أنا توسمت فيك الذكاء.

وضحكت، فأخذ يربت على خدها فى تودد، ومضى يقول:

- وبياع البضاعة شئ، وصانعها شئ آخر.. تمام؟

قالت ثريا : - تمام.

قال الارهابى:

- وأحيانا لا تكون البضاعة جيدة، أو على الأقل البياع لا يعرف ان كانت جيدة أم لا. ومهمته أن يروج لها. وظيفته أن يحصل على البضاعة، وأن يعمل على أن تروج. بالإقناع. بالإغراء. بالحيلة. المهم تروج. تمام؟

وسكتت ثريا تفكر، بينما مضى اليهودى يقول:

- والتاجر الناجح القادر على احتكار نوع معين من البضاعة.. تمام؟

وهزت رأسها وهى تفكر، وضحك اليهودى العجوز وهو يقرصها من أنفها متجاهلا شرودها.

- وكلما كان الاحتكار محكما، كلما كان الكسب مؤكدا. تمام؟

قالت وهى حائرة: - تمام.

●●●

قال اليهودى:

ـ إحنا بقه تجار.. تجار.. البنك نوع من التجارة. ما هو كله مكسب.. والا إيه؟

وأخذ يشرح:

ـ البنك تجارة، والمصنع تجارة، وبنك الرهونات تجارة. وإذا كنا عاوزين ننجح ونكسب، فلازم يكون عندنا بضائع نحتكرها. إحنا بس اللى نبيعها. محدش ينافسنا فيها. مفهوم يا حلوة؟

قالت: ـ طيب وبعدين.

قال: ـ شوفى بقى. إحنا بنتاجر فى إيه؟ بصراحة كدة قولى.

قالت: ـ فى العذاب. فى الغلب والرعب والعذاب.

وضحك اليهودى طويلا، وهو يمسح على شعرها الناعم ويقول:

ـ أنا بقول ذكية. لهلوبة وذكية. نظرتى عمرها ما خيبت. أهى دى إجابة عملية وواقعية ومباشرة. حنلف على بعض ليه؟

وسكت قليلا يلتقط أنفاسه، ثم استأنف الشرح:

ـ العذاب، الغلب، والرعب، والدموع، أسرار. كل حاجة لها سر، زى سر المهنة تمام.

قالت ثريا: ـ وافرض.

قال: ـ لا ما أفرضش. دا صحيح. يعنى تقفى على أسبابه وطبيعته ونتائجه.. كل حاجة فيه يعنى.

قالت: ـ ثم؟

قال: ـ ولو فرزنا الرهونات اللى عندنا سنجد الأسرار طبقات. زى الناس تمام. والا أنا غلطان؟

قالت: ـ يعنى.. فيه سر عميق، وفيه سر سطحى، وفيه سر يدمر.

وفيه سر يموت.. إذا كان كده.. آه!

قال: ـ أنا بقول ذكية. لهلوبة وذكية.

قالت: ـ وبعدين؟

قال: ـ لو فرزنا بقى الرهونات اللى عندنا، حنلاقى إن بعضها بيكسب خمسة فى المية، وبعضها عشرة، وبعضها عشرين.

قالت: مفيش عندك مكسب أقل من عشرين.

قال: ليكن. يبقى فيه ثلاثين وأربعين..

قالت: وخمسين وستين.

قال: لو نقينا نوعين ثلاثة، من أبو ستين، واحتكرناها يبقى إيه؟ مش نكسب تمام؟

قالت: طبعا.. جدلا.

قال: شوفى يا حلوة. قولى لى إنت على النوعين الثلاثة اللى نختارها. من تجربتك، وحصافتك وذكائك.. لهلوبة إنت وذكية.

قالت: الألماز.

قال فى برود: نعم؟!

قالت: الألماز؟

قال فى ضيق: ألماز؟ ألماز إيه؟

قالت: طبعا مش هوه أهم المجوهرات؟

قال: إحنا بنهزر. دا كان فى القرن التسعتاشر. الكلام ده كان زمان. إنما إحنا دلوقتى فى اسطوانات وأشرطة تسجيل. دى رهونات العصر، مش الكلام اللى لا يودى ولا يجيب.

قالت: يعنى الهوا!!

قال فى تحد: آ.. الهوا!! اللى بنسجله وبتاجر فيه. الهوا اللى بيرعب الكبار والصغيرين. الهوا اللى بيعصف بيه وبيكى وبالجن الأزرق! الهوا اللى بيدخل اللومان، وبيفتح أبواب المعتقلات، وبيعرض المقاطيع للرصاص!

وذعرت ثريا وهى تسمع هذا الكلام، وترى حدقتى عينى اليهودى تتسعان فى وحشية، لكنها تمالكت نفسها وسألت اليهودى:

ـ طيب إيه اللى إنت عاوزه؟

قال: أهوه كده يا حلوة. أنا عارف إنك ذكية. لهلوبة وذكية.

ومضى يشرح لها:

ـ الأسرار بتكسب إيه؟ الأسرار اللى تمسك الواحد من خناقه إيه؟ الأسرار اللى تجيب أجعص جعيص الأرض إيه؟

قالت فى براءة: دا متوقف على الواحد نفسه.

قال فى مرح: أهو كده..أنا عارف إنك ذكية، لهلوبة وذكية. شوفى يا حلوة يا منورة.. السر وحده مش مهم.

افرضى سرقت سر واحد هلفوت. إيه يعنى؟ حتكسبى من وراه إيه؟ انما لما واحد يكون فى مركز كبير، وله سلطة.. وبرضه ده مش كفاية لأنه لو كان له مركز وسلطة ونضيف يبقى السر زى قتله. دا حتى ما يبقاش سر. إنما السر يبقى سر، لما يكون سر واحد له نفوذ وسلطة، وبيستغل النفوذ والسلطة لمصلحته، أو لمصلحة غير المصلحة اللى لازم يخدمها. هو ده بقى يبقى لقطة. تاخذى السر وتحطيه تحت أمرك. وهو بقه يقدر يتصرف. هو حيدفع حاجة من جيبه. ما هو كله من السر.

وسكت اليهودى، عندما وجد ثريا قد تاهت عن الدنيا، وأمسكت برأسها تمنعها من التمزق والانفجار، وتضع يدها على صدرها تحاول أن تعيد دقات قلبها إلى حالتها الطبيعية.

وصاح يقول: مالك؟ مالك يا حلوة؟ مالك؟

قالت: لأ.. مفيش. مفيش.

قال: يعنى أكمل؟

قالت: إذا كنت عاوز.

قال: طبعا عاوز. دا نوع. دا نوع واحد من الأسرار.

قالت: وفيه أنواع ثانية.

قال: يو...! كثير!! كثير خالص.

●●●

والنوع الثانى كان هو خيانة الزوج لزوجته. وأيضا يتوقف على الزوج والزوجة وطبيعة كل منهما، والطبقة التى ينتمى إليها، وأهميته فى المجتمع، ودرجة ثرائه.

●●●

الزوج الفقير، ليس وراءه شئ، حتى لو كان وزيرا.

الزوج الغنى، الذى تزوج واحدة متواضعة، بلا أهل ولا عصبية، لا يخاف من زوجته، إلا إذا كان متيما إلى آخر حد.

الزوج الغنى وذو المركز، الذى اختار زوجة من بيت كبير. وذات ثراء.. هذا هو الصيد الحق الثمين، الذى يشترى سره بأى ثمن..

وأحيانا يكون خوف الزوج من أولاده!

وأحيانا يكون خوفه من صهر مثلا، يكون قد تزوج ابنته!

كل حالة بحالتها، تدرس وحدها، لتصبح صنبورا مفتوحا يصب الماء على السر، حتى يظل باردا لا يحرق سمعته!!

●●●

والسلعة الثالثة الرائجة فى سوق الرهونات، كانت خيانة زوجة غنية ومعروفة، ومن بيت كبير، لزوجها المعلم الشهير، ذى الثروة والجاه، مع واحد من الصعاليك!

الزوجة من هذا النوع، تدفع عمرها، ولا يذيع السر.

والسر فى هذه الحالة يتحول إلى بضاعة تدر الذهب.

وأسلوب استغلال البضاعة محتاج الى حرص وإلى حذر.

والدنيا كلها مصالح. واحد يكتم السر بثمن. واحد يرهن السر بأجر معلوم. وواحدة تستمتع بالسر على كوم من الذهب، تخفى به سرها.

●●●

والبضاعة الهامة والخطيرة، والمربحة أيضا، هى بضاعة الخيانة.

العملاء.. تعرفين العملاء؟

ومن أين لى أن أعرف عملاء يا خواجة؟

أنا أحكى لك كيف يصير العملاء عملاء.

ياه..! وتعرف هذا أيضا؟

طبعا.. لأنبش أسرار الناس، وأرهنها.

وتكسب.

كثيرا.. جدا.

كيف يصيرون عملاء.

أيضا عن طريق نقطة ضعف، ولكل واحد نقطة ضعف يمكن أن يمسكه منها خصومه.. بذكاء.

فإن يكونوا شرفاء؟

يصبح الشرف نفسه، هو نقطة ضعفهم!

لا لا.. هذا شئ غريب لا يصدق.

وأنا الذى أزعم أنك ذكية جدا. لهلوبة وذكية؟

الشرف يصبح هو نقطة الضعف؟!

آ.. هل هذا غريب؟

طبعا غريب.

طيب.. أحكى لك أنا قصة العمالة والعملاء من أولها.

●●●

وبدأ اليهودى يشرح لثريا.

هل من شك فى أن عند بعض الناس ضعفا للمال؟

لا.. أبدا. كثيرون يعبدون المال.

ولا يتصورون لهم إلها سواه.. هؤلاء عندما تحين لهم فرصة الحصول على المال، يترددون فى استغلالها؟

بالمنطق وبالعقل.. لا.

وبالمنطق وبالعقل تعمل الوكالات المتخصصة فى اصطياد هؤلاء من نقطة الضعف لديهم. فإن تكن هى المال، فإنهم يسدون أفواههم به.

ويصبحون عملاء.

طبعا.. ويقعون فى الفخ، بالثمن.

وآخرون؟

ضعفهم النساء مثلا.

يسدون شهواتهم بالنساء.

يا سلام. أنا كنت أعرف من أول لحظة.

أنى ذكية.. لهلوبة وذكية.

تمام.. تمام.

وسواهم؟

القمار.. مرضى بالمقامرة.

ويرضونهم بموائد قمار محدودة.

وبناس يخسرون لهم، كلما أرادوا منهم شيئا.

كل هذا قد يكون معروفا. إنما الشئ غير المعروف أن يستغل الشرف. أن يكون الشرف نفسه نقطة ضعف تستغل.

●●●

وأخذ اليهودى يحكى أن تدبير فضيحة مفتعلة لرجل شريف، تجلعه أطوع من الآخرين.

الشرفاء يا بنيتى، يحرصون تماما على سمعتهم، ويصل حرصهم على طهارة أسمائهم الى حد الهوس. فإذا دبرت لواحد من هؤلاء فضيحة مفتعلة، أو استدرج إلى هفوة، فإن لم يسقط فى حبائل مدبريها، اصطنعوها بحيث تصبح إتهاما.. عندئذ يدفعه الحرص على سمعته وعلى اسمه الى قبول تنازلات مختلفة، حسب الظروف.

قالت ثريا فى اندفاع:

ـ فإذا قبل تضحية اسمه وسمعته.

قال اليهودى:

ـ فقد قيمته.. إن قيمة هذا الصنف فى استقامته، فإذا لوث بصورة أو بأخرى انتهت هذه القيمة، واختلفت الثقة فيه، ولم يعد شخصا يستحق أن تعنى به الجهات التى تحاول الإفادة منه.

قالت ثريا:

ـ فإذا رفض الرضوخ للتهديد؟

قال اليهودى:

ـ نفذنا التهديد بالفعل، للقضاء عليه.

قالت ثريا:

ـ عندئذ يقبل الامر الواقع.

قال اليهودى:

ـ تماما كزوجة شريفة، تدبر لها فضيحة فى بيت دعارة، بكل ما تملكه من حسن القصد والطهارة. ماذا تعمل؟ وكيف تبرر الموقف لزوجها؟ وهل يصدقها؟

قالت ثريا:

- تحكى له كل شئ بوضوح.

قال اليهودى:

- وتبرر له وجودها فى بيت مشبوه على أى وجه؟ وقد يصور لها الموقف على أنه منزل خياطة مثلا، وتأمن وتصدق، وتخلع ملابسها فتلتقط لها عشرات الصور، ويؤخذ لها أشرطة تسجيل مختلفة.. تفسر هذا بماذا؟

قالت ثريا فى ضيق:

- تسلم وتستسلم.

قال اليهودى:

- وتجد أنسب الحلول لمشكلتها أن تطيع.

قالت ثريا:

- تطيع ماذا؟

قال اليهودى:

- أى أمر يصدر لها.

قالت ثريا فى انفعال:

ـ وتصبح عميلة؟

قال اليهودى:

ـ أفضل من أن تصبح داعرة!

●●●

وبعد يا ثريا.. هذا قدرك!!

يبدو أنهم كانوا على حق، عندما قالوا لك منذ اللحظة الأولى أن هذا الخواجة ينوى أن يحتوى التنظيم الفدائى كله وأنه أقدر على هذا الاحتواء، وأذكى، وأكثر خبرة، ثم هو فوق هذا متعدد الأسلحة والوسائل.

هذا هو يحاول أن يستثمر الحركة الفدائية الصالحة.

ألم يقل لك أن الشرف أيضا قد يصبح نقطة ضعف.

والفدائية شرف.. وفضيلة.. وحرية.. وتضحية.

إذاً فهو يريد أن يستثمر هذا الشرف.

.. لكن كيف؟ هل يجرنا جميعا إلى فضائح، نضطر إلى أن نداريها فنقبل أن نوظف طاقاتنا كلها له.

يعنى نصبح جزءا من حركة إرهابية صهيونية؟

.. وإلا فهى فضيحة للكرب، تنكشف فيها عوراتنا، ونصبح نكتة فى أفواه الفدائيين وتنظيمات الطلبة والعمال، ورجال المباحث والبوليس السياسى!!

لكن كيف يصل هذا الرجل المجنون إلى هذا؟

هذا طموح أكثر من اللازم. لكن من يدرى؟!

●●●

شوفى يا حلوة يا قمورة.. يا لهلوبة وذكية.

نحن محتاجون الى سر نرهنه هنا، يدر علينا الذهب، ويصبح أكثر فائدة من كنز!! كنز من كنوز جدودك الفراعنة القدماء. سمعت بهذه الكنوز؟!

وسكتت. كانت قد وصلت إلى درجة من الإعياء، لم تعد بعدها قادرة على أن ترد.

.. وقد فكرت فى شىء واحد هائل. رجل فارع ووجيه، ويذوب فى الستات الجميلات. نقطة ضعفه الجمال، والسحر، والعينين الساهمتين، والشفتين المكتنزتين. كل واحد له مزاج، وهذا مزاجه.

تعرفين يا حلوة. مركزه كبير جدا فى المباحث، وهو يمثل حلقة الاتصال بالبوليس السياسى، والسراى، والسفارة

الانجليـزية وتجـار الأسلحـة، وبعض قـواد الاسلحـــة فى الجيش. مركز كبير. قلت لك هائل.

ومهمتك يا شاطرة يا حلوة أن تحصلى منه على معلومات طازة. معلومات عن استعداد الأسلحة، وعن صفقات السلاح التى تصل، وعن اتجاهات الاحـزاب، وعن السـراى، وعن كل شئ.

وأنت تعـرفـين أن رجلا كـهـذا يـعـبـد الجـمـال، لـن يكون عـصـيـا عليك. أبدا بل وسـيكون سـهـلا مطيـعـا. وسـيـجـره جمالك الساحر إلى التباهى بما يعلمه، والتفاخر بأهميته.. وهنا تصبح عندك كل فـرصـة لرهن أسرار نعيش من ورائها على كوم من الذهب..

وقبل أن تفتح فمها بكلمة قال اليهودى:

عـارف.. عـارف أنك قـد تتـسـاءلين عن الثـمـن الذى تدفـعينه.. هـذه مـسـألة مـتـروكة لشطارتك ولذكـائك. وأنت ذكيـة. لهلوبة وذكيـة. أمـا طريقـة تعـرفك به فـسـهلة للغـاية. بسـيطة جـدا. ومن هو هـذا الجلف، أمـام عـينيك يا حلوة؟ أمام شفتيك يا قشطة؟ أمام شعرك يا حورية من الجنة؟

أنت لا تعرفين مكانتك

أنت شئ هائل.. جدا!

وهزت رأسها ساخرة، وهى تقول:

أنا أيضا شئ هائل.. مثله؟

□□□



.. وأصبحت مهمة ثريا أن توقع حنفى بيه فى حبائلها.

ولم يكن هذا سهلا عليها. كما لم يكن سهلا على كل الأطراف المحيطة بها.

عونى كان كارها لهذا الدور، الذى عليها أن تؤديه. ولم يكن هناك منطق يمكن أن يقنعه به. حتى إخوانه الفدائيون الذين صوروا الموقف على أنه تضحية تقوم بها ثريا، فى سبيل هدف أكبر.. لم يستطيعوا أن يقنعوه! عونى إنسان، وله قلب، وهو يغار ويخاف، ويحسب ألف حساب لخطأ العواطف، كما يحسب ألف حساب لخطأ المواقف.

أيمكن مثلا أن تحب ثريا حنفى بك؟

ولم لا؟ أليس رجلا. فارعا، وأنيقا؟

أليس من عباد الجمال؟ والذين يحبون الجمال، يعرفون كيف يقدرونه. وعندما يقدرون الجمال، يبالغون. والمبالغة

فى تقدير الجمال، تحمل فى طياتها مبالغة فى الغزل، والغزل طعم المرأة، والمرأة ضعيفة، والضعف يجر إلى تصرفات، والتصرفات تختلف من حالة إلى أخرى، والخلاف لا ينفى أن جميع الحالات تحمل إتهاما، والإتهام قد يقبل فى شئ، لكن فى الشرف، فهو جريمة لا تقبل الاعتذار، والشرف إذا ضاع، ضاع معه كل شئ، والذين يهونون من قدره، يغالطون، والمغالطة لا تتفق مع الفداء، ولا مع الوطنية، وثريا وطنية، وفدائية، ومن أجل هذا فهى لن تغالط، ولن تهون من ضياع الشرف، ولن تضع له مبررات، ولكنها ستعترف.. والاعتراف لن يعيد الشرف!! لن يعيد الشرف!! لن يعيد الشرف!!

وكاد عونى يصاب بحالة أغماء، عندما يصل به الحوار مع نفسه إلى هذا الحد من الجنون!!

●●●

والفدائيون كذلك كانوا كارهين لهذا الدور، وكانوا كذلك خائفين على ثريا خوفا شديدا. كانوا واثقين فى شرفها وطهارتها وحبها لعونى، وكانوا يعتقدون أن هذا ضمان. ولكن من يدرى كيف سيفكر حنفى بك، وهل سيأخذ ثريا

على علاقتها، أم أنه سيشك فيها، فإن شك، فإن الشك يدفع للحذر والحذر عند رجل المباحث يقتضى المراقبة، والمراقبة تحرص على تجميع المعلومات، والمعلومات تجر إلى معلومات، ثم إلى معتقدات، ثم إلى تحقيقات، ثم إلى مصادرات، ثم إلى اتهامات، ثم إلى محاكمات، ثم إلى فضائح وبيانات، ثم إلى تصفيات..

وكان الفدائيون يتصورون أن هذا قد يكون هدفا وضعه الخواجة، ودبر كل هذه الحيل للوصول اليه. وطالما أن الحركة الفدائية لم تخضع لأغراضه، فأقل ما يفعله معها، أن يصفيها ويقضى عليها.

●●●

اليهودى أيضا كان كارها لهذا الدور، وكان بدوره خائفا.

الرجل الهائل رجل ذكى وخطير. وقد يكشف اللعبة، ويسير فيها إلى آخر مدى، ليكشف ماذا يكون وراءها. ثم من يدري، قد يعمد إلى التضليل والخداع، وإعطاء معلومات كاذبة ومزيفة، ليكون لها رد فعل عنيف، ضد الذين يدبرون ويخططون.

والرجل الهائل جذاب أيضا. وقد يوقع هو بثريا بدلا من أن توقع هى به. قد يحملها على أن تحبه والمرأة عندما تحب تغدو مخدرة، تأتمر بأمر من تحب وتطيع، وسيستغل هو هذا الحب، ليكشف به ما استعصى عليه زمنا طويلا من أسرار الفدائيين والارهابيين جميعا. وقد يمثل دور المخدوع، وقد تمكنه ثريا من هذا التمثيل، تعبيرا عن حب يملأ قلبها.

●●●

وكان لكل طرف طريقته فى التعبير عن كراهيته لهذه المهمة.

ثريا مثلا كانت تقضى الساعات مع عونى تؤكد له أنها حريصة وأنها مدركة لدقة دورها تماما، وأن قيامها بهذا الدور لا يعنى أن تقع تحت أى تأثير.

وتعلمت ثريا لأول مرة، كيف تحمل فى حقيبتها مسدسا صغيرا وضعت فى تقديرها أن تستعمله، عندما يكون استعماله ضروريا.

●●●

عونى كذلك استعان بصديق قديم، فتحايل بطرق مختلفة، حتى وضع خادمة عجوزا من طرفه، فى خدمة

حنفى بك، شقته الخاصة، وأوصاها بأن تفتح عينيها جيدا، وأن تساعد ثريا فى حالات الخطر.

●●●

الفدائيون استعانوا بعضو التنظيم الذى يعمل فى المباحث، ليكون فى خدمة حنفى بيه، بأية حجة من الحجج، ليتمكن بذلك من أن يكون قريبا من الأحداث، فلا يحدث شئ غير مقبول وكريه!

وقد عمد المخبر النشيط إلى تقديم تقريرات هامة، عن نشاط مريب للفدائيين، وأن لهم بعض أوكار حديثة فى مخازن منشورة فى العاصمة، وأنهم يخزنون فى هذه المخازن مواد مفرقعة.

وأمر حنفى بيه بالتفتيش، وكان المخبر قد اتفق مع زملائه على أن يتركوا فى هذه المخازن بعض المتفجرات، فضبطت وفقا لما جاء فى التقرير، وكان جزاء المخبر، أن صار قريبا جدا من حنفى بك، فى الدار والنار وفى شقته الخصوصية كذلك، وصار مكلفا بأدق تحريات يريد أن يحصل عليها الرجل الهائل!

●●●

الارهابى المشوه بدوره تحايل حتى استطاع أن يراقب كل شئ يدور، عن طريق البواب الذى يرى الداخل والخارج، وعن طريق البقال الذى يتلقىً طلبات الأكل والشراب، وعن طريق المنادى الذى يحرس سيارات الزبائن، بينما يكونون حيث يكونون، يعملون أو يعبثون!

●●●

هكذا أخذ كل يستعد لمواجهة أية احتمالات أو مفاجأت.

ثريا وعونى، وأجهزة الفداء، ووكالة الارهاب. كلهم وضعوا أنفسهم فى حالة تأهب واستعداد.

وحنفى بيه بدوره كان حذرا.

كان يتعامل مع الصديقة الجديدة، وعينه على كل حركة من حركاتها.

وكلما كانت تتمنع عليه، كلما كانت حاسة الحذر فيه تتنبه.

لقد عاش الرجل حياته بالطول والعرض، ولم يتورع عن شئ أبدا. بالنهار كانت له غزوات، وبالليل كانت له سهرات، وفى كل وقت له مغامرات. فى عمله يغامر، وفى علاقاته بالسلطات يغامر، وفى حياته الخاصة يغامر.

كانت مغامراته جميعها على درجة من الثراء والغنى، بحيث كانت تكفى لتملأ عدة كتب ومجلدات، لو شاء أن يدونها، لكنها كانت كلها خفيفة الظل، تخلط بين الجد والمزاح!

كان صديقا وعدوا .. وكانت هذه ميزته.

يعرف كيف يجمع بين الصداقة والخصومة معا!

أحيانا يقول عن الذين يراقبهم أنهم أصدقائى المجانين!

وأحيانا يقول عن الذين يتعاون معهم من رجال المباحث والمخابرات.. أنهم أصدقائى.. الألداء!

خيط رفيع جدا كان يفصل بين صداقته وخصومته، وقد يزول هذا الخيط فتتوه أمام النظر الأوضاع، فلا أحد حتى هو يدرى، من الصديق ومن العدو!

●●●

يحكون عنه حكايات لا تصدقها العقول.

يفتش بيتا من بيوت الفدائيين، وقد يعثر أثناء التفتيش على قطعة مخدرات قد لا يكون الفدائى على علم بها. قد تكون ملكا لأخ أو صديق، أو ربما يكون بعض رجال القوة

المصاحبة لحنفى بيه قد وضعوها للإيقاع بالفدائى المشبوه، لكن حنفى بيه يخفيها فى كفه، حتى إذا تم التفتيش وانتهى، تركها مع الفدائى، وهو يوصيه أن يتخلص منها، وأن يحذر فى المستقبل من وجود مثل هذه الأشياء لديه.

تحاسب شويه. بلاش تديهم سلاح تانى يحاربوك بيه.

مش بتاعتى.

وبعدين بقه. ما أنا أقدر أعمل زيهم وأحول الحكاية لتهريب، لكن دى مش شغلتى، وأنت كمان ما تهونش عليه.

●●●

ويترك حنفى بيه الفدائى يعجب!

هذا رجل غريب. هل صحيح قلبه عليك؟ ولو أنه قد عثر على منشور أو سلاح أو قائمة باسماء أو بعناوين. هل كان قد تساهل على نحو ما فعل مع المخدرات؟

وأمام هذا التناقض كان يترك الفدائى غير قادر على أن يحدد موقفه منه.

هل يحبه؟ هل يكرهه؟ هل يحترم هذا الوضوح فيه؟ أم هل يحتقر منه هذه التمثيلية المتعمدة؟

وهل هذه شباك؟.. هل يقصد إلى أن يلقى فى القلوب الثقة، ليقع فى قبضته أكبر عدد من الفدائيين، تحت ستار الثقة فيه؟!

●●●

وعندما يطب فدائى أو واحد من الوطنيين، فإنه يصحبه إلى السجن أو إلى المعتقل، لكنه يقول له فى أذنه أنه يستطيع أن يعتمد عليه.

إذا أراد أن يتصل بأهله، فهو على استعداد.

بل هو كذلك على اتم أستعداد للاتصال بمحاميه، ونقل الرسائل بينهما!!

وفعلا كان حنفى بيه يبر بما يقول. أية رسالة كان السجين يريد إرسالها لأهله، كان يحملها عنه، دون أن يحاول فتحها أو التعرف على ما فيها.

وكثيرون من السجناء كانوا يتصورون أنها طريقة للتجسس عليهم، من خطاباتهم، لكنه كان يثبت لهم على سبيل القطع أنه كان يفرق بين نقرة ونقرة، وأنه لم يكن يقبل أن يسرق أسرارهم كما كان يقول!

هل هو خصم شريف؟ هل هذه حيلة؟

وكما كان حنفى بيه يوصل الرسائل للأهل فقد كان يقيم جسرا بين الأهل والسجين. بل وبين المحامى والسجين.

وكان يضحك ملء شدقيه، وهو يقول: السجين أمانة فى عنقى حتى يخرج. أمانة تحتاج الى أن تصان حتى ترد لأصحابها.

●●●

ويحكون عن حنفى بيه أنه يذهب إلى أبعد من هذا، فقد كان يعرف حالة كل أسرة من أسر المسجونين. كان يعرف درجة حاجة كل أسرة، وعدد أفرادها، وحالة كل فرد.

فى أحيان كان يزود بعض الأسر بمساعدات مالية، وكان يدعى أنها مرسلة من السجين نفسه!! بينما السجين خالى البال تماما، لا يعرف شيئا عما يقوم به.

وفى أحيان كان يوصى على أفراد الأسرة المحتاجين.إن كانوا تلاميذ أوصى بهم المدارس التى يكونون بها، وإن كانوا موظفين فى أماكن بعيدة، توسط لنقلهم حتى يوفر قدرا من المسئولية عن المحتاجين للرعاية من أبناء الأسرة!

كان حنفى بيه غريبا كل الغرابة فى هذه التصرفات.

●●●

ومن النوادر التى تشيع عنه، أن الذين كان يقبض عليهم من الكتاب السياسيين والصحفيين ورجال الاحزاب. هؤلاء كان يوفر لهم المعاملة التى يريدون.

يقولون انه كان يسهل لهم الاتصال بصحفهم أو صحف أحزابهم، وفى أحيان، كان يأخذ منهم رسائل، ليوصلها إلى هذه الصحف، وهو يعلم أنها تهاجم نظم السجون، وتواصل حملتها على الحكومة وأعوانها.. وهو منهم! أما نصائحه إلى رجال الأحزاب، بأن يطلبوا علاج أسنانهم فور دخولهم السجن، فقد كانت لعبة دلها عليهم، ليتمكنوا بها من الذهاب إلى قصر العينى بحجة العلاج الموهوم، ومن قصر العينى يتسللون إلى حيث يشاءون، حيث يقضون النهار كله، مع من يشاءون ثم يعودون عند الغروب إلى السجن.

وكان يعلم أن بعضهم كان ينتهز الفرصة فيذهب إلى بيته، ليلقى هناك أولاده وامرأته. وبعض آخر كان يذهب إلى شقة خاصة، كالشقة التى اتخذها لنفسه، ليلهو ويعبث ما

شاء، بينما تكون إدارة السجن قد أدرجته على أنه فى قصر العينى يعالج أسنانه مما أصابها من مرض، وتكون زوجته قد فضحت الدنيا سبا فى الحكومة التى فصلت بينها وبين زوجها .. البرئ!!

وحنفى بيه كان يعلم كل ذلك، لكنه اعتاد على أن يغلق فمه فلا تخرج منه كلمة تذيع سرا من الأسرار!!

وأجمل ما عرف عن حنفى بيه أنه كان يعرف أسرارا كثيرة مختلفة عن عائلات زبائنه. كان يعرف حقيقة المشاعر وخلجات النفوس، من وقع المحنة على كل فرد منها.

وكم تجمعت لديه معلومات عن زوجات ينتهزنها فرصة للتحرر!

وأخريات تتظاهرن بالأسى على ما آلت إليه مصائر الأزواج، وهن فى الواقع سعيدات راضيات، يتمنين لو طالت الغيبة بين الجدران الغلاظ ليتسع لهم وقت اللذة والمتاع!

وشابات وقعن فى حبائل شيوخ من رجال الأحزاب، يجدن فى السجون والمعتقلات فرصتهن لتعويض الشباب، قبل أن يذبل، ويجف!

وصديقات اندفعن إلى ساسة مسئولين خوفا من مناصب كانوا يشغلونها، فلما يزول السلطان، يخجلن من أن يذهبن مع ذهاب السلطان.. ويأتى السجن، ليفتح لهن فرصة مشروعة للذهاب!

كل هذا وسواه، كان يعرفه حنفى بيه.

لكن حنفى بيه مع هذا، كان يكتمه، ولا يتحدث به أبدا.

●●●

.. ومن هؤلاء، من كانت تسعى إليه.. إلى حنفى بيه.. فالرجل فارع، وهائل، ووسيم، وجميل القسمات، ويذوب فى حب الجمال!

وهو إلى ذلك صاحب سلطان دائم، لا يزال بزوال حزب، ولا ينحسر بانحسار حكومة، لأنه فى خدمة كل الأحزاب وكل الحكومات. كرباج.. هو كرباج كل حزب ضد أى حزب، وسلاح كل حكومة، ضد أى حكومة سبقت. هم يتصارعون، ويتساقطون، وهو باقٍ كالمارد، يتلقى منهم جميعا ألوان الملق والرياء!!

ولأنه كذلك، فقد كانت تسعى اليه النساء. كثيرات ممن عرفنه، أردن أن يقتنصنه! لكنه على عادته كان شديد

التمسك بفلسفة محددة، وهى ألا يخلط أبدا. إذا كانت مهمته أن يوصل رسالة من سجين، فإنه لا يتعدى هذه المهمة أبدا، حتى لو وقع تحت إغراء اغتصاب!

ولا بأس عنده من أن يتقمص شخصية يوسف الصديق، فى مواجهة امرأة فرعون!!

كان حنفى بيه يقول:

ما هم كثير. يعنى لازم الواحد ينقص نفسه، ويعيش فى صراع مع ضميره؟!

●●●

الشئ الذى كان يقلق كل المحيطين بحنفى بيه هو مدى علم رؤسائه بهذه التصرفات. هل هو متفق معهم عليها؟ أم هى تصرفات لحسابه وحده؟

ولم يكن يخطر بذهن أحد أن حنفى بيه يقدر على أن يتخذ لنفسه سياسة مستقلة، بعيدا عن رؤسائه، وإلا لانكشفت حيلته من مدة طويلة ولظهرت هذه التصرفات، بصورة أو بأخرى.

فإن لم يكن رؤساؤه على علم بها، فهى إذاً تصرفات مشبوهة.

لا هى فلسفة ولا يحزنون، ولا هى مظهر لأية أخلاق!!

أسلوب جديد فى مواجهة الفدائيين والسياسيين والكتاب والثوار، أو صيغة جديدة، لجر أرجلهم إلى المصيدة، من خلال الثقة والاطمئنان.

●●●

وحقيقة الوضع بالنسبة لحنفى بيه أنه لم يكن يخدع أحدا، خداعا مطلقا، وإنما كان يخطر رؤساءه بما يتخذه من قرارات وإجراءات.

كان يعطيهم بعض الحقيقة، لا كل الحقيقة. كان يروى لهم أن مصلحة المهمة التى يمارسها أن تتم بأسلوب لين مع قوم قد يصبح منهم ذات يوم وزراء، ومديرون، ووكلاء برلمانيون، وأعضاء برلمان.

وكان رؤساءه يسمعون هذا الكلام ويقدرونه، فقد كان الواقع مع حنفى بيه. وكم شهد هؤلاء الرؤساء، سجينا، خرج من السجن إلى كرسى الوزارة، وكان أول ما فعله أنه شرد مأمور السجن الذى كان فيه، لأنه كان قليل الذوق معه، عديم اللياقة فى التعامل مع أسرته!

حنفى بيه إذاً عنده حق.

والمسألة ليست أكثر من لعبة!

اليوم ناس فى السجن، بأمر من ناس فى السلطة.

وغدا يدخل الذين كانوا فى السلطة السجن، ويخرج من السجن إلى السلطة.

لعبة طريفة، ولا يجوز أن تخدع أحدا، خصوصا رجالا مدربين أذكياء يعملون فى الشرطة والمباحث والمخابرات والبوليس السياسى، وحفظ الأمن.

حتى الذين انخدعوا من هؤلاء، كانوا ينخدعون بحساب.. كان الانخداع نوعا من التجارة، محسوبة بالخسائر والأرباح. إنما الأسلم هو أن يبتعدوا عن هذه التجارة الخطرة، غير المأمونة. وتلك كانت فلسفة حنفى بيه، يشاركه فيها كثيرون من رجال البوليس الخاص.

●●●

لم يكن حنفى بيه إذاً يخدع أحدا.

كان ينفذ الأوامر، ولكن بأسلوب الدبلوماسى.

كان يكسب كل الأطراف فى وقت واحد. الحكومة تريد اعتقال خصومها، وهو يقوم بهذه المهمة على الفور. ولكن

هؤلاء الخصوم يريدون بعض الحريات، وهو يقدم لهم من عنده، وبلا تعليمات، هذه الحريات. وهذه الحريات قد تمتد إلى العائلات، وهو كفيل بوضع المرهم على جروح هذه العائلات.

●●●

وعندما تعرف حنفى بيه على الحبوبة الصغيرة الحلوة ثريا، شعر أنه أمام حالة جديدة.

هذه شئ آخر، غير الأخريات.

هذه من الصنف الذى يحب، ويحب.

شاعرة هذه الصغيرة، تحلم بالربيع، وبنزهة فوق مياه النيل، وأوراق الخريف تتساقط، فيكون لها حفيف موسيقى ذو نغم أخاذ، ومياه الجداول تنساب فى رقة، وخرير الماء على نافورة من مرمر! والضوء الخافت الذى يخدر الأجسام، والموسيقى الهادئة التى تريح الأعصاب، والشعر ينساب كأنه ماء عذب يداعب أقدام حسناء جالسة على حافة نهر الخلود..

شاعرة هذه تحلم بهذه الأشياء، ولا ترتبط بالواقع أبدا.

الأخـريات كن واقـعـيـات.. يبـحـثن عن كل شئ واقـعى.
الخيال شئ لا يكفيهن، ولا الأحلام. وإنما الذى يبحثن عنه،
هو أن يجدن وقتا طيبا جدا، يأكلن فيه ما يشأن، ويشربن
حتى يسكرن، ويتركن أنفسهن فى أحضان محمومة بالرغبة،
وينصـهـرن فى بوتقـة تلتهب بالنزوة، ويفقن آخر الأمـر على
الحـقـيـقـة بعـد أن تكون أجـسـامـهن قد اسـتـراحت من ذلك
الشئ المؤلم الذى يبدد منهن الفكر والخيال جميعا.

هذه شئ، والأخريات شئ.

وثريا كانت تعمد إلى الأسراف فى الخيال والاحلام.

كان هذا هو المهرب الوحيد، الذى تنجو به من مخالب
الواقع.

كان لا بد لها من تمثيل دور العاشقة الولهانة، التى تحلم
وتحلم، ولا تفيق من حلم إلا لتحلم.

المادة لا تهمها.

الواقع ينفرها من الدنيا..

الحقيقة شئ مزر بكرامة الانسان وبكرامتها..

أن تنهل من معين لا ينضب، وتغترف من فحولة رجل كما
تشتهى، فذلك شئ بشع وحقير، وغير أخلاقى. إنما الأخلاق

عندها هى أن تحلم بالحب، وتحب بالأحلام.. تقرأ الشعر، وتتغزل فى الرجل الذى تهواه، وتسمع معه أحلى النغم، وتعبر له عن نفسها بكلمات خافتة، فيها همس ونجوى.

عندئذ يجد الرجل أنه أمام نموذج من الفتيات مختلف.

قد يرى فيه جنونا.. ربما.

وقد يرى فيه شذوذا.. ربما.

وقد يرى أنه يسرف على نفسه، وعلى عواطفه.. ربما.

لكن المكسب الذى تكسبه ثريا من وراء ذلك، أن تبعد حنفى بيه عن نفسها، فلا ينزلق معها إلى ماديات صاخبة، تعجز عن تفسير الامتناع عنها.

وهى قد أقبلت إليه، وهى تطوى قلبها على حب آخر عنيف وقوى.

وحتى لا يتعارض الحبان، مثلت عليه دور الشاعرة، الحالمة، عاشقة الكلمات لتبقى حبها لعونى على ما هو، من العنف والقوة.

●●●

وشعر حنفى بيه أنه أمام حالة خاصة..

ودفعه هذا الشعور إلى نوع من الحذر منها، فأخذ يراقبها ويلاحظ كل حركة منها، وكل إشارة، فقد تكون مدسوسة عليه.

لكن ثريا كانت من البراعة فى التمثيل حتى بدت عواطفها كأنما هى حقيقة. كانت تخاطبه، كأنه عونى، كانت تغمض عينيها لترى عونى فى مكانه، فتنطلق تتحدث إليه بلهجة شاعرة، تتملكها الصبابة، ويستبد بها الوجد.

●●●

أنت.. من أنت؟ هل أنت ذلك الرجل الفارع؟

بل أنت من أنت، ملاك هبط علينا من السماء

فى يدك صندوق مغلق مسحور.

وفى الصندوق كمية من السعادة لا تنفذ

وللسعادة طعم ولها كذلك رائحة.

وهؤلاء الذين يريدون أن يغترفوا من الصندوق، عليهم أن يعرفوا أنه للموعودين، لا للطامعين، ولا للسفهاء..

حتى اللواتى يردنه، يجب عليهن أن يرتفعن إليه.

إنه فى يدك، لكن أصله فى السماء.. فوق السحاب.

أترى هذا معى؟..

حنفى بيه.. هلا تراه معى؟

●●●

وكان حنفى بيه يسمع هذا الكلام، ويهز رأسه عجبا مما يسمع! ماذا تريد هذه الفتاة منه؟ هل صحيح تحبه؟ هل صحيح تراه حارس صندوق السعادة الذى تتحدث عنه؟ هذه شئ عجيب!! عجيب!! عجيب!!

●●●

فى الفجر، أو قبل الفجر بقليل. فى السحر، والحقيقة لا تزار فى ظلمات تتكسر أمام أعمدة النور، وقت الغسق.

وعندما يكون الندى قد أخذ يتساقط فوق أوراق البرسيم.

وعندما يكون الناس نياما يحلمون بالمنى.

وعندما تلتف ساق على ساق، دون عمد أو رغبة.

وعندما تربت أم على خد رضيع لتحمله بعطفها على أن ينام.

عندما أراك يا فارس أحلامى تدخل على، وعلى شفتيك ابتسامة تضئ حياتى، مثلما تضئ أعمدة النور ظلمات السحر، وقت الغسق، لتبين الحقيقة من الزيف.

عندما فقط أعرف أنك تحبنى. إن الذى يدرك سر هذا الوقت، يعرف الطريق إلى الحب.

●●●

ولا يدرى حنفى بيه ماذا تقول!!

ما هذا الذى تقوله هذه الفتاة؟!

أهو صحيح؟ أهذا شعور حقيقى وصادق؟ أم أنها تخدعه بهذا الكلام؟ لكن الكلام يبدو رقيقا.. وشفافا.. وساحرا. إذاً فلا بد أنه صحيح!! ويغمض حنفى بيه عينيه من الحيرة!!

●●●

يا مالك جسدى أنت.. يا أميرى.

يا متعة روحى، وسر وجودى.

أنت معنى عميق فى وجدانى. أنت سرى. أنت عمرى.

نعم وأنت ماض أتوق إليه، كما أنك حاضرى، ومستقبلى.

أنت وأنا والدنيا حولنا، قد صرنا جميعا نوعا من تاريخ عزيز على البشرية.. تاريخ يروى، فى لذة ونشوة واستمتاع.

تاريخ الحب هو دائما هكذا يمتص كأنه قطعة حلوى فى فم طفل، لم يفطم عن الحلوى بعد.

●●●

وكانت هذه ألفاظ جديدة على آذان حنفى بيه. لقد سمع طول حياته كلاما آخر. النساء الأخريات كن يقلن له كلاما آخر، يثير رجولته، ويوقظ فيه النزوة ولكن هذا الكلام جديد عليه، يخدره، ويصرف عنه الشيطان الذى يدق فوق غريزته يطالبه بممارسة قواه!!

هذا كلام لذيذ.. لذيذ جدا. هادئ، ولذيذ يا ثريا يا جميلة يا فاتنة.

وشعر حنفى أنه على أبواب مرحلة جديدة.

هل يحبها؟ هل يقع فى الشئ الذى عاش حياته يقاومه؟

أنت رجل بوليس يا حنفى. أنت أيضا رجل مباحث، وقد وضعتك ظروفك فى مكان حساس جدا بين جميع السلطات. ومثلك يا حنفى لا يجوز أن يتحكم فيه شئ. والحب شئ فوق طاقتك. لو أحببت يا حنفى، فإنك ستقع على وجهك. وستتكفئ دون أن تدرى. وستكون كل أسرارك مكشوفة ومعروفة، وعندها سيكون الويل لك.

وأخذ حنفى بيه يواجه حيرته بهذه الأسئلة، ويرد عليها بألوان مختلفة من الإجابات.

لكنه أخيرا ترك نفسه للأيام.

من يدرى؟! قد يكون فى هذا سعدك.

فأين يكون فيه قبرك؟

سيكون قبرا لذيذا، مع هذا!

●●●

ثريا كانت تلتقى بعونى فتحكى له خطأها.

كانت كذلك تكرر على آذانه بعض ما كانت تقوله لحنفى بيه.

وكانت تؤكد له أنها تتصوره هو فى مكان حنفى بيه.

لكن عونى قد كان رجلا. كان إنسانا. الفدائى أيضا رجل وإنسان. والفدائى كذلك يغار.. يغار إلى حد الجنون فى بعض الأحيان.

●●●

لكنك تعرف كيف أحبك.

وأعرف كذلك أن الحب كائن رقيق وحساس.

ولهذا فهو معصوم، ومحصن.

وقليل من الهواء يقلب كيانه.

هذا غير صحيح يا عونى.

وصحيح أنك تقابلين رجلا كل يوم، وتجلسين أمامه فى كرسى وثير، وحولكما ضوء خافت وموسيقى وتتغزلين فيه فى همس. ووجهك فوق كتفيه.

هذا كلام.. كلام.. كلام.

●●●

لكن ثورة عونى لم تكن تحول بينها وبين الواجب الذى تحملت مسئوليته أمام اليهودى الجبار المشوه، وأمام الفدائيين من الزملاء.

وبينما كان عونى يناقش، ويتعرض لما يتعرض له العشاق من الغيرة والشك والخوف معا، كان الفدائيون يرون فى ذلك رأيا مختلفا.

وكانت ثريا قد نجحت فى تسجيل أشرطة مختلفة.

وسمعها الفدائيون، قبل أن تتصرف فيها. واتجه الرأى إلى تقسيمها إلى أنواع. أما النوع الذى تحمله ثريا إلى

اليهودى، فقد كان هو ذلك الخاص بالسلوك الخاص، من أنواع الغزل على اختلافها فذلك يمكن أن تحمله إليه، ليمسك به..

.. وعندما أثير رأى بأن ثريا تستطيع أن تفلت من رغبته بأى سبب من الأسباب قيل أن ذلك سيثير شك اليهودى. إنه ليس سهلا، ولا هو ساذج، حتى يتصور انها عجزت عن أداء مهمتها نهائيا.

وحملت ثريا هذه الأشرطة إليه.

وأدار اليهودى الأشرطة ليسمعها.

وكانت ثريا معه وحدها، والشريط يدور بالغزل. مرة مع ثريا، ومرة بين حنفى بيه وسيدات أخريات.

وشعرت ثريا بشئ من الغيرة، وأحست فى بعض اللحظات أن الدماء تغلى فى رأسها.

وعاشت لحظات بين الغيرة ولوم النفس.

نعم؟. خير؟

أما أن تغار، فتلك طبيعة المرأة فيها.

لكنها سألت نفسها: هل تغار المرأة من واحد لا تحبه؟

وكانت تجيب عن هذا السؤال، بأن ذلك جائز.. جائز جدا. ولم لا؟ إنها تغار لمجرد التعبير عن طبيعة المرأة فيها.

أم أنها تغار بالمعاشرة. قد لا تحب المرأة واحدا تعاشرة، لكن أن تعلم أنه على علاقة بواحدة ثانية، وأنه يبادلها الغزل، فتلك قضية أخرى. إنها عندئذ تنسى أنها لا تحبه، ولا تعود تذكر إلا أنها امرأة، وإنه رجل وأن بينهما علاقة، وعشرة، وإنه رغم هذا يتغزل فى واحدة سواها. إلا أنها أحلى؟ إلا أنها أجمل؟ إلا أنها أرشق؟ هذه شهادة ضدها لا لها، وذلك يكفى لتغار..!!

وكان اليهودى يسمع هذه الأشرطة، وهو يهز رأسه سعيدا بها.

لكنه كان يضيف إلى ذلك أنه لا يزال ينتظر الأشياء الأخرى. الأسرار، وصفقات السلاح، والعلاقات بين السراى والسفارة والزعماء، ومؤامرات الأحزاب ضد بعضها البعض، والذين يتناولون أموالا لا حصر لها فى المصاريف السرية.. هذا لازم وضرورى، وأنت يا حلوة تقدرين على أكثر منه.

وكانت ثريا تهز رأسها وهى تؤكد أنها تعمل ما تستطيع.

لأ .. أنت تقدرى.

أنا عليه أسجل بس. أسجل اللى يحصل.

يعنى إيه؟

يعنى أنا مش بخلق الحوادث. أنا بس أسجلها.

يعنى عاوزة تقولى أنه مبيشتغلش؟؟ اترفد؟!

ماليش شأن بالكلام ده.. هو ده اللى بيجرى قدامى.

يبقى أنت بقه اللى مش عاوزة تسجلى عليه حاجة.

زى إيه؟

زى اللى بقول عليه.

مبيتكلمش عن الحاجات قدامى عشان أسجل له.

لكن مش معنى كده إنه مابيتكلمش عنها خالص. من وراك لازم بيتكلم وبيتناقش.

جائز. أعرف منين؟

ما هو لازم تعرفى. لازم تتدخلى. لازم يثق فيك لدرجة إنه ميخافش يتكلم معاك.

ازاى؟

لأ يا شيخة؟. منتش عارفه ازاى؟

●●●

وكانت ثريا تعرف كل ما يطلبه الخواجة. كان عندها تسجيلات من كل صنف. مكالمة من السراى، ومركز الوزراء، ومكانة كل منهم، والعمر المقدر له فى الوزارة. ثم الصفقات التى يعقدها كل وزير، والهدايا التى يقدمها، والنهب الذى ينهبه من الخزانة العامة، والمحاسيب الذين يعينهم، والاتفاقات التى يعقدها، والسرقات التى تتم باسمه ولحسابه.

كل ذلك وغيره، كان مسجلا عندها فى عديد من الأشرطة.

شريط يحدد مواعيد تحركات الجيش إلى فلسطين، وشريط يروى صفقات السلاح المغشوش وأسعاره، والمستفيدين منه، والعملاء الداخليين والخارجيين والمراسيل بين الداخل والخارج، والشنط الحريمى التى تحمل مكاتبات وعقودا، وأخبارا خطيرة أخرى.

وشريط يحدد أسماء رجال الاحزاب ممن يقبضون. يستفيدون ويقبعون، بينما يقولون كلاما عنيفا ضد الذين

يقبضون منهم، داخل البرلمان وتحت القبة! وشريط يروى برنامجا لكتابة عديد من المقالات فى الصحف، تهاجم هذا وتهاجم ذاك، لتخفى فى غمرة الهجمات نواياها الحقيقية، ثم تجر الرأى العام إلى ما يهدف إليه البرنامج من معتقدات.

لازم الناس تثق فيهم الأول.

طبعا، عشان لما يقرأوا لهم حاجة بعد كده يأخذوا كلامهم جد.

عشان كده لازم نفوت شويه. يشتمونا.

مش كفاية.

أمال إيه تانى؟

لازم ينشروا وثائق ثقة الناس فيهم.

بس جايز يستطعموا الحكاية ويدقوا عليها على طول.

ميقدروش.

إزاى؟ ما هم حيكسبوا ثقة الناس ويوزعوا الجرايد.

ويعيشوا من التوزيع؟

طبعا.

التوزيع بيخسر يا باشا. الألف جرنال بثلاثة جنيه. يعنى حيوزعوا كام.

خمسين ألف.

مائة فى اليوم يبقى ٣٠٠ جنيه.

طب عال. وده شوية؟

جدا. الجرنال يتكلف قد كده مرتين.

طب أمال بيعيش منين؟

من الإعلانات أو المصاريف السرية.

والمصاريف السرية...

فى إيدينا.

طب الإعلانات...

برضه فى أيدينا يا باشا. هم مين اللى فى أيديهم الإعلانات؟

الشركات.

ومين أصحاب الشركات.

على رأيك.

●●●

وأشرطة أخرى كثيرة مختلفة.

الوزير الذى اتفق على دفع ديون بريطانيا دون انتظار لخصم ديونها من هذه الديون. وصور المسألة على أنها كرامة وطنية.

والوزير الذى أصدر قانون اللغة العربية، وضرورة معاقبته على وجه السرعة.

وكيف يستطيع وزير أن يشترط القراءة والكتابة لأى عامل فى الحكومة والشركات؟! بينما كل عمال الشركات الأجنبية لا يقرأون ولا يكتبون؟! هذا جلف لم يراع الأصول، ويهمه إحراج الشركات الأجنبية!!

وذلك الذى يتحدى الشركات المحتكرة، ويزعم أنه سيكسر هذا الاحتكار، كأنما البلد بلده، والأمر أمره!!

والخطب النارية التى تتردد هنا وهناك ضد مصالح بريطانيا العظمى!!

كل ذلك كانت ثريا قد حصلت عليه، لكنها جلست هى وعونى يستمعان إليه وهما يعجبان للطريقة التى تدار بها أمور البلاد!!

وكانت ثريا تستكثر أن تذهب بهذه الأشرطة إلى الخواجة.

الخواجة إرهابى، وهو يعمل لحساب جهات خطيرة.

وهذه المعلومات ستفيده فائدة عظيمة.

وسيعطلينا عنها ما أشاء.. ما أشاء.

وسيذهب حنفى بيه فى داهية طبعا.

أبدا. إن مصلحته ستضطره إلى إخفاء المصدر ليستفيد، أو لتستمر فائدته من هذه اللعبة الخطيرة.

هذه الأشرطة يجب أن تبقى فى طى الكتمان.

وستكون فى أيدى الفدائيين آمنة.

فإن أفادوا منها فللصالح القومى، لا للإضرار بالبلاد.

صحيح. هذا أصوب.

وينجو صاحبك حنفى بيه.

يا عونى.. أفتظن أنى أحبه؟

العشرة يا ثريا..

وأنا التى خاصمت أسرتى وأهلى من أجلك؟!

ثريا .. أنت...!!

عونى.. وأنت...!!

●●●

وفى ذات يوم، بينمـا كـانت ثريا فى منزل حنفى بيـه وحدها لم يكن أحد سواها. لا الخادمة ولا الطباخ، ولا أحد بالمرة. خطر لها أن تقلب فى بعض أوراقه الخاصة لترى ماذا وراء هذا الرجل.

هذا الصديق، والعدو!!

هذا الأخ، والخصم!!

هذا العاشق للروح، والذائب فى الجسد!!

.. هذا الانسان المتناقض ما هو؟ وماذا يكون؟ هل هو شرير إلى حد الشيطنة، أم أنه خير إلى درجة الملكوت؟!

هل هو غبى وبليد وجبان. يخاف الناس، ويعمل كل ما يستطيع لينجو من الأذى؟ أم هو ذكى ولماح، وقادر أن يلعب بالبيضة والحجر؟!

.. لكنها توقفت قليلا، قبل أن تمضى تعبث بالأوراق.

نعم توقفت لتسأل نفسها:

لكن لماذا أنت وراءه يا ثريا؟ هل تراك أحببته دون أن تقصدى؟ هل تكون العشرة قد أثرت فيك؟ هل يكون عونى محقا، وهو يتحدث عن شكوكه؟

لكنها على كل حال، لم تتوقف عند هذا طويلا، ومضت إلى الأوراق تفحصها، لترى ماذا فيها، وأى صنف من الرجال هذا الضابط بالتحديد؟

وكانت تخشى أن تجد فى هذه الأوراق ما يحملها على أن تكرهه!!

إنها لا تزعم أنها تحبه، لكنها لا تريد أن تكرهه!!

●●●

هذه ورقة.. وهذه.. وتلك.

ومجموعة صور هنا، وأحجبة، ولفف بخور من السيد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقى وسيدنا الحسين، والسيدة زينب.

.. ياه!! أنت أيضا صوفى يا عفريت؟!

وهذه اللفة ماذا فيها. إنها محفظة من الجلد الفاخر الأخضر، تضم أوراقا. لا بد أنها تضم أوراقا.

وترددت فى أن تفتح المحفظة. قد تكون فيها عقود تمليك لأرض أو عقارات!! وقد تكون فيها خطابات غرام!! وقد تكون مراسلات سرية للغاية!!

ولم تستطع أمام الفضول الذى سيطر عليها أن تمنع نفسها عن أن تفتحها.

لكنها ما إن فتحتها حتى شبت على قدميها..!!

ما هذا؟ ما هذه؟ ما تلك؟

يا خبر يا ثريا؟!

وأنت التى أخذته على أنه كرباج لكل عهد، وسلاح لكل حزب، وسيف لأى صاحب سلطان!!

وأنت التى دخلت بيته لتوقعى به، ولتحصلى منه على ما يودى به وكان يمكن أن يقضى عليه.

حنفى بيه.. هو هذا؟!

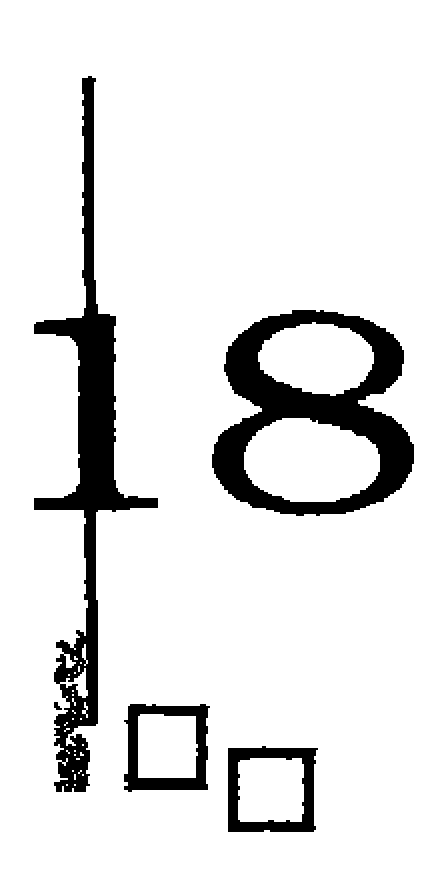
ما أعجب الانسان، وما أغرب ما يظهر به فى بعض الأحيان!

بل وما أعجب هذه الدنيا، عندما تضع على وجوه الناس أقنعة تخفى بها حقائقهم!!

بل ما أعجبك يا زمن، عندما تحيط ناسا بالريب والشكوك. وآخرين بالثقة والاحترام، والله وحده يعلم حقائق هؤلاء وأولئك!!

وما أعجبك يا مصر، وأنت تعبرين هذا الجسر من الزمان والمكان والموضوع إلى غايتك.. إنك تتعرضين لكل ما تتعرض له أمة من تناقض واضطراب، فيظهر فيك اللصوص قضاة، ويظهر القضاة سفاحين، ويبدو السفاحون أبطالا، والأبطال الحقيقيون تنز الجروح من قلوبهم دماء، ودماء الأحرار قد تضيع بين تصفيق المخدرين. والمخدرون قد يرفعون العملاء، والعملاء قد يستعذبون التضليل. والتضليل إن بدأ فى أمة، فان له دائما إمتدادا فى كل فرع من الفروع حتى العلم، ويصل الأمر فى النهاية إلى أن يختلط الحابل بالنابل، ويصبح رجل المباحث هو الفدائى ويسعى الفدائى إلى رجل المباحث يسترق السمع عليه، ويسجل له نقائصه، ويجمع فضائحه فى شريط، والشريط سلاح، والسلاح مدمر، وحنفى بيه لا يدرى من ذلك كله شيئا!!

□□□



كانت هذه مسودة خطاب أرسله حنفى بيه الى صديق مجهول، ولا شك أنه حرص على ألا يكتب اسمه، حتى يظل هذا الاسم سرا مكتوما عن السلطات، فى أية حالة من الحالات.

المسودة تقول:

صديقى وأخى...

لم تراسلنى من فترة طويلة، الأمر الذى أقلقنى عليك، ولم أتمكن من الاتصال بك أو بزملائنا إياهم، لأعرف شيئا يطمئننى عليك. واخيرا جاءنى رسولك يحمل منك رسالة عتاب قاسية!! ولولا أنى أعرفك وأعرف الرسول، ولولا تاريخ طويل مررنا به معا عبر سنوات عزيزة وغالية. لولا هذا لشككت فى الرسالة والرسول.

لكننى أعرفك، وأعرف عنك سرعة تكوين الآراء فى كثير من الأحيان. ولقد كنت يا صديقى فى رسالتك، متسرعا على عادتك.

هل أنا صحيح رجل بوليس سياسى أمسك فى يدى كرباجا، وأضع على عينى منظارا أسود، وفى جيبى جهاز تسجيل أتسمع به على الشرفاء لأوقع بهم؟ هل أنا تاجر أحرار، أبيعهم، كما يباع العبيد فى سوق النخاسة، لفريق من الجلادين؟ هل هذه صورتى عندك ياصديقى؟

وهل أنت، هو الذى يقول هذا عنى؟ أنت صديق عمرى، وشريك صباى تقول هذا عنى؟ تقول هذا وأنت تعرف أنى دخلت البوليس من أول الأمر تنفيذا لإتفاق شاركنا جميعا فى وضعه. وكان لى قريب عزيز ساعدنى، ثم ألحقنى معه فى البوليس الذى أستطيع منه أن أمارس دورا خطيرا لو انكشف، لذهبت بسببه الى المقصلة.

أنت يا صديقى تعرف هذا، فهل تراك نسيته؟. أم أنك أنسيت؟

ثم ألا تذكر ماذا فعلته لك، ولزملاء آخرين كثيرين؟ ألم أتعرض لاحتمالات مختلفة وخطيرة، لأحمى الفدائيين من

بطش السلطة؟ ألم أدرأ كثيرا من تصرفات أنت تعلم خطورتها، لتتم على الوجه الذى يحقق مصلحة الوطن، ولقد قمت بالفعل، والبوليس مشغول عنها بما تصور أنه أخطر تنفيذا لما كنا نتفق عليه؟

بعد هذا وسواه تقول عنى أنى تاجر؟! أقدم الأحرار للبطش؟

لماذا؟ لماذا أيها الصديق؟ لأثرى على حساب الشرفاء؟ ألكى أغتنى ألكى أرتقى وأنال ما أتمناه؟ أنت تعرف يا صديقى أنى لا أسعى وراء مال، ولا مركز، ولا سلطة، ولا نفوذ. أنا أسعى وراء ما تسعى وراءه أنت وسنواك من زملائنا الأحرار الشرفاء الوطنيين، كل بالأسلوب الذى يستطيعه، بالطريقة التى تضمن له حرية العمل، دون أن تنكشف أعماله، حتى يستمر العمل الفدائى دائما ويظل متصل الحلقات، ليصل المحتل فى النهاية إلى الاعتقاد بأن بقاءه مستحيل، وأنه لا يعرف من أين تأتيه الحرب، وأين يكمن له الخطر. وعندما يصل المحتل إلى هذا، ويؤمن أن السماء تحاربه، والأرض تحاربه، والنسيم يحاربه، والظلام يحاربه، والنور كذلك يحاربه. عندئذ يصبح عليه أن يرحل.

ألا تزال تؤمن بما أرسلته لى؟

ألا أزال فى نظرك تاجر حريات؟! وسمسار شرفاء؟

.. يا صديقى أنا رجل غنى، ولا أريد مزيدا من المال، ثم يحسدوننى عليه.

وأما الجاه، فأنا أوجهه لما تعلم من أهداف.. وكذلك أفعل بما لدى من سلطات؟

لا أدرى هل أمضى، أم أن أنوى أن أحاسبك، وما هذا إلا عتاب صديق..

●●●

ثم وقع.. دون توقيع.. وضع إشارة بسيطة لا تحمل معنى، وكانت هذه الإشارة فى مكان التوقيع.

ألم يرد عليه صديقه هذا؟

هذا رد واضح وصريح.

●●●

أنت أسرفت كثيرا فى فهم رسالتى إليك. لم تكن هذه الرسالة أكثر من غطاء لعملية سأشرحها لك عندما نتلاقى.

لكنك يا رجل البوليس يا محنك يا صاحب التجربة، قد فهمتها على عكس ما تحمله فى الحقيقة، وتصورت أنى أتهمك.

أنا يا صديقى وأخى أتهمك، وأنا أعرف من تكون؟

لقد عشنا معا سنوات الطفولة والصبا والشباب. أكلنا معا، وشربنا ورحلنا وحططنا الرحال، ودائما كنا معا، فى الحل والترحال.

وعرفتك يا صديقى، وعرفت كيف تفكر، وكيف تحس الأشياء، وكيف تتصرف مع الناس، وكيف تواجه المشكلات، وكيف تحلها.

ولولاك يا صديقى، ما أحسست للدنيا طعما. أنت أخى وحياتى. أنت أقرب إلى من امرأتى وأولادى، وأنت قبل هذا وبعده، رفيق عمرى الذى لا أتصور للحياة معنى بدونه.

ثم أنت مع هذا بطل، تصرفاتك الجنونية فى خدمة العمل الفدائى، وتضحيتك بنفسك وبمنصبك وبأسرتك، وبالثقة الموضوعة فيك. كل ذلك شئ خرافى لا يكاد الانسان يتصور كيف تقوم به. وأهم من قيامك به، أنك تقوم به

وأعصابك هذه الهادئة مسترخية، كأن شيئا من الذى تعمله لا يحدث، ولا وجود له!!

أنت يا أخى غطاء من لا غطاء له. وسند من لا سند له. ونفوذ من لا نفوذ له. أنت رجل، وتقديرنا لك فوق ما تتصور.

إياك أن تتصور لحظة أننا نتشكك فيك. ولو حدث وأحرج أحدنا فاضطر إلى أن يسبك، فاعلم أن ذلك لضرورة، وأنه يحدث لخدمة العمل الذى وهبنا له أعمارنا. أنا نفسى اضطررت إلى أن أثير ريبة حولك ولأبعد عنك مزيدا من العبء قد يلقى عليك من جهة وطنية، لكنها لم تدرب بعد بالقدر الذى يمكن الاطمئنان إليه. أفهمت؟

المهم يا أخى وأبعد عنك الوساوس. أم أنك قد صرت حساسا أكثر مما ينبغى. تظن أننا نرتاب فيك، لمنصبك؟ أبدا يا صديقى هذا غير صحيح، والصحيح أن كل هذه وسائل مقصود بها إبعاد الشبهات عنك. ألا تكفى أثقالنا على كتفيك. أنزيد من الحمل عليك، بينما نريد التخفيف عنك؟

المهم أن تثق دائما أننا نحبك ونجلك ونحترمك ونعتمد بعد الله عليك أيها الأخ الصادق والصدوق والصديق جميعا.

●●●

وعضت ثريا على شفتها السفلى، وهى تتطلع فى الأفق حائرة لا تدرى من أمرها شيئا.

هو إذاً واحد منا!! ليس بالضرورة فى تنظيمنا المحدود، ولكنه ليس مع السفاحين على كل حال. احتل مركزه هذا، ومنه نظم أسلوب عمل رائع ليلعب على كل الأطراف، ويوازن بين كل الجهات، ليكون الأمر فى النهاية فى يد الشرفاء من الفدائيين...

ياه...!! وتبدو على صورتك هذه المستهترة، غير عابئ بشئ؟!

أنت إنسان غريب يا حنفى بيه.. ولعلك مثل وحيد لا يتكرر!!

●●●

وأخذت ثريا تقلب فى الأوراق، وتتأملها ورقة ورقة، وهى شديدة الإعجاب بذكاء حنفى بيه، وبذكاء التنظيم الذى ينتسب إليه.

وفجأة، شعرت بحركة أقدام فى الشقة.

وذعرت.. أهو حنفى بيه، الذى جاء فجأة؟

سيضبطها إذاً، وسيعرف أنها كشفت سره!!

وبينما هى تحاول أن تخفى الأوراق كلها بعيدا، سمعت صوت اليهودى خلفها.

برافو برافوا!.. هذه هى الشطارة، إن شاء الله تكونى وجدت مستندات تستحق. العواطف هامة، لكن أهم منها الوثائق التى بين يديك.

وشعرت ثريا أنها تواجه إمتحانا خطيرا.

لم تفكر فى شئ عن دخوله، وكيف وصل إليها، وفى وقت ليس معها فيه أحدا، فى شقة حنفى بيه.

الذى فكرت فيه، أن هذا هو العدو الحقيقى الذى يجب أن تخفى عنه هذه الأوراق، وان عليها أن تحمى حنفى بيه من هذا الرجل المشوه.

صاحت تقول له فى وجهه:

ابعد عنى.. ابعد أيها الرجل.

ابعد.. لابد أنك تمزحين.

أنسيت من أنا؟

من.. من تكون؟

أنا صاحب العمل الذى تقومين به.

ليكن.. هذا لا يعطيك حق الدخول على بهذه الصورة.

بل أنت هنا من أجلى، وتنفيذا لأوامرى. هذا حقى، هذا عمل؟!

لا.. للعمل مكان.

وهذا مكانه..

فى البنك.

وهنا، وفى أى مكان تقبضين مرتبك لتذهبى إليه.

المرء لا يتقاضى مرتبا عن مكان إقامته.

وهل هذا مكان إقامتك يا حلوة؟

نعم مكان أقامتى.

منذ متى؟

منذ تزوجت حنفى بيه.

●●●

وارتج على اليهودى المشوه، وتراجع قليلا من تأثير المفاجأة ثم تمالك نفسه، وتقدم نحوها فى أدب شديد وهو ينحنى لها.

●●●

مدام.. اسمحى لى أن أقبل يدك، تحية تقدير لمواهبك.

شكرا.. لا داعى لهذا. التحية وصلت بلا سلام أو تقبيل أيدى.

بل لا بد من أن أصافحك.

انتظر إذاً حتى يحضر زوجى.

بل نحن أصدقاء.

كنا أصدقاء.

والآن؟

لم نعد أكثر من صاحب عمل، وموظفة فيه.

والسر الذى بيننا؟

ليس إلا عملا أقوم به.

لكنه يتصل بزوجك.

لا.. بل يتصل بالضابط الكبير حنفى بيه. زوجى لى وحدى، وحياته الخاصة ليست مما يخصك.

والرهن يا مدام.

كان زمان.

هذا خروج على الاتفاق.

أى إتفاق؟

نسيت يا مدام؟

بل صارت على واجبات أهم.

أهم من عملك. من شرف الكلمة الذى ارتبطت به.

لم يعد هناك أهم من زوجى.

ليكن... لكن هذا شئ، وهذا شئ.

فإن تعارض هذا وذاك.

أنا متمسك بالإتفاق.

وأنا سأحمى زوجى. سأحمى أسرار زوجى.

يا مدام.. هذا ليس واردا فى الاتفاق.

من فضلك، اخرج.

اخرج!! أنت متصورة أن الخروج على الاتفاق سهل؟

قلت اخرج.

لا ترفعى صوتك، فإن أحدا لن يسمعك. البواب تحت يمنع أى واحد من الإقتراب حتى أفرغ من مهمتى.

معنى هذا أنك تهددنى!!

طبعا.. وسأنفذ ما أهددك به. هات هذه الأوراق، وإلا قتلتك.

●●●

وأخرج من جيبه مسدسا، وصوبه نحوها.

وحاولت هى أن تعثر على حقيبتها لتواجهه بمسدس كمسدسه لكنّ فوهه مسدسه كانت تمنعها من الحركة.

وفجأة سمعت طلقة.

وكان مصدر الطلقة مدخل الشقة.

وظهر حنفى بيه خلف اليهودى، الذى أسقطت الطلقة مسدسه من يده، فارتبك ارتباكا شديدا، وهوى على الأرض يلعق مخاوفة!!

وفرغت ثريا من حكايتها، وحنفى بيه ينظر إليها فى إعجاب.

ثم قالت فى همس:

تسامحنى بعد هذا كله؟

علام أسامحك؟

على ما فعلته فيك.

لم تكونى تفعلينه إلا لعمل أكبر.

يعنى تسامحنى؟

بل وأشكرك.

لكنى خدعتك.

أبدا. كنت أعرف ماذا تفعلين، ولمن؟

يعنى أنا كنت مغفلة!!

استغفر الله العظيم!

وماذا تنوى أن تفعل؟

بمن؟

بابن الأبالسة المحبوس فى حجرة السفرة؟

ستعجبين مما سأفعل.

وماذا.. إياك أن تقول أنك ستطلق سراحه؟

وهذا ما أنوى أن أفعله.

مستحيل. سيقتلنى.

لن يستطيع. اطمئنى.

ولماذا تفعل هذا.

لأنى لم أفرغ بعد من تحرياتى عن زملائه الإرهابيين.

وتطلق سراحه لهذا السبب؟

طبعا.. لا بد.

وأنا؟

تصبحين زوجتى. أعنى تستمرين زوجتى.

لكن..

أعرف.. وعونى؟ أليس كذلك؟

نعم.. ماذا يكون موقفه؟

عونى بطل، وهو أكبر من هذه المواقف.

لكنه إنسان، ويثور من أجل حبه.

سيقوم بالمهمة من يستطيع أن يشرح له الامر تماما.

ولا أذهب إلى البنك؟

بنك الرهونات؟

بل تذهبين، فقد يكون عونى محتاجا إليك.

وأعمل.. إيه؟

شغل البنك.

أنت لا تعرف ماذا يعمل البنك.

عارف كل شئ.

عارف الأشرطة؟!

طبعا، والاسطوانات، والصور، والخطابات. كله عارفه.

وهل هذا هو عمل البنك؟

اليهودى المكار استغل ثلاثة أخوة يريدون أن يكسبوا والسلام، فكون ما سماه بنك رهونات، وحول فكرة الرهونات إلى سوق سوداء، للأسرار، وللخيانات، وللعيوب، ولنقط الضعف البشرى فى الإنسان، رجلا أو امرأة.

وماذا تسمى هذا؟

وماذا يعمل اليهود فى أى مجتمع؟ الإرهابيون الذين يحيون على حافة المجتمعات، منعزلين عن الناس، يتربصون بهم ويدبرون لهم المكائد، ويوقعون بهم. ماذا يفعلون غير تحطيم الأخلاق؟ إن لذتهم الكبرى هى فى تحطيم الأخلاق، والمجتمع الذى ينجو من تأثيرهم مجتمع يستحق أن يحاربوه! اليهود يا ثريا خصوم الأخلاق! إنهم وحدهم شعب الله المختار، ولكى يظلوا فى نظر أنفسهم شعب الله المختار، فعليهم أن يشوهوا سائر الشعوب الأخرى، لتستمر شعوب

الله غير المختارة منه سبحانه. لتظل شعوبا تابعة من درجة أدنى!! وهم من أجل هذا يدمـــرون الشـــعـــوب الأخـــرى، ويلوثونها، ويهبطون بها إلى الحضيض. هذه طباعهم، وهذه طبيعتهم.

يا ساتر يا رب.

هذا الأفاق المشوه، عضو فى تنظيم إرهابى خطير، يرتب لنسف الكبارى، وتحطيم المصانع، وتهديد الأبرياء، وقتل كبار الساسة العالميين فى هذه البلاد، ليسيئوا إلى الأمن فيها، ويظهروها بمظهر البلاد التى تسودها الفوضى، ويحكمها الإضطراب. بل ويريدون أن يظهروا هذا الشعب فى صورة شعب غبى متطرف، يكره كل شعوب الأرض، ويضطهدها، ويدبر لها الجرائم!! ولكى يصل هذا الأفاق إلى هذا كان لا بد من أن يتوارى وراء نشاط ما. ونشاط اليهود دائما فى الأعمال الدنيئة التى لا تحتاج جهدا، وتدر مالا، ويعزف عنها أصحاب المهن لوضاعتها كما يعزف عنها البسطاء، لأنهم لا يعرفونها. يبيعون أوراق اليانصيب، ويتاجرون فى الروبابيكيا، ولهم مع القمامة أدوار وأدوار!! وعندما يرتقون، يعملون سماسرة أو أصحاب بنوك للرهونات.

تمام.. تمام؟

وقد تعرف هذا المكار على الأخوة الثلاثة من القمامة، فلما وجدهم قد وفروا لأنفسهم رأس المال اللازم، وشعر أنهم يريدون استثمار أموالهم فى كل شئ يكسب مالا، بدأ فكرة البنك. وبنك الرهونات معروف. بنك اقتراض بالفايظ، ومقابل رهن. والرهن عادة مصوغ أو عقد تمليك. لكن اليهودى اخترع السوق السوداء، وبدأ يرهن الحاجة والمحنة والضعف!! وبهذا حقق لنفسه ولشركاته مكاسب هائلة، كما حقق هدفا من أهدافه وهو أن يحطم بهذه الصيغة الأخلاق. يغرى زميلا بزميل. يتلصص على المدير، ساعى مكتبه. يحرض الزوجة على زوجها، والأخ على أخيه! شئ رهيب هذا المشوه!!

●●●

وسكت حنفى بيه قليلا، ثم قال:

لا يهد المجتمعات إلا انهيار الأخلاق. مجتمع بلا أخلاق منهار. ويهود العالم يريدون أن يصلوا إلى عالم منهار، لا يسوده إلا هم شعب الله المختار! مختار! مختار لماذا؟ لقيادة البشر! لإذلال البشر! لبث الوقيعة بين البشر!! لخلق الفتن

والأزمات فى المجتمعات!! أمن أجل هذا صار هذا هو شعب الله المختار؟

وكانت ثريا وعونى فى مكتبهما من بنك الرهونات، يعرضان لهذه التطورات المذهلة، وكانا يظنان أنهما وحدهما. وكانت مناقشتهما تدور حول عدة مسائل، بعضها متكامل وبعضها متناقض، وبعضها متداخل، لكن هكذا كانت طبيعة الموقف المختل الذى وجدا نفسيهما فيه.

●●●

تزوجيه. فرصة!!

يا عونى لا تخلط المسائل.

ولم لا؟ هو على الأقل ضابط كبير.

وما شأنى به؟

وسيرضى به أهلك. سيرحبون طبعا.

أهلى قد صاروا خلف ظهرى.

لكن اللحم لا يخرج من العظم يا حلوة، ولا الدم يتحول الى ماء.

أنت مجنون.

واقمى.

لا تظلمنى.

خدمة وطنية. زواجه يصبح عملا فدائيا.

ماذا تقول أنت؟

وهو.. ألا يرحب؟

أنت تظلمه يا عونى.

دافعى عنه. لماذا تدافعين عنه؟

هل لا بد من أن أظلمه، لترضى عنى؟

أبدا. بل لا بد من أن تتصفيه ليرضى هو.

أنت لا تفهم شيئا.

هذه غيرة فى غير مكانها.

لا غيرة ولا يحزنون!!

أمال إيه؟

حوسة.. لا غيرة!!

يا سلام!!

●●●

لكن كيف تسلل هذا اليهودى إليك؟

يقول أنه إتفق مع البواب على كل شئ.

مع البواب؟ شئ غريب!

يعنى إذا كان دفعنا نحن إلى ما يريد، فهل يستطيع دفع البواب إلى تحقيق غرضه؟

على رأيك. وكان يريد أن يقتلك؟

كان عاوز الأوراق.. بأى شكل.

كان فاكرها ايه؟

صفقات سلاح مثلا.

وهو ليه مهتم بصفقات السلاح؟

عشان أهله اللى بيرتبوا فى فلسطين. عصابات شترن والهاجانا وغيرها. وغيرها. دول هناك ليه؟

عشان يستولوا على فلسطين.

لشعب الله المختار.

صحيح..

وهمه مش عبط. همه عارفين إن العرب حيتدخلوا.. أو عندهم معلومات إن العرب حيتدخلوا.

ومين عارف يمكن همه اللى يرسموا خطة استفزاز ليتدخلوا.

أهى دى غريبة شوية.

ليه غريبة.

لأن أسهل لهم يأخذوها بلا حرب.

همه مين.

الصهاينة.

بس وراهم مين؟

كل الإمبراطوريات القديمة.

بريطانيا مثلا، صاحبة وعد بلفور، وصاحبة كل الاجراءات التمهيدية اللى تؤدى إلى تمكين الصهاينة من فلسطين.

صحيح.

وبريطانيا يهمها كسر جيش مصر. معاهدة ١٩٣٦ لم تؤد إلى كسر جيش مصر، رفعت الروح المعنوية بين الضباط، وزاد الجيش، وارتفعت معنوياته، وبدأ يشعر بواجباته الوطنية.

يعنى خرج عن طوعهم.

وبدل ما كانوا راسمين إن الاستقلال يبقى شكلى، ويستمر الجيش تحت تصرفهم، اختلف الأمر.

مش قوى.

آ.. مش قوى. صحيح. لكن حتى ده مش على كيفهم.

وقصره خرج عن طوعهم.

مش بس كده، وساد الشعور بالعزة والكرامة.

ومعنى هذا.

إنهم يضربوا هذا الجيش قبل ما يكبر ويبقى خطر فى المنطقة.

وتبقى فلسطين هيه المقبرة اللى يدفنوه فيها.

وباسم الوطنية والقومية، وعودة السلام إلى أرض السلام.

وباسم حرب الصهيونية.

وبهذا يهم الصهيونية تعرف إيه حكاية السلاح والتدريب والجيش اللى حتواجهه ذات يوم.

لتقضى عليه.

وتحقق أمل الإمبراطورية الكبيرة فى بقاء مصر محتاجة لها دايما.

يا أولاد!!

●●●

طب مش نأخذ رأى زملائنا.

وفيه وقت؟

أيا كان الأمر. دا لازم.

وبعدين.. الرجل يظهر إنه اختفى!

وفين الوثائق؟

دا كلها اختفت.

والغريبة ما اهتمش إلا بالأشرطة والاسطوانات والجوابات.

يعنى خد معاه كل الفضائح.

وطبعا حيستعملها.

ويشوشر بيها على كيفه.

دا راجل خطير جدا.. إزاى قعد سنوات طويلة يدبر، ويرسم..

وضحك على شركائه.

استغل سذاجتهم.

لا وحبهم للفلوس والمكسب.

سد أفواههم بالفلوس، وعمل اللى هوه عاوزه.

طب أعمل إيه؟ نبلغ زملاءنا إزاى؟

عندى فكرة. بسرعة نبلغ حنفى بيه.

●●●

وكان حنفى بيه يضحك، وثريا تحكى الحكاية.

فلما فرغت قال لها أن كل المستندات عنده. الرجل المشوه حاول أن يهربها لكنه لم يستطع. كان تحت رقابة شديدة، فضبطت هذه المستندات جميعها، وتحفظ عليها.

وهو.. أين ذهب؟

فى الحجز.

قضية؟

جاسوسية!

مش كفاية.

●●●

ودق جرس التليفون، فلما تناوله حنفى بيه، بدت عليه الدهشة، وفزع للخبر الذى تلقاه.

وبعد أن انتهت المكالمة. كان الرجل قد صار فى حالة من التوتر الشديد، فأمسك بثريا من كتفيها وهو يقول لها:

هرب. اليهودى هرب. عندك حق. مش كفاية قضية!!

●●●

وبغير أن تضيع ثانية.. قفزت ثريا.. قفزت، وأخذت تعدو.

شئ كان يحدثها بأن وراء اختفاء اليهودى سرا، وأن هذا السر يتصل بحبيبها عونى.

وكانت تقفز وتجرى وصورة عونى بين عينيها.

- شئ يهدد عونى!

هذا المشوه هرب ليلحق بعونى الأذى!

إنه يريد القصاص! هذا جنس غليظ القلب، وبلا رحمة!

خلقهم الله بلا قلوب!! يقتلون ويسفكون الدم، وهم يضحكون!

ولم تجد ثريا عونى فى بنك الرهونات.

وجدت المعلم يس، وكان قد بلغ به العمر عتيا، ففقد البصر إلا قليلا، وصار أعمى، أو ربما أعشى.

وكان المعلم غالى قد مات.

والباقى، المعلم شعبان، كان بدوره قد ضعف وبلغ به الهزال أشده، فكان يقضى أغلب أيامه نائما تحت الرعاية والعلاج، ينتظر النهاية، فإن خرج، سندوه وكادوا يحملونه حملا، ليرى النور.. ويعود!

والأولاد الثلاثة سليم ابن المعلم يس، وسماح ابن المعلم غالى، وقمر الزمان ابن المعلم شعبان. الأولاد الثلاثة كانوا أغبياء محدوديس الذكاء، يسمعون وينظرون، ولا يفهمون!! كانوا يتطلعون كل منهم إلى أخيه، عندما يسمعون مناقشة عن البنك أو أملاكهم الكثيرة المنوعة، ثم يهزون رءوسهم فى انبهار وبلاهة!!

هذا لم يكن يعنى ثريا فى هذا الموقف على كل حال، وإنما الذى كان يعنيها أن تجد عونى. لكن عونى كان قد اختفى.

لا هو فى البنك، ولا من فى البنك يعرف عنه شيئا، أو يستطيع أن يدل عليه.

ولا هو فى مسكنه الصغير المتواضع.

ولا هو فى الكازينو الذى اعتاد أن يذهب اليه، يخفى شخصيته الحقيقية بين جوانب الهزل، وهزات الرقص، وغناء الفارغين!

●●●

أين أنت يا عونى؟ أين تكون؟

هل قتلك اليهودى المشوه؟ هل أصابك بالأذى؟

ولم تكن هذه التساؤلات لتجدى على أية حال.

وخطر لثريا أن تذهب إلى مسكن اليهودى المشوه. إنها تعرف إنه يسكن مكانا ما فى حارة اليهود، وإنه كان قليل الحديث عن مسكنه، ولم تعرف أن أحدا زاره فيه. لكن بعض مناقشاته، واتصالاته التليفونية، كانت تشير إليه.. وأخذت تستجمع كل ما سمعته عنه، حتى استطاعت بشق النفس أن تكون فكرة عنه.

وأسرعت إلى حارة اليهود.

واستدلت على المسكن من بائع متجول.

واقتحمت المسكن، فلم تجد أحدا.

.. ظلام! المسكن ظلام، كأنه مكان تتخفى فيه الخفافيش!

ورطب! المسكن رطب وقاتل، وتفوح منه رائحة مسمومة!

لكن لا بد أن يد إمتدت اليه، فنزعت أشياء من هنا وأشياء من هناك. لا بد أن الرجل المشوه، قد استطاع أن يأتى إلى مسكنه، لينتزع هذه الأشياء، ويهرب بها إلى حيث يريد.

وشعرت أن فى المسكن حركة.

وأخذت، فى هذا الظلام تبحث عن مصدر الحركة.

شئ ما يتحرك فى صعوبة، ولهذا الشئ نفس يتردد. إنها تسمع أنفاس مخلوق مجهدة، مع حركاته المهموسة.

ومشت على أطراف قدميها، وأخذت تتحسس طريقها فى حجرات متداخلة، كأنها تنتهى إلى مخبأ سرى محظور على البشر.

●●●

وفجأة اصطدمت بجسم.

وفزعت وصرخت، ثم انحنت لترى.

وكان الذى رأته هو عونى!!

●●●

ورفعت الكمامة من فوق فمه!

وصاح يقول لها: والباقى. فكى وثاقى. خلصينى.

ومضت هى تفك وثاقه وهى تعجب، ولا كلام.

ولما وقف، صاح فيها يقول:

إنى ذاهب إليه. لقد أخذ المجرم كل شئ، وذهب إلى عصابات الإرهاب هناك، فى فلسطين. ولا بد من أن أمنعه من استعمالها.

وكادت ثريا تمسك به.

لكنه كان أكثر اندفاعا إلى غايته.

قالت: هل تعرف طريقه؟

قال: طبعا. أعرف أعرف. ولن أعود إلا بهذه الوثائق. لن يتمكن هذا المجرم من استعمال هذه المعلومات ضد الأبرياء الشرفاء من المحاربين.

●●●

ولم تجد ثريا من طريق، إلا أن تذهب إلى حنفى بيه.

وفوجى حنفى بيه بهذه الأخبار، وهز رأسه وهو يقول:

بطل.. عونى هذا بطل. ربنا معاه.

وسكت قليلا، ثم أضاف:

على كل حال سأحاول بكل ما أستطيع أن أقدم شيئا، وإن يكن هذا يخرج عن دائرة عملى واختصاصى. على أنى سأتابع الموقف بكل ما أملك من وسائل.

●●●

وذهبت ثريا إلى البنك.

ووضعت عينا على عملها، وعينا على الأخبار الواردة عن اليهودى المشوه، والوثائق التى هرب بها.

وعندما دخلت الجيوش العربية أرض فلسطين، كادت ثريا تصيح:

لا.. لا.. لا قبل أن تتأكدوا من أن وثائق الارهابى العجوز لم تصل إلى رجال العصابات!

لكن هذا لم يكن صوتا يمكن أن يسمع بين دوى الهتاف.

●●●

وفى بنك الرهونات، كانت تتسلى. كان لا بد لها من أن تتسلى. ثريا كانت تصرف كل طاقتها فى عملها، لتبتعد عن كل هذه الهموم التى تثقل نفسها!

ولم يكن هناك يهودى مشنوه.

ولم يكن هناك عونى.. رائع.

كان هناك ثلاثة شبان، ورثوا هذا الميراث الكبير، ولا يعرفون كيف يتصرفون فيه.

وشعرت أن هذه مسئولية جديدة ملقاه على عاتقها.

.. لكن الأشرطة؟. لا!

الاسطوانات؟. لا!

خطابات الغرام؟. لا!

تجارة السوق السوداء؟. لا!!

استغلال الضعف والمحنة والحاجة؟؟ لا لا!!

بنك الرهونات يقتصر على الرهونات. على الأشياء المادية الملموسة!

لكنها وجدت أن المسألة وصلت إلى درجة الفايظ. وكانت تكره الفايظ، وهذه النسب القاتلة، التى تهيئ للبنك فرصة مصادرة ممتلكات المحتاجين.

وقـررت ثريا أن تـراجع مـخـازن البنـك. هذا المخـزون من الرهونات يجب أن يراجع مـراجـعـة كـاملة، لتـصفى الأعـمـال الجشعة التى كان اليهودي قد تخصص فيها.

●●●

وكانت المراجعة رهيبة.. رهيبة!

وجـدت أن كل رهـونات البنـك تؤول اليـه. وفـى الخـزائن اكتشفت كثيرا جدا من المصوغ، من كل صنف ولون. مصـوغ من الألماس، ومن الذهب، ومن الأحجار النفيسة النادرة.

وهال ثريا أن وجـدت بعضـهـا، وعليه كلمـاته إهداء رقـيقـة ومؤثرة.

.. إلى حبى الأوحد!

ذكرى عمر طويل رائع!

لعينيك النادرتين يا حبى!

ميلاد سعيد بك.. دائما!

أنت وحدك.. فى القلب!

●●●

ثم خواتم الزواج، ودبل الخطبة والزفاف، وعليها الأسماء والتواريخ. بعضها غال وثمين، وبعضها متوسط القيمة، لكنه عميق فى نفوس الذين كانوا يقتنونه ذات يوم.

وشعرت ثريا أنها تصادر عواطف الناس.

وهذا الإرهابى المشوه، صادر مشاعر الحب فى قلوب العشاق.

●●●

وبدأت تراجع الوثائق لتعرف من أصحاب هذا المصوغ.

ثريا قررت أن تبيع هذا المصوغ لأصحابه، صحيح لقد آل الى البنك، لكنه آل إليه بسبب العجز "بعد أن دفع أصحابه فيه أضعاف أضعاف ثمنه! البنك إذًا لن يخسر، ولن تتعرض ثريا لأزمة من أزمات الضمير. وهذه فرصة، و الصفار الثلاثة بلهاء لا يزالون.

●●●

واستدعت صاحب دبلة زواج.

كانت زوجته قد فارقته إلى رحمة الله. ووجدت أمامها رجلا فى المعاش يحيا على الذكريات، وصور الأمس، ولم

يعـد يملك من دنياه إلا بضع هدايا، وألبـومـا من الصـور، يرجع إليه بين الحين والحين.

قال لثريا:

أتصدقين! لا أزال أحتفظ بثوب زفافها. كانت حلوة امرأتى وقد عاشت معى على الحلوة والمرة، ولم تفكر ذات يوم أن تتركنى. ربينا أولادنا معا. لكن كانت مصروفات ابنى الدكتور غالية على، ولم أكن إلا موظفا محدود الدخل، فكان لا بد من الرهن، حتى دبلة الزفاف هذه رهناها، لندفع له آخر رسم، لآخر امتحان، وقالت لى زوجتى الذكريات فى القلب. فى القلب لا فى أصابع اليد، وصدقتها.. صدقتها وأنا أعلم أنها هى الأخرى كانت تغالط. كانت تريد أن تخفف على المأساة.

وسكت الرجل وهو يمسح دمعة انحدرت على خده، ثم قال لثريا:

لا تتصورين يا ابنتى أى جميل تسدينه إلى بهذا العرض السخى. أنا الآن وحدى. معاشى يزيد على حاجاتى. ابنى صار طبيبا غنيا ومشهورا. ولم يعد ينقصنى إلا أشياء صغيرة كهذه.

وتناول الرجل الخاتم، ووضعه فى إصبعه، ودموعه تتساقط على خديه.

قال: بكم؟

وكانت ثريا قد أخذت بدورها تشاركه البكاء فقالت من بين الدموع: هدية.

قال: كتر خيرك يا بنتى.

وكانت المفاجأة الأخرى أنها قدمت له خاتم زوجته. الخاتم الذى أهداه لزوجته ووضعته فى إصبعها، يحمل اسمه، وكانت بدورها قد رهنته من أجل الأولاد.

وأمسك الرجل بثريا، وأخذها بين ذراعيه، وقد امتلأت عيناه بالدموع وسدت الشهقات حلقه، لكنه مع هذا استطاع أن يقول لها: كأنها عادت اليوم!

●●●

ومرت ثريا بعدة تجارب إنسانية كهذه التجربة، وهى تصفى المخازن من هذه الأشياء. وكم من مرة وجدت صاحب الرهن قد مات، لكن أولاده كانوا أشد حرصا على استعادة هذه الأشياء ليحتفظوا بها للزمن، ذكرى عزيزة وغالية.

مرة واحدة وجدت ثريا نفسها أمام حالة ذات طبيعة خاصة.

كان الراهن قد مات، وترك ساعة نادرة. وطلبت زوجته، وكانت عجوزا تتوكا على عصا، جافة كأنها كعصاها ذابلة مثل أوراق الخريف. مريضة بالسعال والطحال وأشياء أخرى كثيرة.

تأخذى الرهن بتاع جوزك. يمكن تحبى تحتفظى به؟

أنا!. ليه؟!! من حبه؟

الله.. ذكرى.

الله يجحمه مطرح ما راح.

الله الله.. وبعدين؟

راح اتجوز عليه واحدة واثنين وثلاثة. وتعرفى إنى كنت نايمة على ودانى، لا أنا عارفة ولا دريانة!

إزاى؟

كان ناصح، وأنا كنت صغيرة وعلى نياتى.

وعرفت ازاى؟

لما مـات. قـال إيـه زعلت عليـه، وقـعـدت أعـيط والطم ونصـبت النصـبـة، وجم المعزين. أتارى نسـوانه التـانيين كـانوا رخرين عاملين عليه جنازات.

وتعرفيهم؟

دا واحدة منهم كانت صاحبتى. أرملة واحد صاحبه، وليل ونهار كانت معانا عشان معاشى جوزها وحاجة ولادها.

ياه!

والنبى!! شوفى بقه انت.

عملت إيه؟

قلبت الجنازة فرح!!

إزاى؟

قلت للى بيعددوا ارقصوا. زغرتوا.

والناس؟

وقفت فى وسطهم واتحزمت ورقصت.

لكن.. حد يعمل كده.. دا برضه ميت.

ميت ميـت. إلهى يجحـمـه. إنت يا بنتى لسـه صـغيـرة. دى الغيرة نار.

للدرجة دى.

بقول لك نار.. نار. هية الواحدة بتدرى هيه بتعمل إيه؟

والساعة بتاعته؟

إرميها فى الزبالة!

حتى ما تاخديهاش هدية؟

دى لو عندى كنت كسرتها حتت.

●●●

يا بنك الرهونات.. والأشجان، والأحزان.. والأسرار..

أنت يا بنك الرهونات ملئ بخبايا النفوس.

●●●

وكانت أنباء المعارك فى أرض السلام تشغل كل الناس وبرغم الدوافع المريرة التى دفعت بالجيش المصرى إلى هناك، للقضاء عليه، فقد كانت حماسة الناس لأنبائهم فوق الوصف، وكانت آمالهم فى تحرير الأرض المقدسة من العصابات كبيرة، تملأ كل القلوب.

وفى لقاء بين ثريا وحنفى بيه، كانت بينهما غمامة حزينة.

كانت هى تشعر بأحزان لا تدرى لها مصدرا، وكان هو يخاف عليها من الأنباء التى وصلت إليه.

عونى.. البطل عونى. نفذ ما وعد به. تبع الارهابى المشوه، واغتصب منه الوثائق والمستندات.

كان الرجل فى طريقه إلى القدس ليقابل زعماء عصابته، ليسلمهم هذه المجموعة النادرة من الوثائق. ونزل فى مستعمرة تدعى رامات راحيل.

لكن عونى كان وراءه بالمرصاد، فنزل فى بيت لحم مع قوات الفدائيين ومن هناك اقتحم، على رأس قوة صغيرة باسلة مستعمرة رامات راحيل، ووجد الارهابى المشوه يحمل بين يديه مجموعة المستندات، فانتزع منه المستندات، ثم تركه يعوى كالكلب.

لكن الارهابى طعنه فى ظهره فمات شهيد الواجب، والتقط زميل من زملائه المستندات، قبل أن يخطفها العدو الجبان.

وكانت آخر كلمات عونى لزميله أن يسلم هذه المجموعة لى.

وتاهت ثريا.. عن نفسها، وعن العالم.

●●●

وكانت آخر وثيقة صفتها ثريا من وثائق البنك، عقد تمليك لإحدى دور النشر الكبرى. بحثت عن أصحابها، فوجدتهم قد غادروا البلاد، مع من غادرها من الأجانب خوفا من خطر الحرب.

قالت للشبان الثلاثة:

حلال عليكم. هذه ثروة كبرى، لعلكم تستطيعون أن تحافظوا عليها. إنها ثروة. وثورة معا.

قالوا:

وأنت.. نحن نعتمد على الله وعليك.

قالت:

لا لا .. لقد آن الأوان لأن تتحملوا أنتم المسئولية.

قال سليم:

.. لا تتركينا وحدنا. لقد مات أبى، ومات عمى المعلم شعبان، ولم يعد لنا أحد إلا أنت.

قالت ثريا فى صوت حزين:

وأنا أيضا مت، يوم أن مات عونى.

قالوا:

وماذا ستعملين؟

قالت:

سأحاول أن ألتقط السنوات الباقية من عمرى.

قالوا:

أين؟

قالت:

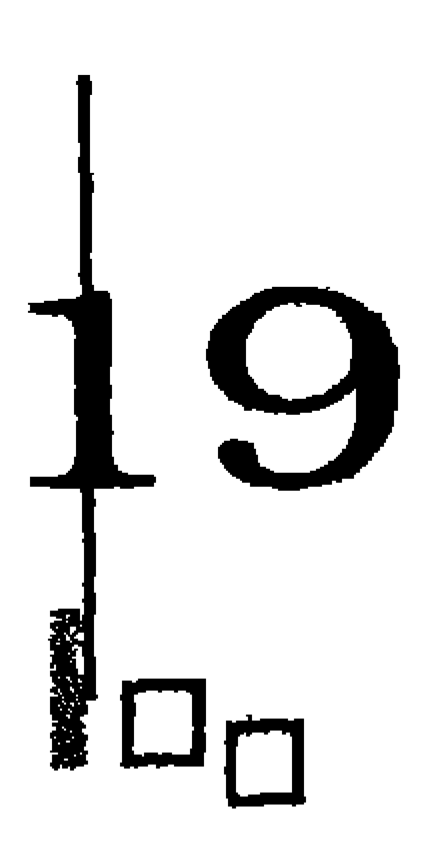
إلى جوار زوجى حنفى بيه، بعد أن اعتزل الخدمة، وقرر أن يعيش فى عزبة صغيرة يملكها.

قالوا:

مبروك عليك..

.. ومضت ومضوا.. كل إلى غايته!!

□□□



وصار أولاد العم الثلاثة بحكم الواقع والقانون، هم أصحاب الشركة.

سليم صار رئيس الشركة، وسماح أمينها العام، وقمر الزمان هو مدير التنفيذ، وتتبعه المطابع والورش وسيارات النقل والتوزيع.

ولم يكونوا يتصورون أن تقع على أكتافهم حكاية كهذه.

البيت أى بيت يملكونه شئ محدود. بناء كبير يحوى عديدا من الشقق، يسكنها ناس، يدفعون الإيجار أول كل شهر.. سهلة. مسألة سهلة ومفهومة. واحد زائد واحد يساوى اثنين. لا فلسفة، ولا مهيصة ولا يحزنون.

الدكاكين كذلك. المؤجرة منها مفهومة تماما. والتى تدار بالشرك، عبارة عن بضاعة، وللبضاعة ثمن، والمطلوب بيع

البضاعة بمكسب معروف. تسلم البضاعة، وبعد بزهة تتسلم الثمن والمكسب. هذه كذلك بسيطة، معقدة نسبيا لكن بسيطة.

التاكسيات معروفة تدار بالشركة، وللسوق نسبة معروفة. ومكسبها مضمون. كل المطلوب رقابة على السيارات حتى لا يعبث بها السواقون.

كله.. كله مفهوم وسهل.

حتى بنك الرهونات. بعد أن صفته ثريا من الغموض الذى كان فيه. قد صار سهلا. تريد قرضا، ارهن شيئا، بمكسب معروف. ترد المبلغ فى الموعد، تسترد رهنك، تطيل المدة، المبلغ يزيد، أو تدفع الفائدة، فلا يزيد. تحاول أن تتفلسف على البنك، يضيع عليك رهنك.

ثريا هانم الله يسترها عملت فى البنك جميلا لا ينساه أولاد العم الثلاثة. استأجرت للبنك عدة خزائن فى البنك الأهلى، حتى لا يتكلف البنك حرآسة "ووجع قلب"، ويطمئن أصحابه على الرهونات، كل المطلوب أن يطلب الزبون الراهن حاجته قبلها بيوم، أو يصبر يوما، لتعود إليه حاجته.

عويصة.. عويصة.. وغير مفهومة. والشركاء فيها متعبون جدا. إن حملة الأسهم معدودون، لكنهم يقولون كلاما غير مفهوم.. غامض وغير مفهوم!!

●●●

الأدب، وقضية الترجمة فى الأدب!

وكيف نترجم شاعرية شكسبير إلى شاعرية عربية مثل شاعريته؟

وهل لو ترجم المتنبى إلى الإنجليزية، أعطى ما يعطيه من تأثير وهو بالعربية؟

... وأسماء كثيرة تتردد على الألسنة لا يفهمون لها معنى.

دانتى ليس ملحدا، ولا يمكن التسليم برأى الرجعيين فى الكوميديا الإلهية!! هل كان الأدباء الأحرار المتحررون جميعا ملحدين؟!

.. العاصفة... هاملت... الشعر الجاهلى وطه حسين.

الانفتاح على أعلام الأدب الفرنسى ضرورة، فلا يكفى الاقتصار على مدرسة واحدة، ولا لغة واحدة. موليير لا يهمل!

لا بد من العناية بالتراث العربى وتحقيقه بصورة مناسبة.

ضرورة تكوين مدرسة تحقيق ممتازة، وعلى درجة عالية من القدرة على دراسة المخطوطات والعصور التاريخية المختلفة، وربط الأعمال بالمراحل التاريخية والبيئة.

●●●

ألغازا هذه ألغازا وهى تنتهى...

إن عصر العلم بدأ يغزو أوربا ولابد من الاهتمام بالعلم.

العلوم الطبيعية صارت هامة ومتطورة، وقد نشأت علوم جديدة، وأخذت تستقل. يجب أن نعنى بالعلم والمؤلفات العلمية.

أينشتين لا يزال موضع اهتمام العلماء، ونظريته بدأت تثمر ثمرات علمية فى التطبيق سيكون لها أثر كبير.

نحن نواجه عصر سباق علمى منقطع النظير، ويجب أن يكون هذا موضع الاهتمام.

●●●

لا تزال المسألة كلها ألغازا.. والألغاز تمضى تزداد ألغازا وغموضا..

المسرح بدأ يحتل مكانته بين الفنون العربية. منذ أخذ توفيق الحكيم يطرق باب التأليف المسرحى المتطور، والقراء مهتمون بالمسرح.

.. الذوق العام لا يقبل على قراءة المسرحيات. يراها لكنه لا يقرأها. ومع هذا فالدار يجب أن تقدم مكتبة مسرحية كاملة.

عشنا نعتقد أن المسرح نشأ فى كنف الحضارة اليونانية، لكن الأب دريتون يرجع المسرح إلى العصر الفرعونى.

الكوميديا.. مش نشأت.

المسرح المصرى، كان مسرحا دينيا، وفى مناسبات. أما المسرح المتكامل، فلم ينشأ إلا عند اليونان.

والعرب ألم يهتموا بالمسرح؟

المسرح التقليدى، على وجهه المتعارف عليه لم يكن معروفا للعرب، لكن إذا أخذنا المسرح على أنه رواية تروى، وتمثل أداء، وتقدم بأحداثها أمام نظارة، فقد عرفت هذه الألوان فى آداب أخرى قديمة. كما عرفت فى الأدب العربى كثيرا.

... وتمضى الألغاز أشد غموضا!!

لا يمكن أن يهمل مذاهب الفن الجديدة.

الواقعية انتهت من الفن، من زمن طويل، ولم يعد الفن تقليدا ..

صحيح، الرسام الذى يجلس أمام محطة سكة حديد، لينقلها كما هى، يضيع وقته، ويضيع وقت الناس.

إذا كانت الفوتوغرافيا قادرة، بفيلم بسيط، وبمجرد الضغط على مفتاح، وبلا ضياع هذا الجهد، أن تقدم لنا منظر أى شئ، فلماذا تضيع جهود الفنانين وأعمارهم فى أشياء تستطيعها الكاميرا فى ثوان؟!

لكن مفهوم الواقعية ليس هكذا. وليست الواقعية كاميرا. هذا ظلم للفن. أية كاميرا استطاعت أن تقدم لنا ما قدمه لنا الرسامون التقليديون القدامى؟ الفن الواقعى ليس معناه أنه منقوش، أو مطبوع، أو منقول نقلا آليا مجردا. أبدا ولكن الواقعية هى فى بساطة شديدة اتخاذ مادة للتعبير، أما التعبير نفسه، فهو يحمل روح الفنان، ولهذا لا يمكن لآلة أن تحل محل العمل الفنى.

فن هذا العصر تجاوز الواقعية والرومانسية، وبدأ يتجه إلى التجريد والرمز واستلهام الواقع، وتأثيره فى النفس، لكن دون الالتزام به.

الإسراف فى هذه الاتجاهات خطير.

لكن تجاهلها لم يعد مما يجوز.

ولماذا نعتبر هذه الاتجاهات خطيرة؟ ألم نسمح بها فى الفلسفة، عندما استوعبنا الميتافيزيقيا؟

لكن الفلسفة عادت ترتد إلى البراجمانية! وكذلك الفن قد يرتد الى واقعيته.

لا لا.. أبدا لا يمكن للتطور أن يسمح بعودة إلى وراء. سيرتد الى شئ آخر مادى، لكن لا إلى الواقعية.. أبدا.. أبدا!!

●●●

يا قوة الله!!

ما هذا الكلام؟ وما هذه الالغاز؟

وعين تطرف مع كل كلمة، وقلب يخفق مع كل مناقشة، والرعب أخذ يسيطر على كل تصرف بأى شأن يتصل بهذه الأمور.

وبدأ الهم يركب قلوب أولاد العم الثلاثة.

●●●

وأخذ قمر الزمان يقلب قوائم الكتب، التى لا تزال تحت الطبع.

.. الكامل للبرد.

الجزء الثامن من الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى.

الآمالى للقالى.

جمهورية أفلاطون.

سقط الزند.

شذور الدهب.

دائرة المعارف الاسلامية.

ألفية ابن مالك.

ترويض النمرة.

البؤساء، لفيكتور هيجو.

العبرات للمنفلوطى.

الفردوسى.. شعره، وعصره.

ديوان حافظ إبراهيم.

●●●

ودارت رأسه فطوى هذه القوائم، وأمسك بمجموعة أخرى من قوائم المؤلفين والمترجمين.

.. الأستاذ الكبير... أستاذ التاريخ الاسلامى.

الدكتور... خريج أكسفورد.

الأستاذ... من رواد النهضة الفنية.

الآنسة... الشاعرة الذائعة الصيت.

الأستاذ.. الدكتور.. الأستاذة.. الشاعرة.. رجل العلم. رائد الفن. أستاذ الجيل.. شاعر القطرين.

وقائمة طويلة من مؤهلات وتعريفات وأوصاف، ومع كل منهم قائمة أخرى بما ألف وما كتب، والمحاضرات العامة التى ألقاها هنا وهناك.

وعاد قمر الزمان يمسك رأسه بين يديه.

لقد شعر أن أمام عينيه غمامة كبيرة تحجب رؤية كل شئ، إلا الألقاب الكبرى، والمؤهلات، والشهادات!!

●●●

وبدأت رحلة جديدة فى حياة أولاد العم الثلاثة!

ذهبوا إلى فريق من العارفين بهذه الأمور، ليساعدوهم على ما قدر عليه!

وبدأوا باثنين من زملاء الدارسة، كانت لهما بالنشر صلة.. ويقال أنهما شاعران! ويقال هما كاتبان! ويقال عنهما أنهما يعيشان ليحلما، ثم يفيقان من الأحلام، ليسطرا أحلامهما كتبا ودواوين شعر، وخواطر!!

لكن أولاد العم الثلاثة لم يكتفوا بهذين الاثنين، فذهبوا إلى آخرين من زملاء الدارسة، أو المعارف، أو الجيران. وكلما كان أحد يدلهم على واحد ممن له فى الثقافة مكان، كانوا يذهبون إليه، يخبطون وده، ويطلبون منه العون والمساعدة.

وكان كل الذين يتصلون به يظن أنه المنقذ! وأنه فاعل الخير الوحيد!!

الثلاثة أجادوا لعبة استعطاف العارفين، والمثقفين.. والفنانين!

والثلاثة لعبوا على كل من يقابلون اللعبة التى تثير فيه الهمة والعزم والشهامة!

وكانوا يصورون للجميع أنهم محتاجون متواضعون، لم يتيسر لهم حظ كاف من العلم، ولهذا يعتمدون على أصحاب الباع الطويل، فى هذا المجال!

وكانوا يحرصون على أن يتصلوا بهؤلاء، دون أن يعرف أولئك، فإذا حصلوا على شئ يحتاج للنصح، عرضوه على هؤلاء، ثم عرضوا ما ينتهى إليه رأى هؤلاء على أولئك!! وعلى غير هؤلاء وأولئك من معاونين، مأجورين أو متطوعين، ليصلوا فى آخر الأمر إلى ما يظنون أنه خير ما يقدمون!

وكانوا فى بعض الأحيان يحصلون على آراء متضاربة، ومتناقضة... وقد يجدون من يزيل هذا التناقض من المعاونين وقد لا يجدون، فيصدرون عن أشياء غريبة، بلا وحدة، ولا ترابط، ولا هدف!!

لكنهم ظنوا دائما أن هذا هو أسلم الطرق للوصول الى أحسن النتائج.

وعندما تقدمت فتاة صغيرة، من الجامعة إليهم، تحمل أشعارها على كفيها، تطلب أن تعرضها على الناس، تلقاها

سماح مرحبا بها. ثم متأثرا بشاعريتها، ثم معجبا بإنتاجها، ثم بدا على حقيقته فى النهاية، فكان منها ما كان.

فلما أطلقت طلقتها، لم تكن قد دربت على الاصابة.

كانت تطلق الرصاص، بيد شاعرة، فلم تصب الهدف، ونجا سماح من القتل العمد، التى أصرت الشاعرة، على أنها كانت قد عقدت العزم عليه.

●●●

هل تتزوجه الشاعرة؟

هل تراها تقبله زوجا، بعد الذى كان؟

... المرأة قد تنكر ما تريده يا صديقى... وهذه الشاعرة أنكرت أنها تستطيع أن تعاشر هذه الناشر السفاح الذى يهدر كرامة الشعراء والكتاب. لكنها قبلت أن تتزوجه، ليفتح لها سماح صالونا أدبيا، تدعو فيه من تشاء، وتتعرف فيه على فريق الكتاب والشعراء، تحدثهم باللغة التى يفهمونها، وتحصل منهم على إنتاج يمون مطابع الدار بثمرات الفكر والفن والأدب.

●●●

ونظر الشاعران كل منهما إلى الآخر.

وظل مراد ومختار صامتين أمام هذه الحقائق، التى جاءتهما دون انتظار.

ولم يستطع أحدهما أن ينكر على صاحبه أنه قد فوجئ مفاجأة لم تكن تخطر لأحدهما على بال!

قال مراد:

وبعد أيها الشاعر.. أنت الذى سيعد القصة للنشر؟

قال مختار:

.. بل أنت. فإنى أشعر بأن قلبى فى حالة اعياء.

●●●

وعندما انتهت القصة، وأرسلها مراد إلى سكرتير التحرير، فوجئ بها عائدة إليه مع أحد السعاة، وسكرتير التحرير يطلبه على التليفون ليقول له:

اختصرها.. اختصرها واشطب بعض التفصيلات. لا داعى للإثارة يا مراد.. نريد الخبر، لكنا نريد كذلك ألا يحنق علينا صاحب الجريدة وقسم الاعلانات بها، وهو قسم قوى جدا كما تعلم.

إعلانات!! صاحب الجريدة! وما شأن هذه القصة، وهى جريمة عادية بهذا كله؟ هل هى قصة ضد الحزب؟ هكذا سأل مراد.

أكثر.. شوية!!

ومضى سكرتير التحرير يقول:

دول تصوروا إنهم بيقبضونا. بتوع الإعلانات فاهمين كده.

.. والإعلانات مالها؟

مالها ازاى يا راجل. دول أكبر معلنين عندنا.

أصحاب الشركة دى؟

آ.. كل يوم لهم ركن عن مطبوعاتهم.

وعشان كده.. منقدرش..؟

آ.. آ.. منقدرش.. من فضلك. تفتكر قطر الصعيد يستنانا لما نتفاوض؟! ياللا أمال بلاش ضياع وقت!

●●●

ونادى مراد صديقه محرر الحوادث، وناوله القصة وقال له:

اختصرها انت.

وأنت؟ واللمسات الانسانية؟ والشعر؟

لا مكان له فى أعمده الاعلانات!!

.. وهمس فى أذن محتار: أنا أيضا أشعر أن قلبى فى حالة إعياء!! وإغماء أيضا!!

●●●

ولم يستطع الشاعران أن يمكثا فى مكتبهما أكثر من هذا فقررا أن يسيرا على أقدامهما فى الطرقات، بلا هدف ولا غاية.

هل لابد للانسان من أن يقصد شيئا؟ وما قيمة أن يكون له قصد أو لا يكون؟ هل أصحاب القصد المرسوم، يصدون إلى ما يصلون؟ قد يسيرون، ويسيرون، ثم يجدون أنفسهم أخيرا أمام حائط مسدود! أو يضلون طريق القصد، بينما يصادفه آخرون لا يقصدون أن يصلوه، فيصلونه.. رغما عنهم يصلونه!! الذين يريدون لا يجدون ما يريدون! والذين لا يريدون، يجدون مالا يريدون!

ودنيا تدور بالناس، بالعكس! أصحاب اليمين، يدورون يسارا، والذين يدورون إلى اليسار، يصادفون اليمين!

●●●

مراد ومختار وجدا نفسهما دون اتفاق أو قصد، أمام منزل الجيزة، الذى شهد قصة حب مختار، والذى شهد بعد ذلك أبشع مأساة تصادف العاشق فى لحظة شعوره بأنه قد حقق غايته.

كنت يا صديقى تنتظر المأذون، فأتوا إليك بنعش ملفوف فى حرير!

ولوى مختار عنقه عن صديقه، ليدور إلى الناحية الأخرى..

لتبكى يا مختار؟ أعرف. وسأبكيها معك.

سأبكيها، وأبكى نفسى، وأبكى الشاعرة التى سترمى نفسها فى صالون مذهب، منقوش، ستائره مطرزة بأدق الرسوم.. لكنه سيكون مع هذا شيئا مزيفا، برغم خيوط الذهب، والطنافس، والثريات!

سأبكيها، وأبكى نفسى، وأبكى أقسام الاعلانات فى الصحف كلها، وأبكى محررى الحوداث، والشعراء الذين يتصورون أنهم قادرون على أن يملأوا أعمدة الصحف بالشعر والنجوى، فتلقى عليهم أعمدة الصحف، خبرا أسود، كأنه حمم البراكين!!

سأبكيها يا مختار، وأبكيك، وأبكى نفسى، وأبكى دور النشر، وأبكى أصحاب الفكر والأدب والفن. ممن سيترددون على الصالون المذهب، وممن لا يجدون فيه مكانا، فيقفون بالباب.. ينتظرون!!

●●●

قال مراد:

تعال معى إلى حيث نهجع من هذا الغثاء.

قال مختار:

تأخرنا على سميحة، وعلى حسن.

قال مراد:

هما دائما فى الانتظار...

●●●

واستيقظ حسن ليسأل مراد:

بابا.. جبت معاك بالونة.

حمرة وكبيرة يا حسن؟

آ.. حمرة وكبيرة.

لأ يا حسن.

طيب أنا جيت.

وعاوزنى أنفخها لك؟

وعمى مختار ينفخ واحدة؟

لأ.. ماما بتقول دى عاوزة نفس جامد.

وماما مش نفسها جامد؟

لأ ماما واحدة ست، والستات نفسهم مش جامد.

يعنى ما ينفخوش بالونات؟

لأ.. الرجالة بس اللى ينفخوا بالونات.

والستات يعملوا إيه يا حسن؟

●●●

وسكت حسن.. وسميحة تنتظر.

وأجاب مختار وهو يبتسم:

الستات يفتحوا صالونات.. بس صالونات.

.. والصالونات، والستات، والبالونات.. أليست كلها واحدة؟

لكن مراد مع هذا آثر أن يحتفظ برأيه لنفسه، وظل يداعب حسن، وحسن يجيب... فى براءة يجيب، ويبدى رأيه

فى البالونات وحبه لها، كيف يفضلها على كل اللعب الأخرى، ويحب أباه بمقدار ما يوفر له منها، وبمقدار ما ينفخ من البالونات!!

بكرة تشبع منها يا حسن.

أبدا.. يا بابا. أشبع ازاى!

لما تكبر حتبقى البالونات صغيرة عليك.

●●●

وأخذ حسن يشرح حلمه مرة أخرى لعمه الشاعر مختار، وكيف يريد أن يطير بالبالونات. سيجمع بالونات كثيرة، وسينفخها تماما، ثم يربط نفسه بها ويطير فوق الناس، يرى كل شئ وهو بين مجموعة بالونات، صفراء وحمراء، وبيضاء وزرقاء وخضراء، وسينظر إليه كل الناس معجبين بالبالونات الطائرة، وبأول طيار يستعمل البالونات.

وحاول مختار أن يثنى حسن عن حلمه، لكن حسن كان يتصور كل شئ بالونة كبيرة، وكان عشقه للبالونات قد وصل عنده إلى درجة لا تناقش.

●●●

وأخذ مراد ينفخ بالونة حمراء، وحسن يشجعه على أن ينفخ أكثر، ومراد ينفخ، وحسن يحثه، ومراد ينفخ، والبالونة تكبر، وتكبر، حتى كادت تصير أكبر من الحجرة التى يجلسون فيها، وأكبر من البيت نفسه، ولم يعد حسن يرى فى الدنيا شيئا غير البالونة المنفوخة، وانتقلت العدوى من حسن إلى سميحة وإلى مختار، وصارت البالونة أمام الأربعة تملأ دنياهم بهجة وترسم ابتسامات عريضة على شفاههم.

فلما فرغ مراد، أمسك مختار بالونة أخرى، وأخذ ينفخ، وحسن يشجعه، ومراد يحثه، ومختار ينفخ، وسميحة تحثهم والبالونة تكبر، والهواء فيها يزيد، وتنتفخ، وتزيد، وتكبر وحسن يشجع، ومراد وسميحة سعيدان بالبالونة، وبمختار وبحسن.

وصارت البالونة بالونات، وامتلأت الحجرة بالبالونات الزاهية المنفوخة، وأخذ حسن يتقاذفها مع أبيه ومع الشاعر الرقيق عمه مختار، بينما كانت سميحة تعد العشاء، فلما انتهت عادت لتدعوهم إليه، فوجدت نفسها بين بالونات تطير، ورجلين وطفلا يتقاذفونها فى سعادة ومرح، والبالونات تطير فى خفة، وسميحة بينها حائرة، لا تدرى

كيف تعالج الموقف. كلما اقتربت من البالونات طارت منها، وكلما اقتربت من زوجها جرى منها خلف بالونة من هنا أو من هناك، وحسن بين ذلك كله سعيد وفرح، لا تسعه الدنيا من كثرة ما يحيط به من بالونات، ومن مشاركة أبيه له فى اللعب، ومن وجود صديق أبيه معهما فى لعبة البالونات.

وعندما فرقعت بالونة، هدأت العاصفة قليلا! استقبل الجميع ذهابها، بنوع من الأسى...

تماما كما تودع الحياة، واحدا من أبنائها!!

وعندما فرقعت الثانية زاد الأسى.

.. ثم فرقعت الثالثة، فهبطت الهمم، ونكس الجميع الرءوس.

وذهبوا إلى المائدة يتناولون بعض الطعام، قربانا على تلك البالونات!

●●●

الصالون الأدبى؟!

قل يا صديقى مختار.. هل يمارس الأدب فى صالون؟

وضحك مختار، وهو يسمع هذا السؤال، ولم يشأ أن يرد. مضى يكتب مقدمة لموضوع طويل، عن اجتماع حاشد

فى الصالون الأدبى الفاخر، وما قيل فيه من شعر، وما ألقى فيه من خطب، وما اتخذ فيه من قرارات.

ولا بد للمقدمة من أن تتناول وصفا شيقا لجو الاجتماع. للشخصيات التى حضرت. للزوار الكبار من مختلف الدول والأقطار. لصاحبة الصالون الشاعرة الحالمة ذات الوجه الملائكى، والبسمة النورانية، والشعر المرسل، والذوق الرائع فى اختيار أجمل مودات لندن وروما وباريس!!

ولما فرغ مختار، قدم الموضوع لصديقه مراد، ليسمع منه بعض المداعبات.

هذا إعلان يا مختار أم خبر.

وما الفرق؟ الخبر قد يكون إعلانا، والإعلان قد يصير خبرا.

والأدب قد يطل من الصالون.

أفيد من أن يطل من صفائح القمامة على كل حال.

القمامة قادرة أيضا على صنع الصالونات، يا شاعر الهمسات.

●●●

وبدأت الأخبار تغزو الصحف والمجلات، عن نشاط رائع للشاعرة الحالمة ذات العطر الفواح.

سهرات أمس فى شرفة سميراميس، مع ضيوف من أدباء المغرب.

دعت إلى صالونها كاتبا أوربيا شهيرا، وستقدمه لزوار الصالون من الكتاب.

تنظم اجتماعات للشعراء، لزيارة الأقاليم المحرومة من الأدب.

يصدر لها ديوان جديد، اتخذ صيغة جديدة فى التعبير.

دعيت إلى محاضرة عن مذاهب الأدب، فى كلية الآداب.

●●●

ما هذا كله؟

باسم الله ما شاء الله!

ألا تظهر المواهب إلا فى الصالونات؟ والذين لا يصلون إلى الصالون، لا تدركهم حرفة الأدب، ولا تظهر عليهم موهبة ما!!

إما صالون، لتطل مواهب الموهوبين، وإما عقم وجدب وجفاف!!

.. والذين ليس لهم صالون، أو لا يستطيعون أن يذهبوا إليه، أو يرفضون أن يعبروا الطريق إلى الشهرة من خلاله؟ ماذا يفعلون؟ يموتون؟! من القهر والشعور بالظلم يذبلون؟!

وأصر مراد على أن يعرف حكاية هذه الشاعرة الحالمة.

لكن لماذا تريد أن تعرف أيها الشاعر الفضولى؟ أتراك تستعير من الصحافة بعض اللوازم، عندما تريد؟

.. ولم يستطع استنكار مختار أن يثنيه عما اعتزم.

كان سماح عنده العمل. كان يريد منه على عادته بعض المساعدات. هذا بيان هام يريده أن يراجعه له. لكن البيان لم يكن مجرد بيان. كان خطة جديدة لنشاط واسع. والخطة تحتاج إلى دقة، والدقة لا تتوافر فى البيت وحسن لا يفتأ يطلب بالونات، ولا فى المكتب، والمكتب دائم الضجة، ورنين التليفونات.

إذاً أين؟ أين يا سماح؟

قال سماح: فى أى مكان. عندنا عدد من الاستراحات.

وعـرض سـمـاح عليـه أن يذهب إلى هنـا أو إلى هناك، أو فى ذاك المكان، أو ليكن مثـلا فى الصـالون... حيث الـهـدوء والراحة ولا أحد يعكر الصفو طول النهار.

الصالون مشغول بالليل أما النهار فهو لك.

وذهب إلى الصالون.

وكان أول مرة مبهورا بمظاهر البذخ فيه.

ثم صار ثانى مرة مدهوشا لهذا الأثاث وهذا الرياش.

ثم صار ثالث مرة فضوليا، يتحسس كل شئ، ويحاول أن يتعرف على أسرار الصالون، حجرة حجرة، وركنا ركنا.

ثم صار رابع مرة، وخامس مرة، وسادس مرة، صاحب بيت، يأمر فيطاع. واعتاد عليه السفرجى، فكان يتركه لشأنه فى بعض الحالات، ليقضى بعض حاجاته.

وفى مرة من المرات التى كان فيها فى الصالون وحده، فوجئ مراد بجرس الباب، فأسرع يفتح، فقد ظن السفرجى قد عاد، وكان فى أشد الحاجة إلى بعض القهوة، يبتلع بها أنفاس سجائره التى كادت تسد حلقه.

لكنه لم يكن السفرجى.

لم يكن أحسن منه حالا على كل حال.

.. رجل وسط، أقرب إلى القصر، وأقرب كذلك إلى السمنة، بشرته بيضاء، وعيناه زرقاوان، لكن شعر ذقنه المهمل، قد صبغ بشرته بسواد، وأعطاه منظر الرجل العجوز، ولم يكن قد تعدى الأربعين.

فتح مراد، فرأى الرجل.

ونظر الرجل، فرأى شخصا غير من اعتاد أن يلقاه.

واستدار الرجل ليعود، فاستوقفه مراد، وبغير قصد قال له: تفضل. تعال.

نظر الرجل طويلا إليه، كأنما يستوثق: أصحيح أتفضل؟

.. نعم تفضل.. فتفضل!

واستطاع مراد أن يفحصه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه.

كان رقيق الحال. ملابسه رثة، ورقيقة، تكاد تكشف ما تحتها من جسمه!

وكان الجو باردا، وفى هذه الملابس الرقيقة، كان لا بد للرجل من أن يرتعد!

وقبل أن يسأله عن شئ، كان الرجل قد مد يده إليه بورقة.

ودون أن يسأل مراد ماذا فى الورقة فتحها، فوجد قصيدة شعر.

.. وقرأ الشعر، فشعر بقشعريرة معجب!! هذا الشعر رقيق ورائع! وكادت عينا مراد تقفزان من مكانهما إلى الورقة وهو يقرأ، فلما فرغ كان الرجل قد مد يده بورقة أخرى، فلما تناولها مراد، وجدها قصة قصيرة. وفى سرعة شاعر التهمها، فوجدها لا تقل عن القصيدة قوة ولا رقة ولا روعة.

ولم يستطع مراد أن يتصور شيئا عن الموقف.

شئ فى حلقه حال بينه وبين الكلام... حتى نطق الرجل.

.. يكفى؟ هل هذا يكفى؟ هل يكفى اليوم؟

وتملكت مراد عواطف مختلفة ومتناقضة، وظل عاجزا عن الكلام، إلى أن سأله الرجل:

ألم تترك معك شيئا؟

ولما لم يجد أن لدى مراد ردا عليه قال:

معلش.. لازم نسيت. أفوت بكره، وأكون كمان جهزت حاجة ثانية!

ومضى.. كما جاء مضى.... رقيقا حييا، تسبق نظراته خطواته!

وظل مراد جامدا لا يتحرك.

●●●

وفى اليوم التالى، كان مراد قد صرف السفرجى متعمدا.

أرسله ليحضر له بعض الأوراق من مكتبه، ليكون وحده فى انتظار الزائر الرقيق، ذى الثياب الرثة.

وفى الموعد تماما، دق جرس الباب، فأسرع مراد، ليجد الرجل.

وكان مراد قد حفظ قصيدة الشعر، ومر على القصة حتى كاد يحفظها، وكان ينوى أن يسأل الرجل عن حكايته، كان يريد أن يعرف سره.

لكنه فجأة وجد شيئا فى حلقه يمنعه من الكلام.

إن الرجل رث الثياب. إن ذقنه مهملة وطويلة. إن رباط عنقه مثقوب. أن قميصه قد نضح بكل الألوان، ما عدا لونه

الأصلى. بل إن حذاءه ممزق، وتطل منه بعض أصابع قدميه.

لكنه مع هذا كان جليلاً.

كان صامتا، ومهيبا.

كان ينظر إلى الدنيا من خلال عينيه الزرقاوين ويبتسم. أما هذه الملابس الرثة أو هذه الذقن أو هذا الحذاء، فلم تكن تلك وسيلته إلى الحياة. تكفيه عيناه، ومن عينيه تطل روح الشاعر ومن خلف روح الشاعر يكمن بئر خفى لا يكشف نفسه إلا له، وفيه ما فيه من كنوز الفنان التى لا تنضب أبدا.

هكذا شعر مراد، فلم يتكلم.

وترك الرجل يمد يده إليه بورقة، ليفتحها فيجدها مجموعة تأملات وخواطر زاخرة بعمق النظرة، وشفافية البصيرة؛ وقدرة الفنان على رؤية الأشكال فى صور رائعة تسبح فى دنياه الخاصة.

وظل مراد ساكنا، بينما الرجل يمد يده إليه بورقة أخرى.

وكان فى الورقة الأخرى، مقامة صيغت بالأسلوب العربى التقليدى، وما فيه من روعة وبيان وزخارف.

مـراد قـرأ هذه الـذخـيـرة كلهـا، وكـان قـد أعـد نفسـه للمفاجأة التى تنتظره، فلما قال الرجل له:

ألم تترك معك شيئا اليوم.. أيضا؟

عندئذ مد إليه يده. كان يحمل مبلغا يظنه تافها.. تافها جدا وحقيرا.

ومد به يده إليه، فقال الرجل فى حياء:

ياه!! لماذا كل هذا؟ هل تنوى أن تدفع مقدما، حد عارف؟ مش جايز أموت، ولا أكونش كتبت حاجة؟

.. ومضى... كما جاء مضى.. كأنه الطيف.

بينما مراد قد ازداد عجبا من هذا الذى سمع.

... خمسة جنيهات يا أيها العبقرى، وتظنها مبلغا يدفع لك مقدما.

جئت أمس بقصيدة وقصة، واليوم بمجموعة خواطر كل خاطرة منها تساوى أكثر من هذا المبلغ، ومقامة.. ومع هذا ترى أنه يدفع مقدما.. عن أعمال تخشى ألا تتم!!

●●●

يا لنكبة الأدب.. فى عصر الصالونات!

يالبؤس الأدباء، بين أصوات المهرجين!

.. ولم يضع مراد وقته. كان عليه أن يفكر. ماذا يفعل بهذه الأوراق؟

كان كل شئ واضحا أمامه. لكن كيف يوصل هذه الأوراق لصاحبة الصالون رحمة بالرجل ذى الملابس الرثة والحذاء الممزق؟

وأخذ يبحث فى المكان، فوجد حجرة صغيرة، فيها مكتب أنيق، لم يكن قد اكتشفه، على طول ما قضى من وقت يعمل فيه بعض الأعمال الضرورية الهامة العاجلة لزملاء الدارسة الثلاثة.

وقال مراد: لا بد أن هذا مكتبها.

وفحص المكتب فحصا سريعا، ووجد أن أسلم الحلول أن يضع هذه الأوراق تحت النشافة، وسيرى مصيرها بعد ذلك، فان اختفت من تحت النشافة، فمعنى هذا أنها وصلت إلى صاحبتها.

صاحبتها!! أنت أيضا يا مراد تقول صاحبتها!

نعم أنا، وكل الناس ستقول صاحبتها!!

●●●

وفى اليوم التالى كانت الأوراق قد اختفت، فوضع ورق اليوم التالى فى نفس المكان، وبعد ذلك بيوم آخر، اختفت الأوراق.

وظل مراد يستمرئ اللعبة.

الرجل يأتى بأوراق مطوية، فينشرها تحت بصره، فيقرؤها ثم يضعها تحت النشافة، لتختفى.

لكن الرجل يأتيه بأوراق أخرى، لتختفى من تحت النشافة والرجل يكتب، ومراد يقرأ، والورق يختفى.

وذات يوم، ذهب مراد فى غير الأوقات التى اعتاد أن يذهب فيها.

ما ذنبك يا أيها الشاعر؟ هم قالوا لك هكذا!! أعطوك حرية الذهاب وقتما تشاء! وها أنت ذا تدخل فى أمان. مفتاحك فى يدك تفتح به الباب، دون حاجة إلى أن تدق الجرس.

وبينما كان مراد يخطو أولى خطواته داخل الصالون، وصلته أطراف أصوات من داخل الصالون، وكان قد اعتاد على المكان، وأصبح سهلا عليه أن يتعرف على مصدر

الأصـوات. كـانـت تنبـعـث من داخل حـجـرة المكتب الأنيـقـة. وكانت لرجل ولسيدة. وكانا فى حالة شعر هامس.

الشـاعـرة الحـالمة كـانـت تقـرأ القصـائد التـى وضـعهـا لهـا تحت النشافة.

ورجل يسـمع، وهو يبـدى إعجابه الشـديد بالشـعـر الرائع الذى ترسله أرق شفتين على وجه هذه الأرض.

وتفـرغ الشـاعـرة من الشـعـر، لتـقـرأ مقـامـة من مـقـامـات الأدب، فيـرتفـع صـوت الرجل مـعجـبـا، ومشـيـدا بهـذه الصـيـاغـة المعجزة.

.. ثم تسمعه قصة، فيكون لها عنده نفس الإعجاب..

ومن القـصـة إلى القـصـيدة، ثم إلـى خـواطر مـسطورة، ثم إلى مقال نقدى، ثم إلى رسالة غرام.

وهـز مراد رأسه، وآثر أن يخرج.

وتترك لهما العنان.. يا مراد؟!

وهل أعمل فى بوليس الآداب؟

وهل هذا هو الخروج الوحيد على الآداب؟

●●●

وفى صباح أحد الأيام كان مراد ينهى عملا من أعمال النشر. يراجع بعض المخطوطات التى تعد للنشر، ليبدى فيها رأيه قبل أن تنشر.

ونفد منه المداد، فدخل حجرة المكتب الأنيقة يبحث عن مداد.

وهناك قرب النشافة وجد مجموعة بروفات من المطبعة، جرت عليها أقلام التصحيح، وتداولتها بعض الأيدى.

.. هذه بروفات كتاب جديد.

أترى أيها الفنان، كيف سبقوك؟

ولم يستطع مراد أن يمنع نفسه عن رائحة المواد.. ولا عن إغراء البروفات ولا عن مشروع الفكر قبل أن تتنفس عنه آلات الطباعة.

كلهم هكذا، الكتاب والشعراء والمؤلفون.

لا يستطيعون أن يقاوموا إغراء كتاب تحت الطبع!

●●●

وأخذ مراد يقلب صفحات البروفات الجديدة.

لكن حدقتاه كانتا تزدادان بروزا مع كل صفحة يقلبها.

أنفاسه كذلك كانت تزداد حركة مع كل قصيدة يقرأها.

قلبه أيضا كانت تزداد دقاته مع كل همسة أو جملة أو عبارة.

.. الأوراق المطلوبة التى كان يقرأها ثم يضعها تحت النشافة، قد تحولت إلى بروفات، وستتحول البروفات إلى كتاب، ويصبح الكتاب حقيقة تحمل اسم الكتاب ومؤلفته!!

والشاعرة الحالمة ستكون هى صاحبة الكتاب!!

والرجل الرقيق ذو الثوب الرث، والحذاء الممزق، والذقن المرسلة المهملة، والعينين الزرقاوين الباسمتين؟!

والأوراق الصغيرة المطوية، التى سهر فيها، وأتى بها متواضعا، يقدم رجلا ويؤخر أخرى، ويسأل ماذا تركت له؟!

ما مصيره؟ وما مصير أوراقه؟

●●●

وأخذ مراد يضرب كفا بكف، وهو يكذب نفسه!!

هذا قدرنا يا فيلسوف التاريخ، وصاحب الحكمة! وهذا قدرنا أيضا!!

الرجل كتب، لينشر الحالمون! وسهر ليستمتع أصحاب الصالونات!! وكان كل ما ناله من بضعة جنيهات، ربما ساعد بها أرملة، أو أطعم يتيما!! وقد يعجز عن شراء كتاب! وقد لا يسمع أنه صدر!!

وقد تغنى أشهر مغنية منه، وقد يسمع الأغنية، وهو يسير شبه حافى القدمين، أمام مقهى فى حى بلدى، وقد يسمع آهات الطرب مع مقاطع الأغنية، وسيكون عليه أن يشارك الناس، إعجابهم بالأغنية، وبالطرب، وبالشاعرة الحالمة!!

وسيستمر الرجل الرث الثياب يكتب، وسيستمر يأتى بأوراقه المطوية كل صباح، وستستمر الشاعرة الحالمة تنشر الدواوين وكتب الأدب، وسيستمر النقاد يحيون عبقريتها الشعرية، وسيستمر الكتاب يتملقونها فى ترخص، وستستمر المطابع تطبع، وستستمر الأسواق تبيع، وسيستمر الناس يقرأون، وقد يعجبون.. والرجل يحفى، ويتلقى عن ذلك كله بضعة جنيهات إذا زادت، ظنها عربونا لعمل جديد!!

وهز مراد رأسه وهو يواجه هذه المحنة!

●●●

هل اكتفيت يا شاعر البؤس والعذاب؟

يا مختار نحن نعيش فى عهد تزييف الحقائق!

بدأوا يخترعون الحرير الصناعى، والخشب الصناعى، والصوف الصناعى، والأدب الصناعى، والشعر الصناعى أيضا!!

لم يعد هناك شئ حقيقى أيها الصديق.

وكانت مفاجأة أخرى تنتظره فى الصالون. كان قد تأخر هناك فى إحدى المرات، ينهى بعض الأعمال. ومن عادة مراد، أن ينزوى فى ركن من أركان الصالون، ليترك للخدم فرصة ترتيب الأطباق، والشوك والسكاكين إذا كانت صاحبة الصالون قد دعت بعض الضيوف، فلا يعطلهم ولا يمطلونه حتى يفرغ.

وفى ذلك المساء، وقبل حضور الضيوف. فى تلك الفترة، بين الهدوء الشامل، والصخب الشديد.

فى تلك الفترة، دخلت الشاعرة الحالمة وزوجها سماح.

ووصلته من مناقشتهما جمل كالقذائف، دارت بينهما، حادة وعنيفة وقاسية فى آن واحد.

●●●

أنت لا تعرف إلا المصلحة. ألا تعيش لشعورك بعض لحظات؟

مثلى على دور الراهبة البريئة. أنت أيضا لا تعرفين إلا المصلحة.

أنا.. أنت لا تعرفنى.

لا يا شيخة؟. نسيت الماضى العريق؟

اختشى.. حاسب على ألفاظك.

ليه؟ إنت مين؟

إنت اللى سعيت إلى، وتزوجتنى عن طريق النيابة.

ليه.. يا شاطرة؟

إسأل نفسك.

وأنت.. لا تعرفين؟

لأ.. أنا رفضت، لكن إصرارك هو الذى...

إصرارى أم موقفك؟

أنت سافل..

ألأنى كشفت الفضيحة؟

أنت كذاب..

وزميلك الشاعر الأديب، الذى قضيت عليه؟!

أنت حيوان.

وكنت تظنين أنى مغفل. لكنى كشفت جريمتك من أول لحظة.

وفضحتنى!..

أبدا. داريت الفضيحة بالزواج، رغم أنك حاولت قتلى لتدفنى جريمتك.

لأمنعك من أن تتجر بى.

فى مقابل ما تعلمين.

أنا أشرف منك.

بدليل دواوين الشعر، وكتب الأدب؟

كتبى.. شعرى وكتبى.

لا يا شيخة.. والرجل الذى ضاع.

لا تتحدث عنه. لقد كان خطيبى.

ولا يزال خطيبك بالشعر والادب...

اتهمنى كمان فيه.

لأ لأ.. ده كان زمان. إنما دلوقتى، إنت ما ترضيش. هو بس يشعر، ويقبض، وإنت بقى تتشرى.

وإنت تقبض.

حقى.. ده حقى. كل واحد يأخذ حقه.

●●●

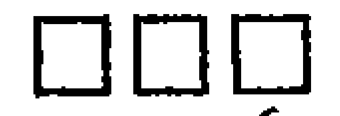
وتريد مع هذا أن تستمر شاعرا يا مراد؟

تعال يا صديقى مختار اسمع.. اسمع مصير الشعر والشعراء لكن لماذا؟.. تعال نذهب إلى حسن ننفخ له بالونات.. بالونات حمراء وصفراء، وخضراء.. بالونات من كل لون.

هذا أفضل يا صديقى من الشعر والأدب والمقامات.. وصالونات فيها طعام وشراب وحكايات!! وكتاب، بلا أقلام، وشعراء بلا أجنحة.. وباحثة عن الشهرة، تمتص موهبة إنسان ممزق، ينتج ليأكل، ويعطيها عصارة نفسه، لتصبح دواوين شعر، وكتب أدب، وهمسات، وخطوات، ونفحات!!

يا مختار يا صديق عمرى:

تعال بنا ننفخ لحسن.. بالونات!!





كانت سميحة جالسة، وبين يديها عدة بكرات من الصوف الملون، بينما كان مراد مستغرقا فى كتاب ضخم، سميك الغلاف، مليئا بالصور والرسوم، وكان حسن فى الردهة، يجرى وراء بالوناته، وينفخها فتطير، ثم يجرى خلفها يحاول أن يلحق بها، أو يقفز إليها، فإذا لم يستطيع انتظرها، ليجدها قد هبطت من تلقاء نفسها.

هى لا تطير طيرانا متصلا.

تريد أن يدفعها أحد.. أو ينفخها أحد.

وحدها تهبط مستسلمة!! ووحدها تنزف الهواء من جوفها. لتصبح قطعة مطاط مهملة، كالخرقة القديمة البالية!.

وعاد حسن يفكر فى البالونات التى ينفخها ويربطها، ويحكم إغلاقها، ثم يجدها بعد مدة، قد نزفت هواءها..

والبالونة المنفوخة لطيفة، لكن البالونة "المهوية" سخيفة!

عندما وجد حسن البالونات على هذا الوضع، اندفع إلى الحجرة نحو أبيه، وفى ذهنه عديد من الأسئلة، يتصور أن جوابها جاهز ومحفوظ.

ليه البالونات بتقع يا بابا؟

تقع؟ تقع ازاى؟

البالونة لما بتطير، بتقع ليه؟

وعاوزها تطير على طول؟

زى الطيارة.

الطيارة فيها بنزين بيشغلها.

والبالونة إيه بيشغلها.

إنت يا حسن..

أنا... أبدا.

لما بتزقها.. بتطير!

طيب.. تطير بقه على طول.

لما تزقها على طول، تطير على طول.

وأنا حفضل أزقها على طول إزاى؟

إذا كنت عاوزها تطير على طول.

وهيه ليه ما بتطيرش لوحدها؟

عشان هيه بالونة.. مش طيارة.

دا كمان بتهوى لوحدها يا بابا.

أمال عاوز إيه؟

تبقى منفوخة.. تهوى ليه؟

علشان اللى جواها هوا.

ولو كان حاجة تانية

ما كانتش تهوى.

●●●

وخرج حسن، وهو يهز رأسه، ليعيش فى وسط بالوناته، يحاول أن يفهمها أكثر. كانت الفكرة التى فى رأسه تؤرقه. يريد أن يطير بالبالونات.. يريد أن ينفخ عددا كبير من البالونات ويربط نفسه بها، ثم يتركها فى مهب الريح، فتحمله إلى نزهة جميلة، يرى فيها كل شئ من فوق!

وكثيرا ما كان حسن يخرج بالبالونات إلى البلكونة.. يجرى تمريناته دون أن يدرى أبوه، ودون أن تعلم أمه.

وفى أحيان كان يصعد إلى السطوح، ليرى مدى تأثير الهواء الطلق على البالونات، وهى منفوخة، أو هى نصف منفوخة! أو ربع منفوخة!

●●●

قالت سميحة:

أهذا شارلى شابلن آخر، أيها الفيلسوف الشاعر؟

قال مراد:

أولا يا زوجتى العزيزة، الفيلسوف لا يكون شاعرا.

قالت سميحة:

والشاعر.. ألا يكون فيلسوفا؟

قال مراد:

لا يكون فيلسوفا، وهو شاعر.

قالت سميحة تعترض:

ليه يا أخى. إذا كان أطباء بيقولوا شعر... مهندسين بيقولوا شعر.. يبقى محرم الشعر على الفلاسفة.

وضحك مراد ضحكة طويلة ساخرة ثم قال:

.. ومع هذا، فالطبيب لا يقول شعرا، ويوم يصبح الطب شعرا، يفشل فى وضع علاج للأمراض، لأنه سيعالجها بالخيال، والمبالغة، وبالتمنيات!! كذلك الشعر، يوم يصبح طبا، يصبح شيئا ممسوخا تفوح منه رائحة الدواء!!

قالت سميحة:

لكن الفلسفة والشعر أقرب.

وعاد مراد يضحك، وهو يقول لها:

شوفى يا زوجتى العزيزة. الممكن هو أن يجتمع فى شخص واحد شيئان. طب وشعر. جائز. هندسة وشعر. ممكن. فلسفة وشعر. يصح. لكن،هذا الشخص الواحد يصبح فى هذه الحالة كالدولاب، بعدة أجزاء. جزء فيه الشعر، وجزء فيه الشئ الآخر. وعندما يفتح ضلفة، يصبح عليه أن يغلق الضلفة الثانية، وإلا اختلطت القمصان بالأحذية، وتاهت البدل بين البيجامات، ولم يعد قادرا على أن يميز هذا من ذاك. مفهوم؟

قالت سميحة، وقد تمتلكها بعض العصبية:

لكن الشخص واحد.

قال مراد:

لكن بروحين!!

قالت سميحة تسأل:

وممكن؟ هل هذا ممكن؟

قال مراد:

مفيش قاعدة يا ستى.. الناس اللى كده موهوبين، وأصحابها فى المجتمعات، حالات خاصة، لا تنطبق عليهم القواعد.

قالت سميحة وهى تمتص عصبيتها:

لكن صاحب بالين.. كذاب.

قال مراد جادا:

بس دول مش بالين.. دول روحين.

قالت سميحة فى ضيق:

مش فاهمة.

قال مراد يشرح لها:

شوفى.. بالين يعنى واحد بس، بيقسم نفسه كده وكده. لكن روحين شئ ثانى. دا الشخص يبقى واحد ثانى، وبروح ثانية. هيه دى الموهبة. ساعة ما يكون ماسك المشرط، ميسرحش فى حاجة إلا العملية اللى قدامه، لا يسلم على النجوم، ولا يتوه فى السحاب ولا يشوف وردة مفتحة.. أبداً أبدًا.. لكن لما يختلى بنفسه بقه ويبتدى يشعر.. لا يحس أن يده التى تمسك القلم، قادرة على أن تمسك المشرط. هذه روح ثانية تماما. موهبة!!

قالت سميحة وهى مترددة، ولا تريد أن تقتنع، ولا قدرة لها على هذا الجدل:

والآن أنت شاعر أم فيلسوف؟

قال: فيلسوف.

قالت:

وفيم انشغالك؟ ما هذا الكتاب؟

قال لها وهو يلوى وجهه فى ضيق:

المسألة ليست هذا الكتاب، بقدر ما أنا مقبل عليه من إبداء الرأى فى قضية تزوير، من طراز عجيب!!

وبدأ مراد يشرح القضية.

●●●

التزوير عقوبته السجن. التزوير جنحة فى قانون العقوبات.

آه يا سميحة لو عاملنا الفكر بقانون العقوبات! إذاً تضيق السجون، بناس كثيرين، مشهورين ومغمورين، معروفين ومجهولين، لهم أسماء مطبوعة على مقالات وقصائد وكتب، ولهم أعمال ترددها محطات الإذاعة والتليفزيون!! لكن الذين يدخلون السجن بتهم التزوير ناس آخرون. واحد زور شيكا! وواحد زور عقد بيع أو شراء! وواحد زور وصية ليؤول إليه مال حرام!! أما أن تزور شاعرة حالمة كتبا تفيض بأرق الاشعار، فجزاؤها صالون أدبى، ومكانة، وشهرة وذيوع صيت، وسيارات ذات ألوان، كالموضات!

قالت سميحة:

إنت بس حاطط نقرك من نقرها.

قال مراد يكمل شرح القضية:

أبدا.. هى مثال.. لكن غيرها، من نساء ورجال، يرتكبون جرائم أبشع وأشنع، بلا عقوبة ولا عقاب.

وهذا الكتاب مثل آخر.. كتاب مطبوع فى أمريكا. ضخم وفخم وجميل. وهو نوع من دوائر المعارف المتخصصة فى نوع معين من المعرفة. اختار صاحبه الفن، يعطى عنه معلومات، ويناقش قضاياه، ويشرح أسراره، ويفند مذاهبه، وينقد ما شاء له حظه من العلم أن ينقده.

وصاحب الكتاب لم يشأ أن يقدم فنا مبتورا.. الفن عنده قديم، ولد مع الانسان. إنسان بلا فن إنسان لم يولد بعد. وبدأ يعرض معلوماته عن الفن، مع معلوماته عن الإنسان. وكما ينمو الانسان، ويتدرج عبر مراحل التاريخ. وكما يصطبغ الانسان بصبغة البيئة. كذلك الفن فى تطوره عبر التاريخ، وتميزه فى مكان عنه فى مكان.

كتاب ضخم فخم معروف. وهو مرجع من مراجع الفن. والذى ألفه لم ينفرد وحده بطرق ما فيه من موضوعات لكنه استعان بكل ذى اختصاص أو رأى.

هل تعرفين يا زوجتى العزيزة ما هى القضية بعد هذا؟

مطلوب تزوير هذا الكتاب!!

●●●

وأخـذ يروى لهـا نكتـة يرددها تلامـيـذ المدارس ممن يتعلمون التدخين، ولا تزال مواردهم محدودة لا تمكنهم من شراء السجائر على الوجه الذى يريدون.

إن لهم من الحيل أصنافا وأصنافا، وبعضها ظريف.

قد تختفى من علبة والد سيجارة.. كل يوم. ثم تختفى سيجارتان.

لا أحد يعد ما فى علبته من سجاير على كل حال.

لكن السـجارة لا تكفى، ولا السـيجارتان تكفيـان، فـإن الذين يتعلمون التدخين، لا يجدون فى أول الأمر، الشجاعة ليدخنوا منفردين. ولكى يتشجعوا يتجمعون. وليسوا جميعا قادرين على إخفـاء سـيجارة أو اثنتين من علب الوالدين! وليس كل الوالدين يدخنون كذلك!

وتشيع بينهم حيل، بعضها لا بأس بها.

يفكون سجائر الأباء، كما يفكون قطع النقود الفضة! وبهذا تكفى السيجارة عددا أكبر! وقد تتسع السيجارتان للمجموعة كلها. والبلوى عندما توزع تخف. والسرقة بلوى. فإن سرق كل واحد أباه مرة. فسيأتى عليه الدور مرة ثانية. بعد أسبوع أو ربما أكثر، أو ربما أقل، حسب عدد المجموعة

من الذين يتعلمون التدخين. المهم أن سيجارة الوالد فى العادة سيجارة ممتازة.. لكى استرايك مثلا و فيليب موريس، وهم يستطعمون أى نفس، حتى نفس سيجارة كوتاريللى أو سيجارة فيل. وعند فك سيجارة ممتازة، فإنها تصبح سيجارة ونصفا أو ربما سيجارتين.. وهذا أفضل من واحدة على كل حال!

قالت سميحة:

النكتة لا بأس بها، وهذه الشقاوة رغم ضررها خفيفة الدم. لكن ما علاقتها بالكتاب؟

وهز مراد رأسه كأنما يقول لها: صبرك..

ومضى يحكى:

●●●

المطلوب منى أن أفك السيجارة اللكى سترايك أو الفيليب موريس، إلى عدة سجاير بفرة!! لتكفى تلاميذ كل الفصل!

لا تتعجبى يا سميحة.. لا تندهشى.

الكتاب الذى ترينه هو السيجارة اللكى سترايك، وهو على وضعه لا يكفى كل تلاميذ الفصل، ولا يسد حاجتهم إلى بضعة أنفاس يهدئون بها نزواتهم الصغيرة!

إن أدمغتهم فارغة، وحتى الدخان الطيب لا يفيدهم! لا يملأ فراغات المزاج المندفع، ولا يكفى النهم الذى يتفق وأعمارهم!

وكما يفك تلاميذ الفصل السيجارة الطيبة إلى عدة سجاير رخيصة، فعلى أن أفك هذا الكتاب إلى عدة كتب فى الفن.

وفزعت سميحة، ووقفت مذعورة تقول:

مش معقول. وهيه الكتب كمان بقت لعب عيال؟!

قال مراد فى ضعف:

وهو فيه أكثر من الكتب اللى بقت لعب عيال؟! يا ستى دى السيجارة المسروقة حييجى يوم وتبان، إنما الفكرة المسروقة حتلاقى اللى يدعيها لنفسه من غير حياء، ولا احتشام!!

قالت سميحة وهى تتعجب:

لكن دا كتاب. كتاب بحاله.

قال مراد، والأسى يعتصر قلبه:

ما هو بقه حينفك، ويبقى كتب كثيرة. سبعة ثمانية تسعة.. ويمكن أكثر.. زى السبائك لما بتتسرق، بيعملوا بيها إيه؟ يهربوها إزاى؟ يخفوا ملامحها إزاى؟

قالت وهى تهز رأسها:

أى والله.. تمام.. بيسيحوها ويفكوها حتت صغيرة..

قال مراد:

ذى الكتب الفكة.. تمام.. أصلها كتاب زى ده.

●●●

لكن سميحة، ظلت مع هذا، فى حالة تعجب مما تسمع! وكان مراد أمامها جالسا، وقد وضع ساقا على ساق، والكتاب الضخم الجميل إلى جواره على الكنبة.

وتصورت سميحة الكتاب إنسانا. طفلا أو رجلا يتمدد إلى جوار زوجها. وأحست أن هذا الإنسان معذب، يواجه محنة، وأنه لجأ إليه، ليقف إلى جواره فى محنته، ولكن زوجها، بدلا من أن يقف إلى جواره، أخذ يعد العدة للجزار، ليقطع رقبته، ثم يمزقه أشلاء، ليوزع كل جزء فى ناحية، وسيزعم الجزار بعد هذا أنه يقيم من كل جزء إنسانا.. إنسانا جديدا، مكتامل التكوين والشخصية!!

وأحست أن الجريمة تتم تحت نظرها، وعلى مشهد منها، وتصورت لو أن هذا الطفل الصغير ابنها. لو أن أحدا مزق حسن، ماذا تفعل؟ وكيف يكون شعورها؟

واستطردت سميحة فى خيالها، وتعقدت أمامها الصورة، وانعكس شعور الأم الملتاعة عليها، وسرى فى جسمها إحساس غريب من الخوف والهلع... حسن.. حسن سيمزقونه أشلاء!. حسن اللطيف الظريف سيقطعونه ويفرقونه ليصبح أكثر من حسن واحد!. حسن وحسن وحسن.. أو أكثر أو أقل، لكنه لن يكون حسن!! سيصبح حسنين، أو أكثر، كل جزء منه حسن، ولن تجتمع له بعد ذلك أجزاء، ولن يصبح هو نفسه حسن.. صاحب البالونات.

وفجأة والصور تمر من أمام سميحة، شعرت أنها لا تستطيع إلا أن تصرخ.. تصرخ بكل ما فيها من قوة، ومن مقاومة. تصرخ لتبعد عن ابنها الجزار. الأشباح تخاف الصراخ. واللصوص يهربون من شدة الصراخ.

وظلت سميحة تصرخ صرخات عصبية هستيرية مجنونة.

ومراد يحاول أن يتبين سبب صراخها هذا المفاجئ، لكنه لا يجد لصياحها من سبب.

سميحة تصرخ وتفتح فمها وتصرخ. تنظر إلى الكتاب الجاثم على الكنبة وتصرخ.. هذا الكتاب إنسان، والإنسان

حسن.. وحسن معرض لأن يمزقوه، ويجعلوه حسنا وحسنا وحسنا وحسنين وحسونة وحسنات، والشاطر حسن، وخولى الجنينة الدلوعة حسن، والحسن أخو الحسين، والحسين مات قتيلا، وصار سيد شهداء الإسلام، وسميحة لا يهمها أن يصبح حسن شهيدا أو سيد الشهداء، لكن يهمها أن يعيش.. يعيش ينفخ بالونات، ويلعب بالبالونات، ويطير البالونات، ويضحك ملء شدقيه فرحا وسعيدا!!

●●●

وظلت سميحة بضعة أيام، تفقد أعصابها كلما رأت الكتاب الفخم الضخم الملون مع زوجها.. ولم تجد بدا من أن تطلب من زوجها أن يبعده عنها.

خده المكتب.. القتيل ده.

ده مش قتيل.. دا كائن حى عظيم.

بس انتم حتقتلوه..

إحنا مين يا سميحة.

إنت ومختار وأصحابك الاغنياء بتوع الشركة.

أنا ومختار والأغنيا بقينا اشو؟

أمال. مش بتشتغلوا معاهم؟

عندك حق.. إحنا صحيح غلطانين.

أمال ايه؟ فهمنى.

إحنا شعراء وكتاب ومؤلفين.

عارفة.. عارفة.

والتانيين أغنيا.. بيتاجروا فينا.

بيتاجروا فيكم؟ إزاى؟

إحنا عندهم بضاعة.. تكسب يبيعوها. تخسر، ولا يقربوا ناحيتها.

انتوا مين؟

أنا ومختار، والراجل المسكين اللى عمل الكتاب ده، وأى واحد ينفع بضاعة!

وتوفقوا ليه؟

عشان نوصل للناس. إذا كانوا همه طريقنا للناس. نعمل إيه؟

اوصلوا لهم لوحدكم.

زى أهل زمان؟

مثلا.. وليه لأ؟

ما عندناش سوق عكاظ يا ست سميحة.

بأى شكل وصلوا.

بالرواة؟ لو كان خلف الأحمر عايش كان فتح مطبعة، أو محطة إذاعة.

وبعدين؟ حتستمروا كده عبيد؟

ونكتب عن الحرية. ونشعر حرية.. مع هذا!!

وحتوافق يقطعوا صاحبك ده؟

وحعمل إيه؟

ما توافقش.

أنا ما وافقتش فعلا.

خلاص. تبقى عملت اللى عليك.

خلاص إيه؟ يبقى لما موافقتش.. خلاص يسكتوا؟

أمال طبعا!!

يا سميحة إنت على نياتك.

مش بيعملوا اللى بتقول عليه؟

بيخلونى أقول على اللى همه عايزينه!

وإن ما قلتش؟

حد تانى يقول!

ويقول ليه؟

همه ناقصين دول بقوا أساتذة!!

●●●

أساتذة!! صحيح أساتذة؟!

الثلاثة صاروا أساتذة متخصصين.

ألا ترى أن كل شئ هان يا صديقى مختار؟

ما أتعسنا، وما أتعس ما تضيع أعمارنا فيه!!

هؤلاء ناس وثبوا الى أى اختصاص على قنطرة من الذهب، ومن الذهب جاء النفوذ، وبالنفوذ وصلوا إلى الغاية، الغاية، تجر إلى غاية أكبر، حتى يجدوا أنفسهم فى نهاية الأمر أى شئ، وكل شئ!

وبالذهب ملكوا أكبر شركة مساهمة للنشر! وملكوا كثيرين ذوى مواهب وطاقات قادرين على أن يؤلفوا، بالشعر والنثر، لكن تمنعهم ملابسهم الرثة عن الظهور، أو يتعمدون أن يداروا أنفسهم.. بالثمن!!

وصاروا أصحاب مواهب، يؤلفون، وينشرون، ويقرأ الناس ما ينشرون، ويمدح المنافقون، ويطأطئ أصحاب الحاجة الرءوس، وتلهج الألسنة الجافة بالثناء!! ويزيف التاريخ!

دنيا غريبة هذه التى نعيش فيها!!

●●●

وسكت مختار قليلا ثم قال:

تعرف يا مراد. نحن أيضا شركاء فى هذه اللعبة. أنت وأنا.

قال مراد فى يأس حزين:

جائز. لكنا خدعنا يا مختار. هؤلاء الثلاثة، من أولاد العم خدعونا. جاءونا باسم الزمالة القديمة، وباسم الصداقة، ومثلوا علينا دور المحتاج! وتوهمنا أننا نستطيع من خلالهم أن نحقق شيئا للفكر والأدب والفن، ولم يخطر لنا ببال أننا سنقع فى حبائل ناس أمهر وأقدر!!.

وهز مختار رأسه كمن يستعيد ذكريات مؤلمة:

وكما مثلوا علينا مثلوا على كثيرين غيرنا.. كانوا يحاولون أن يلعبوا على كل من يعرفون. وكانوا يظنون أن الناس لا

يعطونهم كل ما يعرفون. ويجمع ما يعرفه كل واحد، على ما يعرفه سواه، على ما يعرفه الثالث، على واحد من هنا وخامس من هناك، تتجمع لديهم حصيلة لا يصل إليها إلا مجموعات من المتخصصين. لعبة فهلوة! إنها ليست أكثر من لعبة فهلوة، والناس سذج، ولكل واحد منهم سبيل.

قال مراد:

تمام.. لكل واحد سبيل. واحد سبيله المسكنة، وآخر سبيله المصلحة، وثالث لا يأتى بغير التهديد، ورابع يكفيه أن ينفخوه كالبالونة الحمراء التى يحلم بها حسن.. وهكذا.

قال مختار:

ولماذا لا تريد أن تذكر السبل الأخرى، أم تراك تخاف أن تسمعك زوجتك، فترتاب فيك؟ قلها طالما أنك تستعيد كل الطرق التى توصل الى روما!

قال مراد:

أنت تعرف أنى لا أخاف!

قال مختار وهو يصفق:

يا سلام!! تصفيق حاد! لماذا لا تخاف؟

قال مراد فى ثقة:

لأنى لا أخطئ. الذين يخافون هم هؤلاء الذين يخطئون!

قال مختار يسأل:

يعنى الخطأ سبب الخوف. ويكون الخوف هو نتيجة الخطأ.

قال مراد:

نعم.. هو ذاك.

قال مختار:

فإذا خفت أنا من الظلام، فإن خوفى يكون نتيجة أى خطأ؟ الظلام مثلاً؟

قال مراد:

أعرف يا صديقى أنك قادر على المغالطة. لكن المسألة غير هذا تماما. وعلينا أولا أن نتفق على التفريق بين الخوف الغريزى والخوف السلوكى.

●●●

يس صار رئيس مجلس ادارة الشركة، بحكم ملكيتهم للأغلبية العظمى من الأسهم.

وسماح صار الأمين العام للشركة، وهو الذى يديرها ويوجه أنشطتها.

وقمر الزمان صار مدير التنفيذ، وتتبعه كل أجهزة الإنتاج من مصانع وورش وسيارات ووسائل توزيع.

لكن كانت هناك أقسام أخرى كثيرة، لها أهمية كبرى فى أعمال الشركة.

لقد كان نشاط الشركة واسعا وعريضا. كانت تتبعها دار نشر شاملة كل وسائل المعرفة، وذات تاريخ فى حركة النشر العام، ولها رصيد كبير من المؤلفات والتراجم والدراسات وتحقيق كتب التراث، ونشر الأدب بكل فروعه.

كذلك كانت تملك عدة مجلات أسبوعية وشهرية ودورية، فى جميع فروع النشاط الفنى والفكرى والعلمى أيضا.

وبطبيعة الحال كان لا بد لهذه المجلات من أن تكون لها إدارة كبيرة للإعلان.

●●●

كتب، ومجلات، وإعلانات، وصالونات.. وبالونات!!

وكل بند له فروع:

الكتب مؤلفة، ومترجمة، وتحقق التراث الانسانى. وهى فى الأدب بأنواعه، والعلوم الطبيعية، والعلوم الاجتماعية، والانسانيات، والأخلاق.. وكتب شعر، وكتب فن، وكتب قصص، وكتب تاريخ..

هذا بند لا ينتهى. كثير ومنوع، وحصره متعذر إلا بعد الرجوع إلى الملفات، وقراءة الفيشات، والاتصال بإدراة ثم إدارة ثم مراجعة الحسابات!

والمجلات متنوعة الأشكال والأحجام والمواد. منها ما يهتم بالمجتمع، والمودات، وسهرات أولاد الذوات، والخيانات، وكؤوس الشمبانيا والويسكى وموائد القمار فى أخريات السهرات! فى الفنادق أو النوادى أو الصالونات!

ومنها ما يهتم بالفن، والفن يعنى الفنان، والفنان بين رجل وامرأة، ولكل منهما نزوات، والنزوات أهم من الإنجازات، عند القراء والقارئات!

ومنها ما هو للمرأة والمودات، ومع كل مجلة عدة بترونات.

ومنها ما هو للطفل.. ومنها ما هو للتلميذ.. ومنها ما هو للعلم.

وهكذا تصبح دنيا واسعة من المعلومات.. هذه المحلات.

أما الاعلانات فشئ آخر مهول، وملئ بالأسرار.

والذين يمارسون ترويج الاعلانات، يبيعون كلاما، ويغرون الناس بكلام، وينشرون الثقة فى بضاعة قد تكون خاسرة!! مجلة تبيع مئات النسخ، يضرب رجال الاعلان عدد النسخ التى تباع فى مئات أو آلاف!! والمجلة التى تنشر الفضائح يقول عنها رجال الإعلان، أنها منتشرة على أوسع نطاق، فإن أرادوا الترويج لمجلة محدودة الانتشار، فلهم حجج أخرى أقلها أن قارئ هذه المجلة هو الزبون الحقيقى، لأنه جاد، وليس تلميذا صغيرا لا يملك إلا مصروف جيبه! رجال الاعلانات يتكيفون بالجو الذى يحيط بالمجلة التى يروجون لها. ولهم وسائل غريبة، أقلها شهادات توزيع مختومة، ومعتمدة من مراجع حسابات رسمى، لكنها لا تعدو أن تكون وسيلة جر رجل المعلن إلى الاعلان! وعندما يعجز رجل الإعلان عن إقناع الزبون، فإنه يعرض عليه أن يدفع نصف الإعلان نقدا، والنصف الثانى بضاعة، والمجلة تتولى ترويج البضاعة. " أهو نساعد بعض. أنت تعلن، وإحنا نسوق البضاعة معاك "!!

وحكاية النصف المدفوع والنصف العينى هذه، قد تصبح ربما مدفوعا وثلاثة أرباع عينية!! وقد تتحول مخازن المحلة إلى بوابير جاز وفرد كوتش، وثلاجات وغسالات، وأحيانا سيارات! أما تذاكر السفر بالبواخر والطائرات، فشئ تتلهف عليه كل الشخصيات، فى كل المجلات.

●●●

ووجد أولاد العم الثلاثة أن لنشر الكتب عددا من المديرين.

مدير للتأليف، ومدير للترجمة، ومدير لتحقيق التراث..

ووجدوا أن للمجلات مديرين ورؤساء للتحرير، غير محررى الأقسام المسئولين والكتاب والشعراء والفنانين.

ووجدوا أن للإعلانات إدارة كبيرة زاخرة بأعداد مهولة من المندوبين والمراجعين والمحاسبين.

●●●

ثم ما هذا كله؟

لماذا تصرف كل هذه المرتبات؟

ماذا يعمل مدير التأليف؟ يضع خطة للنشر، كل عام، ثم يقضى العام كله، يتكلم فى التليفونات؟! وهل من أجل هذا يتناول مئات الجنيهات؟! حرام!

ومدير الترجمة.. ماذا يعمل؟ الكتب الإفرنجية مستوردة.. تأتى فى البريد، وهو يحولها على مختصين، ثم يراجع تقريرات المختصين، ويوافق على الآراء التى تتفق عليها الأغلبية، وتتم الترجمة وتراجع، وهو يقرأ الصحف، أو يستقبل الزوار!! أمن أجل هذا يتقاضى هذه المرتبات!

... إلا الإعلانات وما فيها من ثروات!!

الكلمة فى الإعلانات، بجنيهات!

والخطبة العصماء، بعشرات الجنيهات!

ومدير الإعلانات لا يتقاضى مرتبات، ولكن عمولات، دولارات!

●●●

والطواويس من المحررين ورؤساء التحرير! هؤلاء الذين يرفعون رءوسهم فى الهواء، ويتكلمون من أطراف أنوفهم، ويضعون أيديهم فى جيوب بنطلوناتهم! ولا يعجبهم العجب،

ولا الصيام فى رجب، ويأخذون كل خبر بتأفف، كأنه قديم، ويسمعون كل نكتة ولا يضحكون! ويسهرون الليالى هنا وهناك، ليحضروا إلى مكاتبهم وقت الظهر، وعلى الذين يتعاملون معهم أن يأخذوهم كما هم، من غير تعقيب!

أحسن شئ فى هؤلاء، أنهم "شحاتون"!

مرتباتهم دريهمات! لا يغرنك مظهر الطواويس، فهم ليسوا إلا بالونات!!

●●●

وبدأ أولاد العم الثلاثة يفكرون ويرسمون.

وهمه دول بيعملوا إيه؟

بيقبضوا فلوس.

طيب مش جحا أولى بلحم طوره؟

طبعا أولى.

ما أولادنا يقدروا.

برضه لسه صغيرين.

الصغير بيكبر.

وجهلة.

يتعلموا، أو يشغلوا المتعلمين من بطنهم!

وعظمهم لسه طرى.

حيجمد ويبقى عال. الفلوس بتجمد القلب؟

بس مين يمسك إيه؟

الواد جودت يأخذ النشر..

كله؟ تأليف وترجمة وتراث؟

آ.. كله.. هيه شغلانة؟

وفن وأدب وعلم وحاجات كتير.. يقدر على ده كله؟

يجيب له ناس يساعدوه. همه يطولوا. حياخدوا فلوس!!

طيب ومين تانى؟

والواد عايق يمسك المجلات.

يا راجل.. هوه ده قد كده؟

طبعا قدها وقدود. إيه ما هو عنده الجماعة المحررين بالزوفة.

إياك بس يقدر.. ومين تانى؟

علاء.. ولد عال ومفتح.

يعمل إيه؟

يمسك الإعلانات، هوه أولى.

●●●

وصارت الشركة فى أيد أمينة!

وصارت أسرارنا فى أيدى أولادنا!

وما عاد لغريب بيننا مكان!

نحن ننشر، والناس يقرأون!

نحن نترجم، والناس يشترون!

ونحن نحرر، والناس يعجبون!

ونحن نملأ المخازن ببضائع الإعلانات!

●●●

وصار جودت أستاذا كبيرا.. هذا ولد فنان إنسان. له فى الموسيقى باع وذراع! وله فى الفنون نوادر مجنون! وله فى الرسم، شهرة وإسم! إذا ترجم اهتزت له الاقلام بالمديح. وإذا ألف، ألف بماء الورد، ليصبح لما يؤلفه رائحة تريح الاعصاب!

وهو صاحب فكرة فك الكتاب الأمريكانى، كما يفك التلاميذ السيجارة الأمريكانى! لتصبح دائرة معارف الفن، الكتاب الضخم الفخم العظيم، عدة كتب أو مجلدات، أو مراجع من الأمهات!! تماما مثلما يحدث عندما تصبح السيجارة الأمريكانى علبة سجاير بفره، كل واحدة كفيلة بقطع نفس بطل من أبطال اليوجا!!

لكن ليه بس نفكه؟

لأن عندى معلومات أحسن مما فيه.

طيب ما تألف كتاب زيه؟

أمال أنا بعمل إيه؟

بتنقله، وبتنقل طريقته، وبتأخذ كلامه وتلبسه ثوب تانى.

دا كلامى أنا.

حتى ده مش صحيح. إنت عارف أن أنا عارف مين أصحابه.

لأ.. دول بيترجموا بس، وأنا المؤلف، وإذا كان حد بيدعى حاجة يبقى كذاب.

مؤلف إيه يا مولانا.. ما تخلى الطابق مستور أحسن.

وليه ما تكونش دائرة معارف من تأليفى؟

هو فيه حد يقدر يؤلف دائرة معارف؟

أنا وآدى إنت شايف.

انا مش شايف حاجة. أنا قدامى كتاب نقلتوه. بنفس الطريقة، وعلى نفس النهج، ولزقتوا له كلام من هنا ومن هنا، عشان يطلع مرقع ومن غير طعم.

بكره تشوف لما يطلع.

وكون ده يطلع شئ غير أمين!! دى بلطجة!! دا تزييف!

يبقى يحكم لما يطلع.

تاريخ إيه يا جودت بيه.. التاريخ اللى بتمولوه بفلوسكم؟ التاريخ اللى بتنشروه عشان يخدم أغراضكم؟! بتهددنى بالتاريخ؟ التاريخ الحقيقى حينكتب يوم ما يحس الناس بأمان، وساعتها حيكون التاريخ تاريخ!

●●●

ولم تعد تذهب إليهم يا مراد! هؤلاء ناس مضللون، هذا كله زيف!

ولا أنا بقادر على أن أشترك فى هذه المهزلة يا أخى يا مراد. سأقتنع معك بهذا القدر من الفرصة، ولنترك هذه الزفة.. لأصحابها!

... ونادت سميحة مراد لكلمة سر تريد أن تقولها له.

وفى المطبخ كانت تقف مرتبكة، وجهها مصبوغ بالحمرة، وعرقها يتساقط فى غزارة.

قالت والحياء يملكها:

معاك خمسة جنيه.

قال فى خجل:

لا والله يا سميحة.. ليه؟ عاوزاهم ليه؟

قالت ووجهها فى إناء تعد فيه الطعام:

خلاص. كنت فاكرة معاك.

وسكت مراد قليلا، وقال لها فى صوت هامس:

ما انت عارفة يا سميحة. أنا خلاص سبت الشركة، وعدت إلى دخلى المحدود جدا، من الجريدة، ولازم تنسى أيام الشركة خالص.

ولم ترد سميحة بكلمة. وأصر مراد على أن يعرف، فإن يكن السبب وجيها، اقترض المبلغ من مختار، وهو أعزب، مصروفاته محدودة.

وظلت سميحة لا ترد، وظل وجهها منكفئا على الآنية التى تعد فيها الطعام. لكن مراد لاحظ أن فى عينيها دموعا.

وأحاطها بذراعه، وهو يسألها فى حنان:

ماذا؟ ماذا يضايقك؟

قالت:

جارنا.. جارنا العجوز مريض، وقد نقلوه إلى المستشفى، وليس فى بيتهم شئ بالمرة، عن نفسى أنت تعرف، لكن الناس للناس.

وشاركها مراد هذه المشاعر، وذهب إلى مختار ثم عاد، ومعه المبلغ.

قالت: اقترضته؟

قال: من مختار.. مختار مش غريب!

وضحكت، وهى تمد شفتيها له، ثم قالت!

سيفرحون جدا به.. مساكين!

●●●

هؤلاء الناس أذكياء لا شك، انهم يا مراد يعرفون كيف يسيطرون!

مثل الأمريكان عندما يريدون شراء أحد! يدفعون بلا مقابل.. يدفعون للإنسانية! يدفعون والسلام! إنهم يدفعون، حتى اذا ما اعتاد الواحد منا على ما يدفعون، بدأوا يطلبون ما يريدون! فإن أنت رفضت، نزلت من سابع سماء إلى سابع أرض، مرة واحدة؟ وإن أنت وافقت، نزلت من سابع سماء الى سابع أرض أيضا! بفرق كبير جدا. النزول الأول فى دخلك، والنزول الثانى فى أخلاقك! وأنت تختار. عليك وحدك تقع مسئولية الاختيار!

ماذا تراك تختار؟!

وضحك مراد وهو يقول له: حدوتة.. هذه حدوتة يا صديقى مختار!

●●●

كانا لا يزالان الصحفيين الشاعرين الحالمين.

يجلسان فى حجرة واحدة، وكثيرا ما كانا يتقاسمان مكتبا واحدا!

كل شئ كان بينهما قسمة إلا شيئين:

سميحة، والسر الذى يحيطه مختار بكل ما تحاط به الأسرار من.. أسرار! أما عدا هذين، فقد كان شركة بينهما. وعندما قررا أن يقطعا كل علاقة لهما بشركة النشر الكبرى التى يملكها زملاؤهم القدامى، كان مفهوما أن عبئا ثقيلا سيقع على كاهلهما لكنهما كانا يطلبان الحرية، وكان ثمن الحرية معروفا لهما قبل أن يطلباها. وسرى بينهما عهد بأن يتعاونا على مواجهة النتيجة بعد أن يقعا كلاهما من سابع سما إلى سابع أرض.

وفى مكتبهما فى الصحيفة، كانا يتابعان أخبار الشركة، دون كلام.

كان كل منهما حريصا على أن يعرف مصير الشركة، وكان فى الوقت نفسه حريصا على ألا يظهر منه أى اهتمام بها. لكنهما لم يستطيعا أن يستمرا على هذا الاسلوب طويلا.

قال مراد: الناس دول إيه؟. شياطين؟!

قال مختار: يظهر أنهم شياطين..

وقال مراد: كنا زمان بنقول لازم ربنا مع الانجليز، عشان بيساعدهم!

وقال مختار: ودول كمان لازم ربنا معاهم، عشان بيساعدهم!

قال مراد: وإلا نكونش إحنا اللى ظالمينهم؟

وقال مختار: يا راجل عيب. فى إيه ظالمينهم؟!

وقال مراد: أنا عارف. أنا قربت أشك فى نفسى!

وقال مختار: يعنى لما واحد جاهل يؤلف دايرة معارف.. وغيره وغيره!

قال مراد: على رأيك يفك السيجارة الامريكانى!

وقال مختار: نبقى برضه ظالمينهم؟ يعنى لازم الناس تغش؟

قال مراد: وتزيف الحقيقة؟ لكن ما يمكن دا اللى ماشى.

وقال مختار: ماشى ماشى.. يحصل إيه؟

قال مراد: نقف إحنا.. ويقف حالنا.

وقال مختار: زى بعضه يحصل اللى يحصل.

قال مراد: عشان معندكش ست وإلا ولد.

... وسكت مختار ولم يرد. لكن دمعة حزينة تدحرجت على خده فمسحها وأخذ يداريها بابتسامة باهتة!

●●●

ومرت الأيام، والإعلانات تملأ الصحف عن سيل من الكتب تصدرها الشركة الكبرى.

ومرت الأيام، والأقلام المتسابقة تطنب وتشيد بهذا أو بذاك من إنتاج الشركة.

ومرت الايام، وحوائط العاصمة مملوءة بالملصقات عن مجلات الشركة.

ومرت الأيام، والدنيا كأنما تعاقب الشاعرين الحالمين على ما أبديا من التمرد.

ومرت الأيام، وأخبار صالون الأدب والثقافة والفن تزداد وتتوالى.

ومربت الايام، وجودت بيه يصدر كل يوم رائعة من روائعه.

ومرت الأيام، وعايق بيه يدخل شيئا جديدا على مجلات الشركة الشجاعة.

.ومرت الأيام، وعلاء يحلق فى السماء، لكثرة ما يحقق من إعلانات.

وبدا للشاعرين الحالمين أنهما تسرعا!

لكنهما صمتا عن أى كلام! كانا يخافان على نفسيهما من الكلام، فلجآ إلى الصمت!

وكانت سميحة تراهما على هذا القدر من الحيرة، فتطوى نفسها على الهم، وتسكت هى الاخرى.

حسن هو الوحيد الذى مضى ينفخ البالونات، ولا يبالى!

●●●

كان مراد يصيح بين الحين والحين: أين أنت يا رب؟

ولم تكن سميحة تريد أن تقطع عليه هذه المناجاة.

وكثيرا ما كان يمسك كتبه، ويطل على شارلى شابلن بزاوية من عينيه، ثم يضحك له..

وأين أنت يا شارلى العظيم، تطلق إحدى ضحكاتك على هذا العالم العربيد؟

●●●

ومرت الأزمة بنجاح.

ليست هناك أزمة بالمعنى الصحيح يا صديقى مراد. نحن الذين نصنع الأزمة. فالطموح أزمة، والثراء أزمة، والإسراف أزمة. ولو استطاع الانسان أن يلائم بين حاجاته وقدراته، لما حدثت أزمة.

وكان مراد يجيبه فى سخرية.

كان لا بد لنا من أزمة، لنعرف الفرق بين الأزمة والفرج.

وصحيح يا صديقى، نحن نصنع لأنفسنا الأزمة، حين ننسى الحقيقة، ونعيش فى صور مزيفة.. وها نحن الآن قد حطمنا الصور، وعدنا إلى الحقيقة، فلم تعد هنالك أزمة.

قال مختار فى عمق الفلاسفة:

أترانا نرفض أن ندخل أنفسنا فى أزمة أخرى؟ لو لمعت أمامنا صورها؟

وهز مراد رأسه، بغير أن يجيب. ومضى مختار:

الذى أتوقعه أن ننسى التجربة، لنقتحم الأزمة مرة أخرى. سيخدعنا بريق الازمة وزخرفها، لنقع فيها، فإذا أردنا بعد ذلك أن ننجو منها، فسنتعرض لمثل ما تعرضنا له، من محنة.. فى أثر أزمة، لتشرق شمس الصحوة.

قال مراد: ولماذا نحن نواجه الأزمة والمحنة؟ وسوانا يرفل فى حلل الثـروة؟ من وحل أو من دين، لكن ثروة، تعطى قدرة فوق القدرة!

●●●

وكان حسن قد استطاع أن يجمع ما يشاء من بالونات. وكانت بالونات حسن حمراء وصفراء وخضراء وبيضاء، ومن كل لون وحجم وشكل. فيها ما هو مكور، وفيها ما هو مستطيل، وفيها ما هو طويل، وفيها ما هو منبعج... وعلى كل منها رسم من نوع يختلف عن النوع الآخر.

وشعر أن عليه أن ينفخها جميعا. وأن يربط عنق كل منها ويحكم ربطها حتى لا تنزف هواء!

وكان على حسن أن يكون أحرص ما يكون، فإن النفخ الشديد جدا، قد يودى بها. قد تفرقع البالونة، وتتمزق! وكذلك النفخ الطرى جدا، سيشوه شكلها، ويفسد مفعولها!

وظل حسن ينفخ البالونات، فلما فرغ، أمسكها جميعا بحبل واحد، وصعد بها الى السطح، لا يراه أحد، حتى أمه غافلها وصعد..

وكانت لمراد حجرة مكتب تطل على شرفة واسعة تمتد أطول مما يمتد السطح، فكان الواقف فى طرف الشرفة، يرى الواقف فى آخر السطح.

وحرص حسن على ألا يقف على طرف السطح، حتى يتفادى أن يراه أبوه لو تصادف وقوفه فى طرف الشرفة، وهو كثيرا ما يتمشى فى الشرفة جيئة وذهابا، يفكر فى معنى، أو يستعيد حادثا، أو يراجع نفسه فيما ينوى أن يكتبه. بل كثيرا ما تشهد هذه الشرفة صديق أبيه الشاعر مختار، وهو يروح ويجئ من أول الشرفة حتى آخرها. وفى أحيان تشهد الشرفة الشاعرين يتمشيان فى خطوط متقاطعة دون أن يشعر أحدهما بالآخر.

●●●

وبينما كان حسن مشغولا ببالوناته كان مراد ومختار مشغولين بحملة الصمت التى خيمت على الجو العام فى علاقتهما بشركة النشر الكبرى.

بل كانا كذلك مشغولين بانقطاع مجلات الشركة عن الظهور.

اخـتـفـت الاعـلانات مـن السـيل من النشـرات، واخـتـفـت المجلات!.

ولم يجد الشاعران لهذا الاختفاء من تفسير، حتى طرق طارق باب مراد، فلما فتحته سميحة، فوجئت بأولاد الأعمام الثلاثة داخلين.

كانوا مثلما جاءوا أول مرة صامتين! الكلمات فى حلوقهم أحجار، والصمت فوق وجوههم كأنه غضب من الله!

وفهم الشاعران الموقف من نظرات عيونهم الذليلة.

●●●

أفلسنا .. ونحن نبحث عن عمل، نسد به الرمق!

ياه!! تسدون به الرمق يا أساتذة، يا عباقرة؟

وأين الصالونات؟ أين دواوين الشعر؟ أين ذهب الرجل ذو الثياب الرثة والعينين الزرقاوين؟ هل يموت من الجوع؟ أم أن الشاعرة قد أخذته وفرت به. حتى تلاقى ممولا آخر، فتعود للعبقرية قدرتها على الخلق والابتكار؟

●●●

وكان حسن قد بدأ ينفذ لعبته!

ربط نفسه فى حبل، مربوط بمجموعة البالونات!

... وترك البالونات تطير، ليحمله الهواء، إلى حيث يتفرج على الدنيا من فوق!

وكان لذلك حفيف، ثم ظهر حسن يطير مع البالونات، فرآه مراد فوق الشرفة، فأسرع يجرى، ووراءه مختار يجرى، ثم أولاد الأعمام الثلاثة يجرون كما يجرى الشاعران.

والشرفة لم تكن بهذا القدر من الاتساع حتى تصبح ساحة سباق، فما هى إلا خطوات، ووقف مراد على حافة الشرفة ينظر إلى حسن الذى كان يطير، بين مجموعة كبيرة جدا من البالونات.

وعجب الوالد، وهو يراه.. وأغرورقت عيناه بالدموع.

وأخذ مراد يصيح: حسن.. يا حسن.. دى بالونات يا حسن.

وحسن يشير.. بيديه يشير، وهو مزهو وسعيد.

ومراد يعود فيصيح: قلت لك أنها بالونات منفوخة هواء يا حسن، والهواء يعود كما كان هواء. حاسب يا حسن!

ومع صوت مراد ارتفع صوت مختار:

حاسب يا حسن. هذه بالونات يا حسن «بالونات» قلت لك بالونات!

ومع صوتى مراد ومختار، انضمت أصوات أولاد العم تقول:

إياك يا حسن... نحن مثلك يا حسن، طرنا ببالونات، وصدقنا أن البالونات تقدر تطير.. وهانحن أمامك يا حسن.. لا تصدق البالونات يا حسن. حتى لو كانت حمرة يا حسن...

●●●

وكما توقع مراد، فقد بدأت بالونات حسن تنزف هواءها بالتدريج!! فنزل مراد يجرى، ليكون فى استقبال حسن، قبل أن يرتطم بالارض، عندما تصبح البالونات قطعا من الكاوتشوك، بلا هواء.

لكن البالونات كانت أسرع من مراد ومن مختار، ففرقع بعضها والبعض الآخر نزف هواءه وفرغ.. ليترك حسن يصطدم بأرض الشارع.

●●●

وفى مستشفى أحد الأطباء كان حسن يرقد وقد وضعوا ساقيه فى الجبس، ولا يزال على فمه ابتسامة.

وكان مراد ومختار حول السرير.

وكانت سميحة إلى جوار حسن تربت على خده فى حنان.

وكان أولاد العم الثلاثة يحيطون بحسن، وفى عيونهم حزن بليد.

نظر الشاعران إلى حسن، وإلى أصدقائهم الثلاثة ثم ابتسم كل منهما للآخر.

وسأل مراد ابنه، حبيس الجبس:

هل أشترى لك بالونة يا حسن؟

وقال حسن:

أرجوك يابابا.. اشتر لى بالونة.

وسأل مراد!

فيم تريدها يا حسن؟ لتطير بها مرة ثانية؟

وقبل أن يجيب حسن كان أولاد العم الثلاثة يقولون:

إياك يا حسن. اسألنا يا حسن.

وضحك حسن وهو يجيب أباه:

سألعب بها يا بابا.. هذه المرة لن أطير ببالونة.. أبدا.

□□□

تمت بحمد الله

عبد المنعم الصاوى

رقم الإيداع : ٢٢٣١٤ / ٢٠٠٦



عبد المنعم الصاوي في سطور

- ولد في محافظة البحيرة يوم ٢٠ فبراير ١٩١٨.
- حاصل على ليسانس الآداب قسم اللغة العربية من جامعة القاهرة.
- عمل بالصحافة وتولى العديد من مناصبها القيادية واختير دورتين متتاليتين نقيبًا للصحفيين المصريين.
- أسس أول وكالة أنباء عربية (وكالة أنباء مصر).
- أسس اتحاد الصحفيين الأفارقة وتولى رئاسته حتى رحيله.
- تولى رئاسة مركز مطبوعات اليونسكو.
- أضاف للمكتبة العربية العديد من المؤلفات الروائية والفكرية وفي مقدمتها واحدة من أطول الروايات العربية خماسية الساقية (الضحية - الرحيل - النصيب - التوبة - الحساب الذي لم يمد الله عمره لإكماله).
- تم انتخابه عضوًا بمجلس الشعب عن دائرة الأزبكية والظاهر، ثم وكيلاً للمجلس عن نفس الدورة.
- تولى العديد من المناصب القيادية بوزارة الثقافة.
- تولى وزارتي الثقافة والإعلام معًا في حكومة السيد ممدوح سالم وفي عهد الرئيس السادات يرحمهم الله جميعًا.
- تم تعيينه عضوًا بمجلس الشورى في أول دوراته.
- تولى رئاسة اتحاد سباحة المسافات الطويلة وساهم بشكل كبير في دعم الرياضة المصرية على كافة المستويات.
- ظل يناضل من أجل القضايا العربية وفي مقدمتها قضية فلسطين التي ألقى آخر خطبه دفاعًا عنها في بغداد يوم السابع من ديسمبر عام ١٩٨٤ حين توفاه الله تعالى.

٨ جنيه

الناشر: شركة عا
محمد عبد المنعم
تليفون : ٧٣٥٩٠٨٧
بريد إلكتروني: sawy@alamia.net
طبعة عام ٢٠٠٧



للنشر والإعلان